

مكتبة الدراسات الأدبية

٢٦

الدكتور شوقي ضيف

في النقد الأدبي



دار المعارف

فِي النَّقْدِ الْأَدَبِيِّ

مكتبة الدراسات الأدبية

٢٦

في النقد الأدبي

بقلم

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثامنة



دارالمعارف

الناشر . دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . ٠ م . ٠ ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَدَمَة

يشغل النقد الأدبي حيزاً واسعاً في دائرة الأبحاث العقلية منذ أرسطو ، فقد كُتبت فيه مؤلفات ومصنّفات كثيرة حاول أصحابها بحثَ الأدب ودراسته في معانيه وألفاظه وقواعده وأصوله . ومن الممكن أن يوضعَ في هذه المصنّفات والمؤلفات حدٌّ فاصل بين دورتين تاريخيتين : دورة طويلة تمتد إلى نهاية القرن الثامن عشر . ودورة لا تزال في آثارها إلى اليوم . أما الدورة الأولى فلم يتحول فيها النقد إلى دراسة منهجية علمية دقيقة إذا استثنينا أرسطو فإنه كان من الحسّ الثاقب والبصيرة النافذة بحيث استطاع أن يضع للمأساة اليونانية نظرية كاملة ، أما غيره من نقاد هذه الدورة فقد ظلوا يسبّدون ويُعيدون فيما نثره من أحكام على المأساة والشعر عامة . ومن الحق أننا قد نجد عندهم بعض الملاحظات والإشارات الدقيقة ، ولكن من الحق أيضاً أن هذه الملاحظات والإشارات غُمرت بكثير من الإبهام والغموض والعبارات الخطائية التي قد تَحْلِبُ الأسماع ولكنها لا تقنع العقول ، ولذلك قلما انتهت عند أحد منهم إلى وضع نظرية نقدية منهجية .

أما الدورة الثانية التي تسهل بالقرن التاسع عشر فقد حاول فيها النقاد أن يضعوا في النقد نظريات تصطبغ بالصبغة العلمية ، واتجهوا أولاً يستضيئون بالعلوم الطبيعية ، فحاولوا أن يضعوا ما يمكن أن نسميه باسم « التاريخ الطبيعي للأدب » إذ طبّقوا عليه منهج علماء الطبيعة في تصنيف النبات والحيوان في فصائل بعينها ، ومعروف أنه لكل فصيلة ميزاتها وخصائصها التي تنفرد بها من سواها ، وكذلك الأدباء ينبغي أن يرتبوا في طبقات ويصنّفوا في فصائل حسب خصائصهم الأدبية . وطبّق عليهم بعض النقاد قوانين الجنس والبيئة والزمان ، ومضى آخرون يطبقون عليهم تطور الكائنات العضوية وما ذهب إليه « دارون » من نظرية النشوء والارتقاء في تلك الكائنات . وما يزال النقاد في شغل بتطبيق هذه المناهج الطبيعية طوال القرن

التاسع عشر . حتى إذا ازدهرت الدراسات الإنسانية مع القرن العشرين الذى نعيش فيه وازدهرت معها البحوث النفسية والاجتماعية وجدنا النقاد يحاولون . على ضوء هذه البحوث ، أن يضعوا فى النقد نظريات جديدة تستمد مما كتبه أصحابها فى العلاقات الاجتماعية وموروثات المجتمعات الحديثة عن الشعوب البدائية أو مما كتبه عن نظريات اللاشعور الفردى والجماعى وعقد الجنس ومكبوتاته وخيال الجماعة ورواسب الأساطير فيه . ويظل فى أثناء ذلك قوم يؤمنون بأن النقد فن ولا يمكن أن يصبح علما . فعماده الذوق والتأثرات الشخصية . وتكثر الدراسات فى حقائق الأدب وفنونه الشعرية والنثرية محاولة أن تلمّ بجميع دقائقه . على هدى مما كتبه فيه النقاد الممتازون .

وقد تناولتُ فى هذه الفصول نشأة النقد وتطوره ومناهجه المختلفة فى تحليل الأدب وتقويمه وكيف ندرس الشخصية الأدبية كما تناولت الفروق الجوهرية بين الأدب والعلم ، ووقفت عند تفسير الجمال الفنى وتعليه والصلات المنعقدة بين فنون الشعر والتصوير والموسيقى . وأطّلتُ الوقوف عند الشعر وأوزانه وصياغته ونصوصه وتأويلاته وتجاربه وما ينبغى أن يتوفر للقصيدة من وحدة عضوية تامة . ثم تحدثت عن الأدب وخصائصه الاجتماعية وما أنشأته فيه الحياة الحديثة من بعض الأنماط الجديدة . حتى إذا فرغتُ من ذلك تحدثتُ عن القصة والمسرحية وطبيعة كل منهما الفارقة .

وكلُّ ما كتبه من ذلك إنما هو آراء تمثّلتها ، وقد ابتغيت فيها الوضوح ما أمكننى لإيمانى بأن الكتب لا تحتاج إلى شيء حاجتها إلى الوضوح ، حتى تُفهم معانيها وتمّ الفائدة المرجوة منها . والله الهادى إلى سواء السبيل .

فهرس الموضوعات

الصفحة

مقدمة	٥
١ — نشأة النقد وتطوره	٩
٢ — بين التحليل والتقويم	٤٦
٣ — تصوير الشخصيات الأدبية	٥٨
٤ — بين الأدب والعلم	٦٩
٥ — الجمال الفني	٧٧
٦ — الشعر والتصوير والموسيقى	٨٩
٧ — أوزان الشعر وقوافيه	٩٩
٨ — الصياغة الشعرية	١١٠
٩ — نصوص الشعر ودراساتها	١١٩
١٠ — وفرة التأويلات في الشعر	١٢٩
١١ — التجربة الشعرية	١٣٨
١٢ — عناصر التجربة الشعرية	١٤٦
١٣ — الوحدة العضوية للقصيدة	١٥٣
١٤ — الصورة والمضمون	١٦١
١٥ — الخيال	١٦٧
١٦ — الأصالة	١٧٦
١٧ — النموذج الفذ	١٨٤
١٨ — الأدب والحياة الاجتماعية	١٩١
١٩ — الصحافة والأدب	٢٠٠

الصفحة

٢٠٨	٢٠ — الأدب والخيالة
٢١٦	٢١ — بين القصة والمسرحية
٢٢٥	٢٢ — الأسلوب القصصى
٢٣٤	٢٣ — الأسلوب المسرحى
٢٤٣	٢٤ — المسرحية والطبيعة الإنسانية

نشأة النقد وتطوره .

اليونان القدماء هم الذين سبقوا إلى وضع أصول النقد وقواعده ، فقد ظهرت عندهم أقدمُ صُوره ، وترقّت برقي شعرهم ونثرهم وما وصلوا إليه من حضارة وترف عثلى وعمق فى التفكير ، هذا العمق الذى جعلهم ينتجون الفلسفة كما جعلهم ينتجون بحوثاً مختلفة فى الاجتماع والسياسة والأخلاق. وقد بدأ النقد عندهم بدءاً ساذجاً. ثم أخذ يتعقد شيئاً فشيئاً حتى أخذ شكله النهائى عند أرسطو . ونستطيع أن نتبين أولى صُوره فى ذلك الجهد الحصب الذى كان يبذله الشعراء القدماء فى أناشيدهم وملاحمهم فى أثناء عصر البطولة والأساطير ، فقد ظلوا يحدّون فى ألفاظهم وأوزانهم وسرّد أفاصيصهم ، حتى استطاع هوميروس فى منتصف القرن التاسع ق. م. أن ينهض بنظم ماحمته : الإلياذة والأوديسا فى أسلوب مرن ولغة مصقولة بلغ بهما حدّ الكمال . وهما بدون شك ثمرة تهذيبات وتحسينات كثيرة انتهى بها هوميروس إلى هذا الإتقان البارع لفنه . غير أن هذا الضرب من النقد ضرب إنشائى يتضمنه إنشاء الشعر ، وليس من النقد بالمعنى الدقيق لكلمة نقد ، ونقصد النقد الذى يقوم ويقدر ما للنص الأدبى من قيمة فنية ، فيُزرى ويهجن أو يقبل ويستحسن ، وبعبارة أخرى النقد الذى يتجاوز فيه الناقد درجة الشعور إلى درجة التفكير فى الشعور ومعرفة الأسباب التى من أجلها يرضى عن قصيدة أو يسخط عليها . ولا نلبث أن نجد ضرباً آخر من النقد على ألسنة الرواة الذين كانوا يروون للناس أشعار هوميروس وأشعار هيسود الذى عاش بعده بنحو قرن واتخذ حياة الفلاحين وأعمالهم موضوعاً لأشعاره ، فقد كانوا يُصلحون فيما يروونه من أشعارهما ، فيهدبون ألفاظها وعباراتها ، وقد يضيفون إلى ما يروون بعض المقطوعات ، وقد يضيفون بعض الملاحظات البيانية معتمدين على ذوقهم وحسّهم الأدبى وما فطنوا إليه من صور الفصاحة والبلاغة . وهذا الصنيع هو الخطوة الأولى فى النقد بمعناه الحقيقى الذى يحاول أن يزن النص الأدبى ويصور قيمته . وما زال هؤلاء الرواة يقومون بذلك حتى دُوّنت هذه الأشعار فى القرن السادس ق. م. وكان هذا التدوين خطوة ثانية فى النقد

إذ اقترن به بحث النصوص وتحقيقها واتخاذ هذا البحث والتحقيق وسيلة للتمحيص والتدوين .

ونحن لا نصل الى أواخر القرن السادس ق. م. حتى يرقى الشعر اليوناني رقيًا واسعاً ، فيظهر الشعر التمثيلي ويأخذ شعراؤه المشهورون في الظهور . وليس يهمننا أن نتعقب نشأة هذا الفن في أعيادهم الدينية وتطوره إنما يهمننا ما كان يرافقه من مسابقات تُعدُّ صورة من صور النقد . فقد كان الشعراء الممثلون يتقدمون بمسرحياتهم ويختار منهم ثلاثة لتمثيل روائعهم أمام الجمهور ، فإذا وقع الشاعر من الجمهور موقعاً حسناً صفَّق له وأتى من الحركات ما يدل على استحسانه ، وإذا وقع منه موقعاً سيئاً صفَّر له وأتى من الحركات ما يدل على إزرائه . وكان هناك محكِّمون يحكمون بين الشعراء الثلاثة فمن حكموا له بالسبق فهو المجلِّى صاحب الجائزة الأولى ويليه الثانى صاحب الجائزة الثانية ، أما الثالث فمغلوب على أمره ولا حظَّ له في جائزة أو مكافأة . وهياً ذلك لرقى حاسة النقد عند اليونان كما هياً لرقى فن التمثيل ، وكان من آثاره أن تطورت المسرحية فلم تعد تقتصر على وصف حياة الآلهة وأنصاف الآلهة من الأبطال . بل تعدت ذلك إلى وصف الحياة اليونانية وما كان يضطرب فيه اليونان من أحداث وأهواء وعواطف متباينة . وتناول شعراء التمثيل موضوعات الحياة الاجتماعية والسياسية والفلسفية والأدبية بالنقد والتهمك واللاذع ، وقامت الملهاة عند أريستوفان في القرن الخامس ق. م. بنصيب واسع في هذه الحركة ، فنَدَّت بنظام الدولة وحكامها وسياستهم ، وتعرضت لكثير من المشاكل التي كانت تشغل بال الأثينيين وما كان يثيره الفلاسفة من شك في الدين القديم . ولعل ذلك ما جعل أريستوفان ينظم ملهاة « السُّحب » وهى تصور نوعاً من الصراع بين الشعراء والفلاسفة . فقد حمل فيها عليهم ومثَّل سقراط منكراً للآلهة ينصر الباطل على الحق . ومرجع هذا الصراع أن الفلسفة أرادت أن تخضع لها العقل اليوناني وكان خاضعاً لآلهة الإلياذة وغيرها من شعر الملاحم القديم . مما ترددت أصداؤه في الشعر التمثيلي ، فشكَّت في هذا الشعر جملة وما يصوره من حياة الآلهة ، ونشبت من جرّاء ذلك خصومة شديدة بين الفلاسفة من جهة وبين الشعراء والشعب من جهة ثانية ، أو بعبارة أخرى بين العقل الفلسفى الحديث وبين الدين القديم والشعراء والعامّة ، فقد

أخذ هذا العقل يشككهم في معتقداتهم ويتهم عقول الشعراء وعلى رأسهم هوميروس ، فتصدى لهم أريستوفان في ملهارة « السحب » يحمل عليهم حملة شعواء ناعياً عليهم فلسفتهم وكفرهم بالدين وإلحادهم بالشعر والفن

ومع ذلك فقد كانت المهزلة نفسها تتأثر بالفلسفة عند أريستوفان ، إذ نراها تتجنب عن الموضوعات القديمة وتتناول مشاكل الحياة من دين واجتماع وسياسة تناولا يبدو فيه كثير من الشك والاثام . بحيث يمكن أن نرى فيها نمو التفكير الفلسفي عند اليونان وما ارتبط به من شك الفلاسفة والسوفسطائيين ، فقد أخذت تعرض لكل شيء بالنقد والشك حتى الشعر نفسه . فقد نظم أريستوفان ملهارة « الضفادع » متحدثاً فيها عن الشعر والشعراء مظهراً مهارة منقطعة النظير في اللعب بالألفاظ وعرضاً لكثير من المشاكل الشعرية ، وعلى رأسها مشكلة القديم والجديد ، متخذاً من إيسخولوس رمزاً للقديم ومن يوريبيد رمزاً للجديد ، فالأول يرى أن الشاعر ينبغي أن يعنى بالحدود الموضوعية والتقاليد المرسومة ، فيختار موضوعاً عظيماً من الآلهة والأبطال ويرتفع عن لغة الحياة اليومية إلى لغة القدمات ، أما يوريبيد فيرى من واجب الشاعر أن يستخدم موضوعات الحياة اليومية ولغتها . وأنكر عليه إيسخولوس هذا الرأي وقال إنه يحقر لغة الشعر ويصله بموضوعات تافهة ، وهاجمه مهاجمة عنيفة لخروجه على أوضاع الشعر وتقاليده . وبذلك أثار أريستوفان في النقد اليوناني مسألة القديم والجديد ، وقد استمد أحكامه من الشواهد والنصوص . ومع تعصبه لإيسخولوس لم يتغاض عن عيوبه في الأسلوب وما كان يستخدمه من ألفاظ تشبه الدوامات والصخور . وقد قرر على لسانه ولسان يوريبيد أن غرض الشعر التعليم وأن يجعل الناس خيراً مما هم .

كان هناك إذن متزعان في الشعر : منزع المحافظين الذين يعنون بالتراث القديم في الموضوع والأسلوب ومنزع المجددين الذين يحاولون أن يجددوا في كل شيء حتى يتفقوا مع ذوق العصر وحتى يهيئوا للشعر تطوراً في موضوعاته وأساليبه . وكان اليونان لم يتركوا للمحدثين شيئاً ، فإذا كنا نلاحظ دائماً في النقد الحديث منزعين أو مذهبين : مذهباً يحافظ على الأصول الموروثة ومذهباً ينزع إلى التجديد وفرض أصول جديدة فقد سبق اليونان إلى استشعار المذهبين جميعاً ، وطبقوهما

في شعرهما ونقدتهما منذ القرن الخامس ق. م. فكان منهم من يحافظ - ويدعو إلى المحافظة - على التراث القديم ، ومنهم من يتحرر من هذا التراث ويدعو إلى الخروج عليه تمشياً مع روح العصر ومقتضياته . أما فكرة التعليم التي أثرت في الملهاة فخرجها أن الإلياذة والأوديسا كانتا تعتبران كتاب اليونان المقدس ، ففيهما آلتهم ودينهم وتعاليمهم ، ولذلك سئى أفلاطون بعد قليل يناقش تعاليم الشعر ويحاول أن يصل بينه وبين الأخلاق . وقد اتفق إيسخولوس ويوريبيد في أن واجب الشاعر أن يعلم ولكنهما اختلفا في مادة هذا التعليم فيوريبيد يرى أنه ينبغي أن يعلم العواطف الشعبية ويتصل بالجمهور ولغته اليومية ، أما إيسخولوس فيرى من واجبه أن يرتفع بالجمهور عن عواطفه إلى المثل العليا ، مثل المحافظين الذين يستمدون من القديم .

ونحن نلمس عند أريستوفان تطور النقد عند اليونان ورقيه ، فلم يعد مقصوراً على شيء من الإصلاح والتهذيب يتناول الشعر في أثناء روايته أو تدوينه ، بل أصبح يثير مشاكل الشعر الأساسية ويجب عليها ، فهو يبحث في موضوعاته وأساليبه وأغراضه . وليس من شك في أن ملهاة « الضفادع » وما عرضت له من نقد تجعلنا نعجب اليوم كيف استطاع اليونان في هذا العصر المتقدم أن يعالجوا مسائل الشعر على هذا النحو فيصوروها في مسرحياتهم ، والحق أن عقلهم كان زائراً بالحكمة ، وكأن الفكر قد هُرمَ عندهم ، فليس هناك موضوع في الشعر أو في السياسة أو في الاجتماع أو في الطبيعة أو فيما وراء الطبيعة إلا طرحوه للبحث والمناقشة .

وإذا تركنا الرواة والشعراء من أصحاب التمثيل وجدنا نقداً آخر ينمو نمواً واسعاً ، وقد انتهى بتأليف أرسطو لكتابه « الشعر » و « الخطابة » ونقصد هذا النقد الذي كان يقوم به الفلاسفة من قبله في تفسير الشعر وبحث قيمته الفنية وما يتضمنه من أفكار وعقائد . وقد بدأ هذا النقد منذ نشأة الفلسفة اليونانية ، فقد تناول الفلاسفة الميثولوجيا القديمة وناقشوا معتقداتها ودعوا إلى الانتعاض عليها . ولما كانت هذه الميثولوجيا ممثلة في الإلياذة والأوديسا وأشعار هيسيود فإن نوعاً من النقد الفلسفي في العقيدة أخذ يظهر تعليقاً على ما في هذه الأشعار من أفكار ميثولوجية لا يؤمن بها الفلاسفة ، وفي أثناء ذلك كانوا يتعرضون لدرس الشعر القديم وشرحه والتعليق عليه ، متلومين هوميروس وهيسيود لما أشاعا من هذا الضلال والبهتان .

ونحن لا نصل إلى النصف الثاني من القرن الخامس ق.م حتى ترقى شخصية العقل الفلسفي عند اليونان ، فتكثر الآراء ويكثر الجدل في كل شيء ، ويظهر جماعة السوفسطائيين يعلمون الشباب طرق الفصاحة وكيف يستطيعون أن يتغلبوا على خصومهم بالحق وبالباطل وكيف يلعبون بالحجج الخلابية والألفاظ ودلالاتها ، وأثاروا مسائل كثيرة حول الإقناع الخطابي وصفات الأسلوب الجيد والألفاظ وسحرها وجمالها . وتعرضوا ، فيما تعرضوا ، للشعر وأوزانه ، فهيئوا بذلك لقواعد نقدية كثيرة . وإذا تركناهم إلى سقراط خصمهم الأكبر وجدناه لا يترك شيئاً يشبه أن يكون نظرية في النقد ، والحكم عليه دائماً باعتوره شيء من النقص ، لأنه لم يخلف آثاراً مكتوبة ، إنما حكى تعاليمه أفلاطون تلميذه فيما كتبه من محاوراته الكثيرة حيث يعرضه علينا ويعرض أفكاره في حوار مع خصومه من الفلاسفة والسوفسطائيين والشعراء . ومن الصعب أن نميز في هذا الحوار بين آراء أفلاطون وآراء أستاذه ، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نلاحظ من صنيع أفلاطون وما عُرف من حوار سقراط مع معاصريه وعدم رضا الشعراء — وعلى رأسهم أريستوفان — عنه أنه كان يسألهم عن فهمهم وما حذقوه من معرفة وحكمة . وقد صور ذلك أفلاطون في الدفاع الذي حكاه عنه في أثناء محاكمته ، فقد ذكر أنه بدأ الكلام بدون تنميق ، ثم أخذ يرد على خصومه من الفلاسفة والشعراء ، وأنكر أنه يتحدث عن الآلهة بسوء ، وقال إنه سأل الشعراء عما يعنون بأشعارهم ، فلم يستطيعوا جواباً ، بينما رأى كل من حولهم يستطيع الجواب خيراً منهم ، فعرف أنهم مجردون من الحكمة وأن كل ما عندهم إنما هو موهبة أو وحى ، فهم مثل الأنبياء والكهنة ينطقون بالكلام البليغ دون أن يعرفوا ماذا يقولون . ولكن هذا لا يؤلف نظرية في الشعر ولا وجهة واضحة ، وربما جاءه ذلك من أنه كان عملياً وأنه لم يكن يعنيه أن يضع في الشعر نظريات ، فقد ترك ذلك لتلميذه أفلاطون .

ولم يترك أفلاطون في الشعر كتاباً خاصاً بحثه فيه بحثاً منظماً ، إنما ترك آراء منثورة في كتاباته ، وخاصة في محاورته المعروفة « إيون Ion » أو عن الإلياذة وما كتبه في الجمهورية عن هوميروس وعن الشعراء والشعر عامة . وتشتهر كتاباته بطريقة الحوار التي أخذها عن أستاذه سقراط ، فقد كان سقراط يسعى في الطرقات

والأسواق والمحافل العامة يسأل الفلاسفة والسياسيين والشعراء وغيرهم عن صناعاتهم ، ويناقشهم فيها متخذاً الحوار أسلوبه لما يريد أن يقنعهم به . ولم يكن يتخذ له مكاناً خاصاً للبحث والدرس بل كان يسير سيرة السوفسطائيين في التجوال والتنقل ، ومثله من الصعب أن يختلف نظريات عامة فيما يبحثه ، لأن أبحاثه كانت تقوم على الاستطراد والانتقال من فكرة إلى فكرة ومن موضوع إلى موضوع في غير نظام ولا نسق معين . أما أفلاطون فاتخذ لأبحاثه أحد الملاعب في أثينا ، وكان ينسب إلى أكاديموس أحد أبطال اليونان القدماء ، فسميت مدرسته باسم الأكاديمية وكان يعلم فيها تلاميذه عن طريق الحوار ، بالضبط كما كان يصنع سقراط ، إلا أنه حوار مقيد بأشخاص معروفين وتلامذة متصلين بالأستاذ والدرس ، فأتاح له ذلك تنظيم بحوثه كما أتاح له كتابتها في هذا الحوار الذي يمكن أن نلاحظ أنه لم يكن تراث سقراط وحده ، بل كان تراث العقل اليوناني القديم ، إذ نرى بذوره الأولى في الإلياذة ، وقد اتسع به فن التمثيل ، ومنه انتقل إلى الفلسفة والفلاسفة ، وكأنما كان الحوار تعبير العقل اليوناني في تلك العصور .

ونرى أفلاطون في محاورته « إيون أو عن الإلياذة » يردد على لسان سقراط أن الشعراء ينظمون شعرهم عن وحى وإلهام ، وكما أن الراقص حين يرقص يخرج عن دائرة عقله الحقيقي كذلك الشعراء حين يؤلفون أشعارهم ، فالشاعر كائن مجنح مضىء مقدس ، ليس له ابتكار ولا خلق ، إنما كل ما عنده إلهام . وتقرر المحاورة أن شارح الشعر وناقده مثل الشاعر لا يصدر في عمله عن عقله ، إنما يصدر عن ضرب من الإلهام ، فهو يتأثر ويحكى تأثره غير معتمد على منطق أو عقل . ومضى أفلاطون في الجمهورية يهاجم الشعراء ، إذ وجدهم لا يتفقون مع فلسفته ومدينته المثالية وتعاليمه ، فلم يتحرج من أن يضع إكليل الغار على رؤوسهم ويطردهم خارج مدينته ما داموا لا يمثلون ما يريد من الفضيلة . وبذلك حكم الأخلاق—شأن معاصريه من الإغريق—في الشعر ولم ينظر إليه من وجهة جمالية ، وإنما نظر إليه كشئ يتعلمه شباب مدينته المثالية أو مدينته الحديثة ، وراه لا يبعث على المثل الأخلاقية إذ يعرض الآلهة متنازعين امتلأت قلوبهم بالحقد والشر ومحبة سفك الدماء ، كما يعرض الأبطال متخاصمين قست قلوبهم وامتلأت بالآلام والشهوات والعواطف

الترقة . وأدّاه ذلك وما أراد أن يحرس به مدينته من آفات الضعف أن يحول بين الشعراء وبينها وأن يرفض شعرهم ، وهو رفض أخلاقي تعانق فيه الأخلاق السياسة حتى ينشأ أفراد المدينة على الأخلاق الفاضلة . وأكبر الظن أن مبعث ذلك عنده وعند معاصريه أن الشعر كان يُعدُّ من دعائم التربية في عصره وكان الشعراء يعدون معلمين فناقشهم على هذا الأساس : أساس أن الشعر يُقصدُ به إلى خير الدولة . وهكذا لم ترسم في ذهنه ولا ذهن معاصريه النظرية القائلة بأن الشعر للشعر أو الفن للفن وأنه غاية في نفسه ولنفسه ، فلا يقصد به إلى أخلاق أو سياسة أو دين .

واستمد أفلاطون من نظريته المشهورة في المُثل هجوماً آخر سدّده إلى الشعر ، إذ كان يرى أن الوجود ينقسم إلى ثلاث دوائر : دائرة المُثل والمدركات العقلية وهي دائرة الحقائق الكلية ، ودائرة العالم المحسوس أو الطبيعة وما يتصل بها من الإنسان وعواطفه وأحاسيسه ، وكلُّ شيء في هذه الدائرة الثانية محاكاة أو صورة لمثاله في الدائرة الأولى ، ثم دائرة الفنون والشعر وكل ما فيها محاكاة وتقليد للدائرة الثانية ، فالفن شعراً وغير شعر ليس إلا محاكاة لمحاكاة أو صورة لصورة ، وفي ذلك تخلف واضح له عن عالم المُثل وبعُدٌ بعيد . وكأنه لم يلاحظ أن الفنان لا يحاكي الطبيعة محاكاة طبق الأصل ، بل يكملها ويضيف إليها من عواطفه ومشاعره . وربما دفعه إلى ذلك أنه أراد أن يهدم الشعر لما فيه من انحراف عن الأخلاق الجيدة ، فأتاه من هذا الطريق يريد أن يشوّهه ويحطّ من قدره وقدر أصحابه . وتحدث في بعض محاوراته عن الخطابة فلاحظ الفكرة التي دارت في كتب أصحاب البلاغة والبيان عندنا والتي نظن ظناً أنهم نقلوها عنه ، وهي فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فكلام الخطيب ينبغي أن يكون ملائماً لسامعيه . ومعنى ذلك أنه لا بد أن يعرف أحوالهم النفسية ، حتى يخاطبهم بما يتأثرون به ، وحتى يبلغ ما يريد من التأثير فيهم ، وكأنه يوجب على الخطيب المعرفة الدقيقة بعلم النفس ، فلا بد أن يعرف طبائع من يستمعون إليه ، حتى يطابق بينهم وبين كلامه كما يطابق بين كلامه وبين الموضوع الذي يتحدث فيه ، فيوجز حيث يحسن الإيجاز ، وبطيل حيث تحسن الإطالة

ويعمى أفلاطون فيخلفه تلميذه أرسطو ، وعنده يتخذ النقد اليوناني شكله

النهائي ونظرياته الأخيرة سواء فيما يتصل بدراسة الشعر أو دراسة النثر والخطابة وعمل أصول البيان . وقد عارض أستاذه في كثير من آرائه لا عن تحيز أو تعصب ، وإنما بمقدار ما أداه إليه المنطق وما اتخذته لنفسه من قواعد في البحث والدراسة ، إذ كان ينهج في فلسفته نهج من سبقوه من الطبيعيين أمثال أنباذوقليس ، وبذلك انحرف عن نهج أستاذه الذي كان يشغف بنهج الرياضيين أمثال فيثاغورس . وقد تساءل في مقدمة كتابه الحيوان هل ندرس أولاً الخاص ثم نتحول إلى العام أو ندرس العام ثم نتحول إلى الخاص ، وبعبارة أخرى هل ندرس وفق الطبيعيين الذين يبدؤون من الجزئيات الملموسة فيشتقون منها نظرياتهم بعد أن يكونوا قد رتبوها وصنّفوها وعرفوا فصائلها وأنواعها ووظائفها وصفاتها ، أو ندرس وفق الرياضيين الذين يبحثون بحثاً نظرياً مجرداً ثم يعودون إلى الجزئيات فيطبقون عليها نظرياتهم وقد يكون لها ما يشخصها في الواقع المحسوس وقد لا يكون ؟ واختار الطريق الأول لأنه أراد أن يكون عالماً طبيعياً ، ورفض الرياضة وما جرّت إليه من أبحاث خيالية عند أفلاطون وفيثاغورس من قبله . وبذلك ابتعدت الرياضة عنده عن الفلسفة وعن أبحاث « اللوقيون » وهو الملعب الذي اختاره للدراسة فيه . ولعل من الطريف أن الفلسفة لا تزال إلى عصرنا الحديث تتردد بين هذين المنهجين ، ففي القرن الماضي كانت الغلبة للعلوم الطبيعية في دراساتها واتجاهاتها ، وتغلبت في هذا القرن العلوم الرياضية . فالعقل الفلسفي المعاصر تغلب عليه النزعة الرياضية ، بينما كانت تغلب النزعة الطبيعية على العقل الفلسفي للقرن التاسع عشر . وهذا نفسه نجده بين فيثاغورس وأنباذوقليس ، ثم نجده بعد ذلك عند أفلاطون وتلميذه أرسطو الذي كان يعجب بأنباذوقليس وطريقته إعجاباً شديداً . وبذلك لم تفضل الفلسفة عنده في أعماق ميتافيزيقية ولا في نظرية المثل الأفلاطونية .

وكان لأرسطو من نفاذ البصيرة ما جعل كثيراً مما صوّر به الحياة اليونانية في الأخلاق أو الاجتماع أو السياسة أو الشعر أو النثر صالحاً لأن يطبق في كل زمان ومكان ، فقد كان له حدس غريب وموهبة فذة في التعميم ووضع النظريات العامة . وهو لا يبارى في تنظيم ما يبحثه إذ يصنّفه ويؤبّه ويرتبه ترتيباً دقيقاً . وكان يُلقي محاضراته وهو يمشي بين تلاميذه ، ولذلك سُمّيَ مذهبه الفلسفي مذهب

المشائين ، ويظهر أنه كان يدفع تلاميذه دفعاً إلى مشاركته في أبحاثه على نحو ما هو معروف عن كتابه في السياسة . على أنه ينبغي أن نحتاط دائماً كلما ذكرنا كتاباً من كتبه . إذ يظهر أنه ضاعت منها قطع مختلفة ، بحيث لم يبق منها في أحوال كثيرة إلا أصولها ، وكثيراً ما ضاعت منها بعض الأبواب والفصول . وربما رجع ذلك إلى أنها كانت محاضرات ، وكثيراً ما يترك التلاميذ قطعاً من المحاضرة . وقد يرجع هذا إلى أنها كانت مذكرات كتبها هو لنفسه ، فلم يذكر فيها سوى المعالم البارزة التي سيتناولها بالشرح في أثناء محاضراته وبحوثه . ويلاحظ هذا بوضوح في كتابه عن « الشعر » ففيه فصول مبتورة . وفيه تفصيل لأشياء تافهة وإيجاز لأشياء مهمة . وعلى الرغم من هذه العيوب يعرض علينا الكتابُ المعالم البارزة التي لاحظها أرسطو على الشعر . ولعل من الواجب أن نشير هنا إلى خاصية في العقل اليوناني بعامة ، وهي الإيجاز والقصد الواضح إلى تصوير المعالم الأساسية في الموضوع ، وكأنما الحياة لم يُصَبَّها من التعقيد عندهم ما يجعل التعبير عن أي موضوع فيها غامضاً أو مبهماً ، أو كأنما كان لديهم من عمق البصيرة ما يجعلهم يصورون الخطوط البارزة في الموضوعات التي يعالجونها ، عامدين إلى ذلك ، غير متغلغلين في تفاصيل دقيقة ولا متشعبين في استطرادات غريبة . فالذي يهمهم دائماً أن يبرزوا الأفكار الأساسية في الموضوع الذي يبحثونه ، غير مشوبة بأفكار ثانوية أو أعشاب ضارة من آراء غير مهمة ، حتى تظهر خطوط الموضوع ومعالمه ناتئة نتوء الأشجار الكبيرة . وتلك الخاصة هي أهم شيء يجعل للكتابات اليونانية قيمة واسعة فكأن أصحابها كانوا يعرفون بحسبهم اللطيف المعالم الجوهرية في شئون الحياة المختلفة من فلسفة وسياسة وفن . وتلك رسالة أرسطو في الشعر لا تزيد صفحاتها عن نحو ستين صفحة من القطع الصغير ، ومع ذلك استمرت إلى اليوم يستمد منها نقاد المسرح والشعر كثيراً من آرائهم وأدلتهم .

وهذه الرسالة لا تبحث كل فنون الشعر التي ظهرت عند اليونان ، وقد عرضت لمجموعتي الشعر الحماسي والشعر الهجائي بوصفهما خطوتين ممهدين للشعر التمثيلي ، ومن الأولى تفرعت المأساة ومن الثانية تفرعت الملهاة . وقد تأخرتا عن أصولهما من الشعر كما يشهد بذلك التاريخ ، ومن ثم يرى أرسطو

أنهما تمثلان دوراً فنياً أرقى من الدور الذى يمثله الشعر الحماسى أو شعر الملاحم والشعر الهجائى. ولعلهما من أجل هذا كانتا خليقتين بالحديث عنهما، ومن ثمَّ تحدث عن المأساة حديثاً واسعاً يكاد يشغل القسم الذى وصلنا من الرسالة ، وقدَّم لها بمقدمة عامة عن الشعر وأشكاله المهمة ، وما تمتاز به محاكاته كفن من فنون المحاكاة سواء فى وسائله وموضوعاته وطرائقه .

رسالة الشعر إذن عند أرسطو تكاد تقتصر على بحث واسع فى المأساة ، أما الملهاة فلم يصلنا ما كتب عنها فى الرسالة ، ويظهر أنه ضاع ، غير أن ضياعه لم يضع علينا أن نفهم ما يريده أرسطو بالشعر وما يضعه له من قواعد . وربما كان من الأشياء التى تلفت النظر أنه حينما عرض لتقسيم الشعر إلى أنواعه ، بذوقه الطبيعى الذى يعنى بتقسيم الأشياء تقسيماً دقيقاً إلى أنواعها وفصائلها وبمنطقه المشهور الذى يقفه على الحدود ، لم يتحدث عن الشعر الغنائى ، بل أهمله إهمالاً . وأغلب الظن أن سبب ذلك ارتباط الشعر الغنائى عند اليونان بالموسيقى ، فهو لا يوجد بدونها ، بل هى حياته ووجوده وكيانه ، ولذلك لم يستطع أن يدخله فى أنواع الشعر العامة .

وهو يستهل حديثه فى الكتاب بأن الشعر ضرب من ضروب المحاكاة ، وهى نفس اللفظة التى اعتمد عليها أفلاطون فى مهاجمته للشعر ، فهو عنده يحاكي الطبيعة والطبيعة تحاكي المثل ، والمثل هى الحقيقة ، وإذن فقيمتها تافهة لأنه يبعد عن الحقيقة بمرحلتين أو بثلاث . ولم يحاول أرسطو أن يرد على هذه النظرية مباشرة ، ولكنه جاء بما يهدمها هدماً ، فقد مررنا أنه لم يكن يؤمن بالأشياء الخيالية ولا بالأفكار الرياضية المجردة ، إنما كان إيمانه يقف غالباً عند المحسوسات . ولذلك ذهب بعد الشعر ضرباً من ضروب المحاكاة ، ولكنها ليست المحاكاة التى تطابق الأصل تمام المطابقة ، وأيضاً فإن الطبيعة لا تحاكي شيئاً وراءها . وصوّر كيف أن محاكاة الشعر للطبيعة تبدل وتغير فيها ، واستعان فى بيان ذلك بتقسيمه للفنون عامة ، فكلها تحاكي الطبيعة كما قال أفلاطون إلا أنها تنقسم قسمين ، قسمًا يحاكيها باللون والشكل وهو التصوير والنحت وقسمًا يحاكيها بالصوت وهو الرقص والموسيقى والشعر . وهذا التقسيم نفسه نوع من المهارة فى الرد على أفلاطون ، فالشعر إذا قيس بالفنون

لا يقاس بالتصوير الذى قد تظهر فيه شُبْهة المحاكاة المطابقة للأصل ، إنما يقاس بالرقص والموسيقى . ونحن نعرف كيف يغير الراقص والموسيقيان في محاكتهما للطبيعة ، وعلى شاكلتهما يغير الشاعر في محاكاته . ومعنى ذلك أن الشعر ليس محاكاة متخلفة عن محاكاة أخرى أو محاكاة بالواسطة لفكرة المثل ، هو محاكاة ولكنها محاكاة للطبيعة ، تقف عندها ولا تتعدها إلى شيء وراءها . وهى ليست محاكاة آلية ، إذ فيها تظهر مواهب الشاعر وأفكاره وخيالاته كما نقول نحن الآن ، أو هى محاكاة تماثل محاكاة الرقص والموسيقى كما كان يقول أرسطو .

وتقدم أرسطو يتحدث عن المحاكاة في الشعر ووسيلتها وموضوعها وطريقتها فلاحظ أن وسيلتها اللغة وما تمثله من نبرات وأوزان وقال إن الناس تعودوا أن يربطوا بين الشعر والنظم ، ولكن ليس كل نظم شعراً ، فنظم أنباذوقليس في الفلسفة ليس شعراً ، لأنه يخلو من المحاكاة وهى صفة الشعر الأساسية وبدونها لا يكون شعراً ، أما الوزن فقد يشركه فيه سواه . وانتقل يتحدث عن موضوع المحاكاة فقال إنها أعمال الناس ، فالشاعر سواء في الشعر الملحمي أو التمثيلي يحاكي أعمال الناس في أسلوب قصصى ، أو بعبارة أخرى في حكاية ، وهى حكاية تصور الطبيعة البشرية وتعرضها في صورة خير مما هى أو شر مما هى أو مطابقة لها . والشعراء إما أن يصوروا الطبيعة الإنسانية خيراً مما هى أو شراً مما هى ، وبعبارة أخرى إما أن يصوروا الناس خيراً مما هم أو شراً مما هم ، وفي الحالة الأولى ينظمون الشعر القصصى ثم المأساة ، وفي الحالة الثانية ينظمون الشعر الهجائي ثم الملهاة . وقد عدلت المأساة الحديثة عن هذا المبدأ ولم تحفل به ، فليس بضرورى أن يكون بطل المأساة فوق مستوى الناس ، بل لعل من الواجب أن يكون صورة منهم ، ولكن أرسطو كان يشتق قواعده من المأساة اليونانية ، وربما دفعه إلى ذلك رأيه في محاكاة الشعراء وأنها ليست محاكاة طبق الأصل ، إذ يدخل فيها البناء الخيالى للشاعر الذى يبنى به عمله الفنى .

وخرج أرسطو من ذلك إلى الحديث عن طريقة المحاكاة ، فلاحظ أن أشعار الملاحم والمأساة فصيلتان لنوع واحد وتشتركان في موضوع واحد هو أعمال الناس ، ولكنهما تختلفان في طريقة محاكاته . فأشعار الملاحم تعتمد على وزن خاص تنقيد به ولا تحدّد بزمان معين ، ولذلك كانت الملحمة تطول طويلاً مسرفاً ، بخلاف

المأساة التي تختلف عنها فيما يصاحبها من أوزان وأنغام وارتباط بوحدة زمنية قصيرة . واتصلت بهذه الوحدة وحدة الحدث التي لحج بها في حديثه كما اتصلت بها وحدة المكان ، والإشارة إليها في حديث أرسطو غير واضحة ، فكل ما ذكره أن المأساة لا تمثل أعمالاً وأفعالا تحدث في أمكنة مختلفة . وكان يحكى بذلك صورة المأساة اليونانية ولم يكن يريد وضع قاعدة عامة للمأساة : ولو أنه عاش في العصر الحديث ورأى شكسبير وغيره من شعراء التمثيل الذين لا يرتبطون بوحدة الزمان والمكان لما أشار إليهما في بحثه . غير أن النقاد من بعده . وخاصة هوراس : تمسكوا بهذه الوحدات الثلاث ، وفهموا أنها أساس المأساة . واستمر ذلك في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر في فرنسا إلى أن خرج الأدباء من الدور الكلاسيكي إلى الدور الرومانسي ، فتداعت الوحداتان ، أما الأولى فساعد على تداعبها تقسيم المسرحية إلى فصول ، وأما الثانية فساعد على الإفلات منها إسدال الستارة على المناظر ، فقد أعطت الفترات التي بين الفصول المؤلفين الفرصة كي يغيروا في الزمن كما أعطاهم إسدال الستارة الفرصة كي يغيروا في المكان . أما وحدة الحدث فلا تزال قائمة ولا تزال أساسية في الأعمال والآثار الأدبية عامة ، وقد أشار إليها أرسطو غير مرة في أثناء حديثه عن شعر الملاحم ، فهي أساس عام في الشعر جميعه على اختلاف أنواعه .

ونرى أرسطو يعرف المأساة بأنها « محاكاة لحدث جدّي كامل ، ذات طول معين ، بلغة موقّعة ، تحدث متعة تختلف باختلاف أجزاء الحدث ، في أسلوب مسرحي لا قصصي ، مثيرة الرحمة والخوف ومؤدية إلى التطهير « Katharsis » منهما . وهو يبدأ تعريفه بذكر الموضوع ، وهو الحدث الذي يمثل ، ويقصد به حوادث المأساة المتعاقبة : ويطلب فيه أن يكون جدياً له خطره ، حتى يثير الرحمة والخوف ، كما يطلب فيه أن يكون كاملاً ، ويقصد بالكمال أن يكون مفسراً لحدث بجميع ما يقع له من ظروف . فالمأساة حدث كامل أو هي تفسير لحدث كامل جاد ، وهنا يظهر تفوقها على التاريخ الذي يذكر الحدث مفرقاً في غير نظام محاولاً أن يروي ما حدث : أما المأساة فتروي ما يُحتمل أن يحدث . فهي لا تحكى ما حدث وإنما تصوره في صورته المثالية ، ومن أجل ذلك كان الشعر أكثر حكمة وفلسفة من التاريخ . وينتقل أرسطو في تعريفه من الموضوع إلى

ما سماه وسيلة المحاكاة ، فالمأساة محاكاة في لغة موقعة ممتعة . ووصف اللغة بأنها ممتعة يجعلنا نلتفت إلى أن فكرة المتعة بالشعر قديمة . غير أن المتعة عند أرسطو مقيدة بفكرة التطهير . والجزء الثالث في التعريف يتصل بما سماه طريقة المحاكاة إذ المأساة لا بد لها من مسرح ، وهى لذلك تأخذ شكلاً تنفصل به عن الشعر القصصى أو شعر الملاحم . أما الجزء الرابع في التعريف فأراد به غاية المأساة وأنه يقصد بها إلى إثارة عاطفتين مختلفتين ، وليس ذلك فحسب فإنه يقصد بها إلى تنقية هاتين العاطفتين : عاطفتي الرحمة والخوف من أدرانها أو من ضعفها وتضعفهما . وكلمة التطهير « Katharsis » التى رمز بها إلى هذه التنقية يختلف النقاد فى أصل معناها فيظن بعضهم أنها كانت تعبر عند اليونان عن فكرة دينية تتصل بطقوس عبادتهم ، ويظن آخرون أنها كانت تعبر عندهم عن معنى طبي هو التطعيم ومعالجة الداء بالداء . وأيا كان معناها فقد أراد بها أرسطو تنقية هاتين العاطفتين من أخلاطهما المتضخمة ، فهى تعالجهما على نحو ما تعالج الأغاني المثيرة بعض المرضى ممن عندهم انفعالات هائجة أو متطرفة ، بتأثير ما تؤديه من انفعالات مماثلة . وعلى نفس الشاكلة المأساة . فهى تنقى عاطفتي الخوف والرحمة بتأثير مشاهدة المأساة التى تثيرهما . وبذلك نفهم ما علّقه على هذه التنقية من متعة وفائدة خاقية . ومن غير شك كان أرسطو يرد بهذه النظرية على أفلاطون وما زعمه من أن المأساة تجعلنا عاطفيين وضعفاء فأجابه بأنها تنقى عواطفنا وتطرد ضعفنا ، وإذن فهى لا تتعارض مع الأخلاق بل تطهرها وتركبها .

وخرج أرسطو من تعريف المأساة إلى بيان أجزائها : فقال إنها ستة : الحكاية والشخصية والفكر والمنظر المسرحى والعبارة والنغم الموسيقى وما يصحبه من إنشاد الجوقة . وتحدث عن الحكاية فتشدد فى وحدة الحدث وترابط الحوادث فى المأساة وتسلسلها بحيث يترتب بعضها على بعض ترتيباً يوضح الحدث ويجعله كلاً تاماً ، له فاتحة أو مبدأ . ووسط ، وخاتمة أو نهاية . وأكد الحديث عن هذه الوحدة وما يَطْوَى فيها من ترابط وتسلسل ، فقال إنها أهم شئ فى المأساة وإنها تقوم منها مقام الروح من الجسد . ويظهر أنه تأثر فى ذلك بمنطقه الحاد الذى كان يأخذ نفسه به فى البحث وبما ذهب إليه فى الخطبة من أنه ينبغي أن يكون لها مبدأ ووسط ونهاية .

والمبدأ لا يسبقه شيء يتلوه ، على النقيض من الخاتمة التي تستدعي شيئاً سابقاً لها ضرورة أو احتمالاً ولا تستدعي شيئاً يعقبها ، أما الوسط فيستدعي شيئاً سابقاً له وآخر لاحقاً . فالمأساة كالحطبة في تأليفها العام ، وفيها ينبغي أن يعمها من وحدة ، على أن وحدتها ينبغي أن تكون أتم ، وبعبارة أخرى ينبغي أن تكون وحدة عضوية ، بحيث تتولد جزئيات الحدث بعضها من بعض لا أن تتعاقب متوالية يتلو بعضها بعضاً . ويقتضى ذلك أن لا يدخل في أجزاء الحدث أى أشياء عارضة على غير قاعدة من الاحتمال أو الضرورة فإن ذلك يشلُّ الوحدة ، بل يهوى بها . وهى لا تتحقق لمجرد أنها تدور بأحداثها حول بطل واحد ، فإن حياة الشخص الواحد أو البطل الواحد تجمع أعمالاً لا يمكن نظمها في سلك وحدة لحدث شعري واحد ، ولذلك كان ينبغي في المأساة أن تختار جانباً من حياة البطل يكون عملاً مسرحياً كاملاً ، لا أن تقصّ كل حياته . وحتى الشعر الملحمي عند هوميروس لا يتعرض في الملحمة الطويلة لحياة البطل جميعها يقص أحداثها ، بل يختار جانباً محدوداً منها ، فالأوديسا مثلاً لا تقص جميع أحداث أوديسيوس ، بل تقص فقط مخاطراته في عودته من حرب طروادة . وهو نفسه ما نجده عند سوفوكليس في مأساته « أوديب ملكاً » فإنه وقف فيها عند فترة من حياته هي التي اعتلى فيها عرش طيبة وتزوج من يوكاستا ، واكتشف أنه ابن لايوس الملك السابق وقاتله وأن يوكاستا أمه مما جعله يفقأ عينيه وجعلها تنتحر مؤثرة الموت على الحياة .

ولا بد لتام الوحدة في المأساة أن يكون لها طول معين تقوى الذاكرة على وعيه بسهولة ، وفيه يجري الحدث المسرحي خلال سلسلة من الأعمال الممكنة أو الحتمية التي تنتقل بالبطل من السعادة إلى الشقاء أو من الشقاء إلى السعادة . وأيضاً لا بد لتام هذه الوحدة أن تنتهي المأساة بحل واحد لأبطالها ، وقد أشاد بالشاعر يوريبيد لأنه يختم مأساه بحل واحد لأبطاله يتحولون فيه من السعادة إلى الشقاء ، بينما أنكر على هوميروس تعدد الحل في الأوديسا ، إذ جعل السعادة من نصيب أوديسيوس والشقاء من نصيب منافسيه فإن ذلك من شأنه أن يوزع مشاعر الجمهور . ووقف عند مجرى الوحدة في العمل المسرحي وتسلسل أجزائه فلاحظ أن الحكاية إما أن تكون بسيطة أو مزدوجة ، والأولى هي التي لا يكون فيها تحول يجعل

السعيد شقيماً عن طريق اللؤم والحساسة كما لا يكون فيها تعرف على أشخاص مجهولين بعلامات خارجيه أو جسمية ، والثانية هي التي يزدوج فيها مجرى الحوادث فتنتهى بحلول متعارضة تبعاً لشخصها . وأشار إلى أن التحول والتعرف ينبغي أن يتولدا من تكوين العمل المسرحي بحيث يتولدان من الوقائع تولداً ضرورياً أو احتمالياً . وآثر للتحول النوع البسيط لأنه يدعو إلى الألم ويثير الخوف والرحمة ، وتحدث طويلاً في هذا الجانب وما يُطَوَّى فيه من فواجع ، مشيراً إلى ما قد يحدث من عقد في تسلسل المأساة ، غير أنه لا يطيل الحديث في العقد لأن المأساة اليونانية لم تكن تُعْنَى بها في جذب النظارة وتشويقهم ، أما العصر الحديث فيعنى بها عناية شديدة حتى يهيباً لها الحل فيما بعد وحتى تستثار الرغبة في تتبع المأساة . ومهما يكن فقد وقف عندها وإن يكن وقوفاً قصيراً ، ولاحظ أنها تسبق الحلّ وأنها تستمر حتى الجزء الأخير الذي يحدث فيه التحول من السعادة إلى الشقاء ، فيبدأ الحل ، وتنتهى به المأساة . ويتحدث عن الشخصية في المأساة ، فيلاحظ أن غاية المأساة ينبغي أن تكون خلقية في جوهرها وأن أبطالها ينبغي أن يكونوا على خلق نبيل . وهنا يتفق ونظريته المشهورة في الأوساط الخلقية وأن الخلق الفاضل يقع بين رذيلتين إذ أدّاه ذلك إلى القول بأن البطل ينبغي أن لا يكون خيراً خيراً محضاً ولا شريراً شراً محضاً ، حتى يكون تحولاً من السعادة إلى الشقاء طبيعياً ، وأيضاً لو كان شريراً محضاً أو صرفاً لما بعث مصيره على الرحمة ولا على الخوف . وهكذا الفضيلة في نظريته تقع بين رذيلتين ، وكذلك البطل في المأساة ينبغي أن يكون وسطاً بين نقيضين . وهي فكرة نظرية ، أما من حيث التطبيق فمن الممكن أن يكون بطل المأساة شريراً خالصاً أو خيراً خالصاً على نحو ما نجد ذلك كثيراً في المآسي الحديثة .

أما الجزء الثالث من أجزاء المأساة وهو الفكر فقد أراد به القدرة على قول ما يمكن أن يقال مما تقتضيه الأحداث والمواقف المختلفة بحيث يكون الكلام طبيعياً خالياً من التكلف . وعناصر الفكر ثلاثة هي البرهنة والتفنيد وإثارة الانفعالات . والفكر بذلك يشمل الحدث المسرحي كله وأجزائه التي ينبغي أن تكون ممكنة أو محتملة الوقوع حتى تكون محاكاتها صحيحة وحتى تم بها استثارة عاطفتي الرحمة والخوف وتنقيتهما

من كل ما يَعلَقُ بهما من أدْران . ومع أنه جعل المنظر المسرحي جزءاً من المأساة لم يُعْنَ به إلا عناية محدودة . وقد أشار إلى أن إيسخولوس حدّ من مهمة الحقوة وجعل الحوار هو الأساس في المأساة مع إضافته ممثلاً ثانياً ، أما سوفوكليس فأضاف ممثلاً ثالثاً . ومضى يذكر أن المأساة تؤثر بدون تمثيلها ، فيكفي للتأثر بها أن نقرأها . وليس حقّاً ما ذكره من أن قيمة المأساة في القراءة والتمثيل سواء ، فاللذة التي تحصل بقراءتها غير الأخرى التي تحصل بتمثيلها ، وأيضاً فإن الممثل الجيد يستطيع أن يعطيها لونا وطعماً جديدين ، وبدون ممثلين موهوبين تموت المأساة ، فقد خلقت أو وُجدت ، لتمثّل لا لتقرأ . ومهما يكن فإن أرسطو لم يلتفت في بحثه عن الشعر إلى العلاقة الشديدة بين المسرح والمأساة . وقد أشار إلى أن الحقوة تكملها ، وإن أصبحت تأتي على الهامش منذ إيسخولوس ، ومعروف أنها خرجت منها في العصر الحديث ، ويظهر أنهم كانوا يدخلونها في المأساة قتلاً للوقت وإبقاء على التراث القديم في نشأتها حين تحولت من الأغاني في أعياد الآلهة إلى التمثيل .

وتحدث أرسطو عن العبارة في المأساة وكيف أنها تُعنى بفنون البلاغة ، وعرض لأقسامها ومكوناتها من الألفاظ والحروف والمقاطع وأدوات الربط ، وأفاض في بيان صفات الكلمات من ابتذال وغرابة ومجاز وبديع وطول وقصر . ولاحظ أن لغة الشعر تفرق عن لغة الحياة اليومية لأنها تتصل بالماضي وتعبّر عن أحوال خارجة عن المألوف لا يؤديها الكلام العادي ، وقال إن لغة الشعر ينبغي أن تكون واضحة ، إلا أن هذا الوضوح ينبغي أن لا يتحول بها إلى ضرب من الابتذال ، ولعل ذلك ما جعل الغريب والمجازات والعبارات الطويلة تكثر فيها حتى تحول بينها وبين الابتذال وحتى تفصلها عن الحديث المألوف ، ولهذا كان يكثر فيها الكلمات الطويلة والموجزة والحوشية والمحرفة في صور مختلفة . وكل هذا يؤكد به أرسطو الفرق بين أسلوب الشعر من جهة وأسلوب النثر من جهة ثانية ، فالنثر يعتمد على الوضوح التام ، ومن ثمّ تكثر فيه الكلمات المألوفة مما يصله بلغة التخاطب اليومي .

ويتمّ حديث أرسطو عن المأساة ، فيتحدث حديثاً قصيراً عن شعر الملاحم أو الشعر القصصي ، ويقول إنه يشبه المأساة من حيث إنه محاكاة عن طريق القصص ، غير أن الشاعر يرويّه ولا يقدمه عن طريق المسرح ، وأيضاً فإنه يشبه المأساة من حيث اعتماده

على حدث قصصى واحد ، تطرد فيه وحدة تامة . فشعر الملاحم كالمأساة ينبغي أن يكون حدثاً قصصياً كاملاً غير مجزأ ، حتى يستوى كالكائن العضوى كلاً تاماً ، وانظر إلى هوميروس فإنه لم يحاول فى الإلياذة أن يحيط بحرب طروادة كلها ، ولو فعل ذلك لفضل الطريق إلى تنسيق موضوعه ، إذ يكون واسع النطاق ، ولا يمكن حصره لما يزخر به من شعب وحوادث متنوعة ، ومن أجل ذلك اكتفى بجزء واحد من الحرب وهو حادث وقع لأخيل بطل اليونان فى سنتها العاشرة إذ غضب لاغتصاب أجاممنون إحدى الأسيرات ، فصور فى الإلياذة هذا الغضب وما اتصل به من حوادث وظروف . وبذلك وضع اليونان وعلى رأسهم هوميروس أساس وحدة العمل الأدبى ، وجاء أرسطو فصورها وأحكم تصويرها ، إذ جعلها وحدة عضوية دقيقة تتولد فى أثنائها أجزاء الحدث الشعرى وشدت فيها تشديدا . ونراه يدع هذا التشابه فى وحدة الحدث القصصى بين شعر الملاحم والمأساة إلى الحديث عن الخلاف بينهما ، فيلاحظ أن الملمحة لا يتحكم فيها طول خاص ولا زمن خاص وأن لها وزنها الذى يختلف عن أوزان المأساة ، وأيضاً فإنه لا يقترن بها تمثيل ولا حركات ولا إشارات مما يقترن بالمأساة . وتساءل أى الفنين أكثر جمالا وقيمة من الوجهة الفنية ، وحكم للمأساة بالتفوق على شعر الملاحم لما يصحبها من تمثيل يضيق عليها حيوية ، ولما يصحبها من تركيز إذ لا تطول طول الشعر الملمحى وأيضاً فإن وحدة الزمن والحدث فيها أكمل وأتم ، ولذلك كانت تثير عاطفتى الخوف والرحمة بأوسع مما تثيرهما الملمحة .

وهنا يختم أرسطو حديثه عن الشعر ، ويظهر أن الكتاب فقد قسم منه ، إذ إن حديثه فى أوله يدل على أنه سيتحدث فى تفصيل عن الهجاء وما تطور إليه من الملهاة ، ولكن الرسالة تنتهى بدون الحديث عن هذا القسم ، وأكبر الظن أنه ضاع ، وإن كنا نظن ظناً أنه لم يخرج فى حديثه عن الملهاة عن الأصول التى وضعها للمأساة وأنه ذهب فيها إلى أنها تظهر عاطفة الضحك أو السرور كما تظهر المأساة عاطفتى الرحمة والخوف .

وعلى شاكلة محاولة أرسطو لتقنين المأساة والشعر حاول أن يُقننَ للخطابة فى مؤلفه : « ريتوريقا » وقد درسها دراسة منطقية نفسية ، ووزع الحديث فيها على ثلاثة كتب كبيرة . أما الكتاب الأول فشغله بالحديث عن

تعريف الخطابة وأنواعها ، وشغل الثاني بالحديث عن عواطف السامعين وانفعالاتهم ، أما الثالث فشغله بالعبارة وخصائصها وتأليف الخطبة وترتيب أجزائها . ونراه في الكتاب الأول يقسم الخطابة بالنسبة إلى السامع ثلاثة أقسام ، فهي إما سياسية أو حفلية أو قضائية ، ويفيضم في الخطابة السياسية والغرض منها وهو المنفعة ، ويعرف المنفعة ويقسمها إلى مادية ومعنوية ، ويفرق بين منفعة لا غاية لها ومنفعة ذات غاية خاصة ، ويرى أن الخطيب السياسي ينبغي أن يعرف نظم الحكم والحكومات وتقاليدها حتى يستطيع الحديث في الموضوعات السياسية . ويتكلم عن خطابة المحافل والأعياد التي تتملق مشاعر الجماهير ، ويقول إنه ينبغي للخطيب فيها معرفة الفضيلة والرذيلة حتى يمدح الأولى ويذم الثانية ، ويفصل الحديث في الفضائل . ويتحدث عن الخطابة القضائية التي تتجه إلى إظهار الحق ، فيتكلم عن الظلم وصوره واللذة التي يطلبها كل إنسان ، ويبحث في الاتهام ودواعيه وأسبابه ، ويعرف الجريمة ، ويتحدث عن الجرائم ومخالفتها للقوانين ، ويلاحظ أن هناك نوعين من القانون : قانونا يُكتب وهو العدالة التي يضعها المشرعون ، وقانونا غير مكتوب وهو يُصلح ما في القانون المكتوب من خطأ . ويفيضم في الحديث عن الجرائم وأنها قد تكون عمداً وقد تكون خطأ ، كما يفيضم في أعمال الإنسان واتصالها بسروره ومنفعته ، ويعرض لوسائل الإقناع وصور الاستدلال والبراهين ، وهو قسم منقول عن كتابه في المنطق .

ويستقل إلى الكتاب الثاني فيتحدث عن صفات المستمعين وأحوالهم الوجدانية ويفصل الحديث في الانفعالات والعواطف المتباينة وطبائع الناس في أعمارهم المتفاوتة وبالنسبة لحظوظهم المختلفة . وهو قسم يمكن أن يُعدّ مقدمة لعلم النفس الحديث ، دفعته إليه حاجة الخطيب - في رأيه - إلى معرفة الوجدانات المختلفة للسامعين حتى يستطيع التأثير فيهم . ونراه يتحدث عقب ذلك عن طرق الإقناع ويُسهب في الحديث عن الأقيسة المنطقية .

ويخرج أرسطو إلى الكتاب الثالث ، فيتحدث عن العبارة ، ويستهل بأنه ليس كافياً للخطيب أن يعرف ما يقول بل يجب أن يعرف كيف يقوله بطريقة جيدة . ويشير إلى أن الأسلوب ضروري لإثارة العواطف وأن العناية به ضرورية في الشعر والنثر جميعاً . ويذكر أن النثر تأثر بالشعر على نحو ما نجد في خطابة

جورجياس ، ولكن ينبغي أن تفرق لغة النثر عن لغة الشعر وبخاصة في استخدام الألفاظ الغريبة ، كما ينبغي أن يتوفر لها دائماً الدقة والوضوح والجمال . ونراه يقف عند غرابة الألفاظ فيقول إن الشعراء يأتون بهذه الألفاظ لتؤثر في السامعين بغرابتها ، ولذلك كانت تكثر عندهم . ويفيض في الحديث عن الحقيقة والحجاز والتشبيه ، ثم ينتقل إلى ترتيب الجملة ، ويتحدث عن جرس الكلام ، ويقول إن لغة الخطابة تخضع لنوع من الموسيقى كالشعر فهي لا تخلو من إيقاع . ويلاحظ أن أسلوب النثر إما مرسل كما نرى عند هيرودوت في كتابة التاريخ وإما مقيد بموسيقى وإيقاعات مختلفة ، ويعرض لما سماه « وضع الشيء تحت العين » ويدخل فيه عنده ما تسميه بلاغتنا باسم « الاستعارة المكنية » وبذلك أبعد هذا النوع من العبارة عن المجاز . ويتحدث عن المبالغة وأهميتها في تصوير الفكرة . وينتقل إلى الكلام عن مطابقة الأسلوب للموضوع ويلاحظ أن أسلوب النثر المكتوب غير أسلوب الخطابة ، وأن أساليب الخطابة تختلف باختلاف أنواعها من سياسية وحفلية وقضائية ، وهي جميعاً تأخذ بصفة من الأساليب المسرحية التي تؤثر في عواطف السامعين ، وأهم أسلوب خطابي يحتاج إلى صقل هو أسلوب الخطابة الحفلية ، يليه أسلوب الخطابة القضائية ثم أسلوب الخطابة السياسية . ويخرج من ذلك إلى الحديث عن تأليف الخطبة فيلاحظ أنها تتألف من ثلاثة أجزاء : مبدأ ووسط ونهاية ، ويقابل المبدأ وهو المقدمة الفاتحة في الشعر والموسيقى ووظيفته الإشارة إلى غرض الخطبة ، وقد يُحذفُ هذا الجزء من الخطابة السياسية ، لأن الموضوع عادة يكون مألوفاً للنظارة . ويلى هذا الجزء العرض وهو يتضمن الوقائع والإثبات ويلاحظ أن الاحتجاج بالسوالف المماثلة من أكثر البراهين إقناعاً في الخطابة السياسية ، كما أن الإثبات بالأقيسة المنطقية أنسب للخطابة القضائية ولا بأس من الاعتماد على الحكم ذات المغزى الأدبي . وينصح في الخطابة السياسية أن لا يتكلم الخطيب عن نفسه إنما يتكلم بلسان المصلحة العامة . ويتحدث عن الإشارات والحركات والأصوات ويقول إن الخطيب ينبغي أن يلائم بين صوته والموضوع الذي يتحدث فيه ، شأنه في ذلك شأن الممثلين في المسرحيات وتمثلهم للشخصيات التي يمثلونها . وأخيراً يتحدث عن الخاتمة ، وأنها ينبغي أن تستميل عواطف السامعين بما يسوقه الخطيب من

تلخيص لخطبته، كأن يقول: « لقد أدبت . وقد سمعتموني . والحقائق ناطقة أمامكم » .
وقد أثر هذا الكتاب فيمن جاءوا بعد أرسطو من يونان ورومان وعرب ، وخاصة
قسمه الثالث الخاص بالعبارة ، وامتدَّ هذا التأثير إلى العصر الحديث ، وإن كان
يلاحظ أن أهمية هذا الكتاب ضعفت بالتدريج في هذا العصر لاتجاه الناس إلى
الناحية العملية في الخطابة وعدم اهتمامهم بتعلم قواعدها ، أما كتاب الشعر فلا
تزال له أهميته ولا يزال كثير من أحكامه يدور على ألسنة النقاد المعاصرين .

وقد سيطرت قواعد أرسطو وقوانينه في الشعر والخطابة جميعاً على الرومان من
بعده ، ومعروف أنهم لم يكونوا يتصورون الأدب إلا كما رأوه في النماذج اليونانية ،
وهم كذلك لم يكونوا يتصورون النقد إلا كما رأوه عند أرسطو ، فهم تلامذة اليونان،
وإذا كانوا قد قهروهم حربياً فإن اليونان قهروهم عقلياً وفنياً ، ولذلك كان يقال منذ
أوغسطوس إن روما فتحت أثينا سياسياً بينما فتحتها أثينا ثقافياً . وقد كتبوا أقدم
مؤلفاتهم باليونانية ، إذ كان الجمهور الأعظم من الإمبراطورية الرومانية يتخذها
لسانه حتى روما نفسها . على أن الأقاليم التي سارعت إلى الانعزال عن الإمبراطورية
أو عن روما والتي استخدمت اللاتينية مثل إسبانيا كانت متأخرة في الحضارة
الرومانية وهي تقابل اليوم أمريكا الجنوبية في العالم الأمريكي .

وعلى هذا النحو كانت الصبغة اليونانية تغلب على كل شيء في روما ،
بحيث يمكن أن يقال دائماً إن الإمبراطورية الرومانية كانت يونانية ولم تكن إيطالية،
أو كانت فصلاً في تاريخ اليونان . واستمر الأمر على ذلك إلى انتهاء القرن السادس
الميلادي، ثم فقدت المدنية الرومانية صفتها اليونانية في اللغة والأدب وشئون الحياة
المختلفة فقدانا امتد حوالى تسعة قرون أى إلى عصر النهضة . ولعل في هذا ما يوضح
لنا كيف نما النقد الروماني نمواً يونانياً، فقد ظلوا يعيشون في حدود ما كتبه أرسطو
وأسلافه من اليونان لا يضيفون إليه شيئاً مذكوراً ، وحقاً إنهم تركوا كتباً عديدة
في الخطابة والأدب ، ولكنهم لم يضعوا نظرية جديدة في النقد يمكن أن نسميها
النظرية الرومانية . بل دائماً نجدهم يدعون إلى التمسك بنماذج اليونان في تقديم وأدبهم
جميعاً، نجد ذلك عند «شيشرون» خطيبهم المشهور وعند «كوينتيليان» وغيره ممن بحثوا
في الخطابة . ومن المحقق أنها ازدهرت عندهم ولكنهم لم يضيفوا شيئاً ذا بال إلى ما

سبقهم إليه اليونان ، وما سبقهم إليه أرسطو خاصة . وقد ألف هوراس في القرن الأخير ق. م. منظومة في فن الشعر كان لها تأثير واسع في القرون التي تلتها ، وبخاصة في العصور الوسطى : لأن هذه العصور لم تستطع الاتصال بأرسطو مباشرة ولا بغيره من اليونان الأقدمين . إنما اتصلت بهم عن طريق هذه المنظومة التي لخصت فيها آراؤهم وآراء فيلسوفهم أرسطو . وأهم شيء يلتفت النظر عند هوراس أنه كان يدعو للتمسك بالنماذج اليونانية دائماً . وهو الذي أشاع تلك النظرية التي طالما تناقش فيها النقاد وهي أن غرض الشعر أن يثقف ويمتع ، وقد استمدتها من أرسطو وما ذهب إليه من فكرة التطهير وما يعقبه من راحة . واشترط في المسرحية أن لا تزيد عن خمسة فصول وأن لا يشترك في حوارها على المسرح أكثر من ثلاثة ممثلين في وقت واحد ، وأن تخدم الحقبة المصاحبة لها بأناشيدها غرضها : وأن لا تجرى الحوادث المثيرة كالقتل مثلاً على المسرح ، بل يكتفى بقصتها عليه . وتلك الشروط كلها إنما التقطها التقاطاً من كتاب الشعر لأرسطو ، وأضاف إليها فكرة الوحي والإلهام . وقد فهم من كلامه بسبب ما في أسلوبه الشعري من ضيق أنه يتمسك تمسكاً شديداً بقانون الوحدات الثلاث : وحدة الزمان والمكان والموضوع ، وتبعه الكلاسيكيون في إيطاليا وفرنسا يلتزمون هذه القواعد جميعها إلى أن ظهرت الحركة الرومانسية . والغريب أنه لم يودع ذلك كتاباً إنما أودعه قصيدة ، ولذلك خرجت أفكاره كالحكم في جمل قصيرة موجزة ، ولم تنتظم في فقر وفصول على نحو ما انتظمت في كتاب الشعر لأرسطو .

وربما كان أهم أثر خلفه العصر الروماني اليوناني في النقد هو كتاب « السمو » للونجينيوس الذي عاش — على ما يبدو — في القرن الثالث للميلاد وناقش الخطابة مناقشة واسعة ، ناثراً الكثير من الآراء والمقارنات المختلفة بين الأدب اليوناني والروماني ، وأفاده ذلك من بعض الوجوه : لأن أرسطو لم ير إلا النماذج اليونانية ، على أن الفرق بين الأدبين لم يكن واسعاً ، فإن النماذج الرومانية صيغت على مثال النماذج اليونانية ، ولكنه أدلى على كل حال بكثير من الآراء القيمة ، وقد ذهب إلى أن اللغة والفكر يُطَوَّى كل منهما في صاحبه : وقال إن الأدب يؤثر في نفس قارئه وسامعه ، وإنه يُنقل خلال وسيط هو الخيال . وكان من رأيه

أن واجب الأديب أن يدرس ، فإن الطبيعة لا تكفى وحدها لتكوينه .

وإذا تركنا الرومان إلى العرب وجدنا النقد عندهم في العصرين الجاهلي والاموي ساذجاً فطرياً يعتمد على الإحساس والذوق البسيط ، ثم يأخذ مع أوائل العصر العباسي في الرقي والتعقد بتعقيد حياتهم الاجتماعية والثقافية والفلسفية ، إذ أخذوا يناقشون مسائل البيان والبلاغة ويعرضون لجمال الأسلوب وجودته ورداءته . وتعاونت بيئات مختلفة على النهوض بالنقد ، أما اللغويون فحاولوا أن يضعوا الشعراء في طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنية ، وبحث الشعراء في أداة تعبيرهم وصور التأنيق فيها ، مما انتهى عند ابن المعتز إلى كتابه « البديع » الذي درس فيه محسنات الكلام ، وكان عمل المتكلمين أوسع دائرة على نحو ما يصور الجاحظ ذلك في كتابه « البيان والتبيين » فقد ناقشوا نظرية البيان والبراعة في الخطابة وسقطت إليهم نظرية أفلاطون التي تذهب إلى أن البلاغة إنما تدور حول مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ففسحوا لها في أحاديثهم ، وأفاضوا في فصاحة الألفاظ والملاءمة بينها وبين معانيها ، وتعرضوا للملكات الشعراء وقارنوا بين الشعر القديم والحديث . ولا نلبث أن نرى بيئة الفلسفة تحاول أن تشرع على هدى كتابات أرسطو مقاييس الجودة والرداءة في الشعر والنثر جميعاً ، فيؤلف قدامة كتابه « نقد الشعر » ويؤلف هو أو غيره كتاباً في « نقد النثر » وأثر أرسطو ونظرياته وقواعده واضح بيّن في الكتابين ، ومن الحق أن العرب فهموا فهماً دقيقاً كل ما كتبه في الجزء الثالث أو الكتاب الثالث من مصنفه في الخطابة ، وهو القسم الخاص بالعبارة وصفاتها الأدبية ، وقد نمّوه نمواً واسعاً . أما كتاب الشعر فلم يحيطوا بمعانيه إحاطة دقيقة لسبب بسيط وهو أنه دار على المأساة ولم يكن لديهم تمثيل ، ومع ذلك فقد سقطت منه آراء مختلفة إلى قدامة ومن جاء بعده من نقادهم . وقد انبثقت عندهم مقارنات كثيرة بين القدماء والمجددين ، ولم يلبثوا أن اتخذوا من البحري رمزاً للقديم ومن أبي تمام رمزاً للجديد ، وألفوا في الموازنة بين فنّي الشاعرين على نحو ما هو معروف عن « كتاب الموازنة » للآمدي . وكان ظهور المتنبي بأسلوبه الخاص به سبباً في أن يقارنوا بينه وبين أسلافه من العباسيين ، فكُتبت فيه وفي فنه رسائل كثيرة أهمها « الوساطة بين المتنبي وخصومه » . وفي أثناء ذلك تنمو دراسات إعجاز القرآن وبيان ما في أسلوبه من جمال وروعة لا تتناول

إليهما الأعناق ، وينفذ عبد القاهر من خلال هذه الدراسات إلى وضع نظريته المشهورتين في علمي المعاني والبيان . ثم تجمد الحياة العقلية والفنية عند العرب ويجمد معها النقد ، ويتحول إلى تلك المتون والشروح الكثيرة التي لا تضيف للنقد ولا للبلاغة أى شيء ذا قيمة حقيقية .

ولعل من الواجب أن نشير إلى أن النقد العربي كان في جملته نقداً عملياً يتصل بالجزئيات ولا ينفك عنها إلا قليلاً ، فقد كان محوره غالباً البيت والعبارة ، ولم ينظروا في الأدب أو الشعر نظرة عامة ، فقد شغلهم النظرة الجزئية بحيث يمكن أن نقول إن نشاطهم النقدي كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص . ولا ننكر أنهم تركوا كثيراً من الأحكام العامة ، إلا أنها تجرى على ألسنتهم في جمل مركزة ، وقلما حللوها . وقد نجدهم يشيرون إلى التأثير بالبيئة والعصر والثقافة ، أو يقارنون بين الشعراء أو بين شاعرين بعينهما ، ولكن هذا كله لا يتحول إلى نظريات نقدية ، وبالمثل ما نثروه من أقوال عن التأثيرات النفسية بالكلام ، فكل ما يقولونه في هذا الصدد لا يحلونه . إنما هي ومضات خاطفة . ومن الصعب أن نجعل لهم فلسفة جمالية أو أن نجعل لهم نظريات نقدية بالمعنى الدقيق لهاتين الكلمتين ، وهذا طبعاً باستثناء عبد القاهر في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، على أن صنيعة في هذين الكتابين لا ينفصل كما هو معروف عن البلاغة . ومع ذلك فقد تركوا ملاحظات لا تكاد تحصى عن خصائص الكلمات والعبارات الأدبية ، بل لقد تركوا في ذلك ركناً هائلاً ، يفيد فائدة جلياً في تدريب الذوق على الأسلوب الفني ، ولكنه ينتظم في أبحاث البلاغة ، وقلما انتظم منه شيء في أصول النقد أو في الأدب ومكانته في الحياة وكيف نحكم على نماذجه أحكاماً عامة بالجودة والرداءة ، وكيف نقارن بعضها ببعض وكيف نقومها ونعرف قيمها النفسية والاجتماعية والأخرى الفلسفية الأدبية . فكل ذلك لم يكن يدور بخلدكم ، إنما الذي كان يدور الملاحظات الجزئية الكثيرة على الألفاظ والعبارات والأبيات المفردة . وقد أكثروا من كتب التراجم الخاصة بالشعراء ، مثل كتاب الأغاني للأصبهاني ، ولكنهم لم يخرجوها في صورة نقدية واضحة المعالم ، وإنما هي نوادر وأخبار وأشعار لا تترجم بالمعنى الحديث للترجمة ، ترجمة بينة القسمات والملامح .

وإذا انتقلنا إلى أوروبا بعد عصورها الوسطى المظلمة لاحظنا أن النقد الأدبي يمر فيها بعصور ثلاثة : عصر النهضة وما يليه إلى نهاية القرن الثامن عشر ، ثم القرن التاسع عشر ، ثم قرننا الذي نعيش فيه . وامتاز عصر النهضة باستكشاف الأوربيين للآداب اليونانية والرومانية ، وسرعان ما تحولوا إليها يحللونها ويدرسونها ويذيعونها بين الناس ليقروها ويتمتعوا بها . وتصادف أن عُرفت المطبعة فأفاد إحياء الآداب القديمة ونشرها منها أجل فائدة ، فقد كانت هذه الآداب لا تُعرفُ إلا في بيئات محدودة ، هي البيئات التي تستطيع أن تنفق الجهد والمال لتحصل على مخطوطاتها ، فلما ظهرت المطبعة واتخذت أداةً لنشر الكتب أصبح الناس يقرءون الآثار اليونانية والرومانية في أصولها الأولى . وأسفر ذلك عن صدام عنيف بين معاني هذه الآثار الوثنية وبين المسيحية وتراثها الأدبي الوسيط ، ونشأ عن هذا الصدام ثورة واسعة في الأفكار تناولت فروعاً مختلفة من الحياة ، كان من آثارها ظهور حركات البروتستانت . وفي هذه الأثناء كُشفت أمريكا وحاولت أوروبا استغلالها ، فتعاون هذا الكشف لأقاليم جديدة مع كشف الآثار اليونانية والرومانية على إحداث تطور خطير في الحياة الأوربية المادية والمعنوية فقد انبعثت فيها حياة عقلية خصبة . وسرعان ما تكاملت الرغبات لاتخاذ اللغات الشعبية بدلا من اللغة اللاتينية أداة للتعبير العلمي والأدبي . ومع أن القوم تحولوا هذا التحول فإنهم ظلوا يلتمسون مثلهم العليا عن الشعر في حياة اليونان والرومان القدماء ، فهم غيروا اللغة ، ولكنهم لم يغيروا مثلهم الأعلى ، فظلت أصولهم وقواعدهم في النقد هي نفس أصول أسلافهم المغرقين في القدم من اليونانيين والرومانيين . وقد استطاعوا أن يتحولوا من صورة التمثيل البسيط الذي كان يمثل في ظل الكنائس إلى صورته الفنية القديمة ، وقدسوا هذه الصورة بكل ما فهموه من تقاليد ها عند أرسطو وهوراس . وأظهر الأدباء في إيطاليا وفرنسا تقيداً شديداً بها طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكذلك كان الشأن في إنجلترا إذا استثنينا عصر شكسبير فإنه لم يتقيد بقانون الوحدات الثلاث في مسرحياته ، وكذلك لم يتقيد بعدد الممثلين الثلاثة الذي ينبغي أن لا يزيد في أثناء تمثيل المسرحية ، وأيضاً فإنه لم يتقيد برواية الأحداث الدامية على لسان الممثلين ، بل عرضها على جمهور النظارة ، غير أن من جاءوا بعده في إنجلترا خضعوا للأوضاع الكلاسيكية وأصولها الدرامية .

وقد وقفت هذه الأصول كالعمد الراسخة في فرنسا في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر وبدا للناس أن من المستحيل أن تُنقَض أو أن تهدم . على أن عوامل جديدة أخذت تظهر فإن حياة الأوربيين في تلك الحقب لم تكن تماثل حياة اليونان والرومان ، إذ كان الصراع ناشباً بين الملوك والأشراف ، وبينما عاش اليونان والرومان في نظم جمهورية كان الأوربيون يعيشون في نظم ملكية ، وكانت حياتهم الدينية المسيحية تخالف حياة أسلافهم الوثنية ، فيما أن يغيروا حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية إلى ما كان عليه آباؤهم الأقدمون وإما أن يلائموا بين حياتهم الأدبية والعقلية وحياتهم الحاضرة . وليس من السهل أن يغير الناس حياتهم وأن يعودوا إلى المعيشة في الماضي البعيد ، فلم يكن بد من أن يثور العقل الأوربي على المثل اليونانية واللاتينية ، وظهر ذلك أولاً في الفلسفة بفضل بيكون وديكارت وبفضل الحركة العلمية ، فقد أخذ الفلاسفة يلاحظون أن كثيراً من آراء أرسطو غير صحيحة إذ تخالف الحقائق الواقعة التي يلمسونها والتي يُجربونها في تجاربهم العلمية . وكان ذلك سبباً في أن تنشأ عند الأوربيين فكرة نقد التراث القديم وما نثره فلاسفة اليونان والرومان من أحكام ، وكان لذلك صدى في النقد الأدبي وفي النماذج الأدبية ، إذ أخذ الأدباء يفكرون في عصورهم وفي أذواق الناس من حولهم ، وإن كنا لا نجد هنا ثورة عارمة كثورة الفلاسفة ، فقد ظلت كفة التمسك بالأصول الموروثة هي الراجحة ، ويدل على ذلك أكبر الدلالة أن الشاعر الفرنسي « كورني » ألف مسرحية السيد (Le Cid) غير متقيد فيها بفكرة الوحدات الثلاث التي كان يتقيد بها غيره من الشعراء أمثال « راسين » معتقدين أنها إحدى قواعد أرسطو ، فثارت ثائرة النقاد عليه ، ولم ينفعه المجمع اللغوي الفرنسي حين احتكم إليه ، بل أيد ثورة النقاد .

ونمضي إلى القرن الثامن عشر فنجد مترعين واضحين في النقد ، مترعاً محافظاً يمثله الأدباء والنقاد الذين كانوا يحكفون على قراءة الآداب القديمة ويتقيدون بما وضعه أرسطو للشعر من سنن وقواعد ، ومترعاً مجدداً يمثله المثقفون الذين يرون أن يعيشوا في عصرهم ويرجعوا إلى ذوقهم في أحكامهم الأدبية ، ولا يرون من الضروري التقيد بما وضعته العبقريّة القديمة في الفن ، فلكل عصر عبقريته وآدابه التي تلائمه .

ومثّل هذا المترع المجدد في إنجلترا «توماس جراي» (١٧١٦ - ١٧٧١) الذي عني بالبحث في آداب عصره واتجه بشعره نحو الطبيعة ، فكان مبشراً بميلاد صبح جديد هو صبح الرومانسية . أما في فرنسا فمثله خير تمثيل «ديدرو» (١٧١٣ - ١٧٨٤) الذي دعا في صراحة إلى أن يعتمد الأدباء على قرائحهم قبل أن يعتمدوا على سنن القدماء وتقاليدهم ، وذهب يشيد في حماسة وانفعال وتأثر ، سواء في موسوعته المشهورة أو في كتاباته المختلفة ، بمن يخرجون على الأوضاع الموروثة أمثال «رتشاردسن» و«ليلو» وغيرهما . ولا بد أن نذكر في هذا الصدد «مونتسكيو» (١٦٨٩ - ١٧٥٥) وكتابه روح القوانين ، الذي بحث فيه بحثاً مقارناً في الحكومات والأخلاق والعادات عند القدماء والمحدثين جميعاً ، فلفت بذلك نظر المؤرخين والنقاد إلى الدراسات المقارنة . أما ألمانيا فازدهرت فيها حركة نقدية واسعة ، اتجهت في بعض أطرافها نحو التجريد ووضع مقاييس الفلسفة الجمالية ، وإلى «بوجارتن» يرجع الفضل في وضع الاصطلاح المعروف بالإستطيقا (Aesthetica) علماً على هذا الضرب الفلسفي الجديد في الدراسة الأدبية . وتقدم «فونكلمان» فكتب تاريخ الفن القديم ، واضعاً أساساً جديدة في كتابة هذا التاريخ تلخص في دراسة أصوله في السياسة والاجتماع والأدب . و«ليسنج» (١٧٢٩ - ١٧٨١) هو أكبر نقاد الألمان في القرن الثامن عشر غير منازع ، فقد أخرج مع بعض أصدقائه صحيفة أدبية حمل فيها حملة شعواء على التقيد بالأوضاع والأصول الكلاسيكية . وأهم كتبه «لا وكون» وفيه يقارن بين فن الشعر وفن النحت والتصوير وكيف أن هذه الفنون تختلف في التعبير وأداته ، وقد نثر فيه آراءه النقدية الحرة الجديدة . ولا يقلُّ عن هذا الكتاب أهمية كتابه «الفن المسرحي في هامبورج» وهو فيه ينقد هذا الفن نقداً عملياً في ممثليه وما يمثلون من مسرحيات هزيلة ، مهاجماً للأصول التي يقوم عليها ومحاولاً أن يضع له أصولاً جديدة ، وقد شن هجوماً واسعاً على «فولتير» الذي كان يتمسك تمسكاً شديداً بالتقاليد اليونانية والرومانية في مآسيه . وبذلك حاول أن يحطم المأساة الكلاسيكية الفرنسية وأن يرد الأدباء إلى حياتهم المعاصرة ليستقوا منها مادة مآسيهم على نحو ما صنع هو في مآساته «مس سارا سامسون» ونخلقه «هردر» فوسع في الدراسات المقارنة إذ وضع الفن الشعبي والقوطي في مقابل الفن الكلاسيكي الذي وقف عنده ليسنج طويلاً في

دراساته ، وذهب يؤكد أن الشعر ثمرة غرائز مشتركة بين الأجناس جميعاً وأن أروعه ما كان بدائياً ينبع من صميم الحياة ، لا من صميم تقاليد موضوعة ، ويقصد الحياة البسيطة بكل ما فيها من بساطة وسذاجة وكمال .

وعلى هذا النحو أخذت موجة واسعة من النقد للقواعد الكلاسيكية تنمو في القرن الثامن عشر ، وكان ينمو معها شك واسع في كل ما أثّر عن القدماء ، مما أكسبهم حرية عقلية خصبة ، لم يلبثوا أن أحسوا معها بحاجتهم إلى الحرية السياسية ، حتى يتخلصوا من اضطهاد حكوماتهم الظالمة المستبدة . وسرعان ما انفجرت الثورة الفرنسية في آخر هذا القرن ، فبدت للعيان قوة الفرد وشخصيته ، إذ فرض نفسه على النظام السياسى وعلى كل نظام عقلى وأدبى . وتطور الأدب بتأثير ذلك إلى متزع جديد هو منزع الرومانسية والرومانسين الذين ثاروا على الأصول المسرحية الكلاسيكية وما كانت تتقيد به من قانون الوحدات الثلاث متخذين من شكسبير نبراساً لهم . وقد أخلوا ينحرفون إلى مجرى جديد يخالف مجرى الكلاسيكيين من جميع الوجوه ، فهم يعنون بالطبيعة وحياة أممهم الشعبية ، وهم لا يسرفون في العناية باللفظ ، ولا ينصرون العقل ، وإنما ينصرون العاطفة والخيال .

وحدث حينئذ تطور واسع في النقد . فقد خفتت الأصوات التي كانت تنادى بالرجوع إلى القواعد اليونانية والرومانية ، ولم يعد هناك من يحكم هذه القواعد في أعمال الأدباء وآثارهم ، بل لقد ثاروا ثورة عارمة ، ومن خير ما يصور هذه الثورة مقدمة «وردزورث» لديوانه «الحكايات الوجدانية المنظومة» وفيه نراه ينكر أن للشعر لغة خاصة به ، ويقول إن أجمله ما صيغ في لغة بسيطة مألوفة كالتى يتفاهم بها عامة الناس في الريف . وأنكر أيضاً ما يقال من أهمية الوزن فيه مؤكداً أن جوهره التعبير عن تجربة روحية عاطفية انبعثت من نفس الشاعر . ويكتب صديقه «كولردج» رسالته «سيرة أدبية» متخذاً من هذه المقدمة موضوعات رسالته ، ونراه يدعو إلى أن مهمة الشاعر أن يجعل الغريب غير المألوف معقولاً مألوفاً . وأفاض في وظيفة الشعر وأنه يستثير الروح الإنسانية بأكملها ويشيع فيها حيوية ونشاطاً وأنه يمزج الملكات العقلية بعضها ببعض عن طريق الخيال ، فهو الذى يتيح للمألوف، ضرباً من الجدة وهو الذى يجمع بين العناصر المتنافرة بقوته السحرية . وفرق بين

الخيال والوهم الذى يقوم على حشد صور متباينة لا تربطها علاقة طبيعية . وقد كثرت عند الرومانسيين المقدمات التى تشرح اتجاهاتهم فى دواوينهم وآراءهم فى الشعر ورسالته ووظيفته .

وإذا كانت ألمانيا هى التى قادت النقد فى القرن الثامن عشر فإن فرنسا هى التى قادت فى القرن التاسع عشر ، فقد استعارت «مدام دى ستايل» من الألمان مبدأهم القائل بأن الأدب تعبير عن المجتمع ، وألفت على ضوء هذا المبدأ كتابها «الأدب فى علاقته بالنظم الاجتماعية» . وأخذ المؤرخون والنقاد جميعاً يتأثرون بهذا المبدأ فى كتاباتهم ومؤلفاتهم ، نجد ذلك عند «جيزو» فى كتابه «تاريخ المدنية فى فرنسا» وفى كتابه الثانى «تاريخ عام للمدنية الأوربية» إذ أخذ يحلل بناء المجتمع وتطور الجماعات فيه . ونجده أيضاً عند «ميشليه» فى كتابه «تاريخ فرنسا» وهو فيه يؤرخ للشعب الفرنسى متحدثاً عن بيئته ، ومسائراً له فى نشوئه وتطوره . وتناول فلمان (١٧٩٠ - ١٨٧٠) أقباساً من هذه الطريقة فدرس الأدب على ضوءها وردّه إلى عوامل المجتمع والسياسة والبيئة والتزعزعات الموروثة فى الجنس ، وطبق ذلك تطبيقاً دقيقاً فى دراسة الأدب الوسيط وأدب القرن الثامن عشر ، فأتاح للمذهب التاريخى فى النقد أن ينهض . وفى الوقت نفسه كان نيزار (١٨٠٦ - ١٨٨٨) يدعو إلى إخضاع النقد الأدبى لقوانين ثابتة حتى يقضى على فوضى الأذواق ، وانبرى فى كتابه «تاريخ الأدب الفرنسى» يتخذ من مثل أعلى كونه فى ذهنه عن العبقرية الفرنسية مقياساً يقيس به جودة الأديب الفرنسى ورداعته ، فمن اقترب من هذا المقياس كان جيداً ومن ابتعد عنه كان رديئاً أو مسفهاً .

وكانت تتطور فى أثناء ذلك العلوم التجريبية : علوم الكيمياء والطبيعة تطوراً هائلاً ظهر صداه فى الفلسفة الوضعية عند «كومت» وأضرابه . وسرعان ما رأينا النقاد يحاولون أن يضعوا للأدب قوانين كقوانين العلوم التجريبية ، فالناقد لا ينبغى أن يكون أديباً فحسب ، بل هو أديب من جهة وعالم من جهة أخرى ، عالم طبيعى يبحث فى الأدب بحثاً طبيعياً على نحو ما يبحث «كومت» فى الفلسفة وعلى نحو ما يبحث علماء الدراسات التجريبية . وتصدى للنهوض بهذا الصنيع «سانت بيث» (١٨٠٤ - ١٨٦٩) فدعا لدراسة الأدباء حسب أحوال طبيعتهم مبتدئاً بخصائصهم الجسدية ،

ومتعقبا لهم في حياتهم المادية والعقلية والحلقية وحياة أسرهم وكل من اتصلوا بهم وأذواقهم وعاداتهم وآرائهم ، وبعبارة أخرى دعا لدراستهم دراسة عضوية نفسية اجتماعية كما ندرس الثمرة في شجرتها لتبين خصائصها . فإذا استقامت دراستهم على هذا النحو وضعوا في مكانهم الصحيح من سلم الأدب ، وأمكن أن يُصنع معهم ما يصنعه علماء النبات إذ يرتبونه في فصائل نباتية مختلفة ، فيرتبوا في فصائل وطوائف حسب ما يجمع كل فصيلة وطائفة من مشابهاة وصلات . فبين الأدباء ما يميزهم في أمزجتهم وشخصياتهم تمييزاً فردياً وما يجمعهم جمعا يتيح للنقاد أن يضعوهم بحسبه في مراتب وعلى طبقات . وهذا هو ما نعتمد عليه في استخلاص قوانين الأدب العلمية ، نستخلصها مما يشترك فيه الأدباء أو مما تشترك فيه فصائلهم على نحو ما يصنع علماء النبات والحيوان حين يقسمونها إلى فصائل ، يضعون لها الصفات والقوانين . وبذلك أصبح النقد عند سانت بيث عالماً يمكن أن نسميه « التاريخ الطبيعي للأدب » ينقسم فيه الأدباء إلى أنماط ، ويتمى كل نمط منهم إلى فصيلة معينة لها معالمها وميزاتها وخصائصها . ومضى في « أحاديث الاثنين » و « أحاديث الاثنين الجديدة » يدرس الأدباء أديباً أديباً ، ويوضح خصائص كل أديب ونمطه الذي يوضع فيه . فغدا الكتابان شبيهين أكبر الشبه بمؤلف في التاريخ الطبيعي ، لا تُدرَسُ فيه أنواع الحيوان أو النبات ، وإنما تدرس فيه أنواع الأدباء ويحللون أديباً أديباً من جميع الوجوه ، يحللون في صفاتهم الجسدية والعقلية وفي أسرهم ومجتمعاتهم وبيئاتهم والظروف التي أثرت فيهم وأدق التوافه في حياتهم وأصدقائهم وصلاتهم واللحظة التي بدأوا فيها أعمالهم الأدبية فلمعت أسمائهم ، والأخرى التي بدأوا عندها يتحطمون ، إن كانوا قد اجتازوا مثل هذه اللحظة ؛ مع العناية بإبراز نواحي ضعفهم . وكما يحللون في أصدقائهم ومن أثنوا على أديبهم يحللون في خصومهم ومن أزرروا على فنهم . وباختصار يحللون في كل ما يتصل بهم تحليلات علمياً دقيقاً ، حتى يُعرَفَ النمط الذي يتسبون إليه في شجرة الأدب الكبيرة معرفة تامة .

« ولم يلبث أكبر تلامذته « تين » (١٨٢٨ - ١٨٩٣) أن خلفه على الطريقة ، فحوّلها إلى ضرب من الحتمية الجبرية على نحو ما تتصف به القوانين الطبيعية ، فإذا

كانت الطبيعة لا تعرف الخصائص ولا القوانين الفردية ، وإنما تعرف القوانين العامة الملزمة فكذلك ينبغي أن تكون قوانين الأدب ، قوانين تقوم على الحتمية الشديدة ، وتطبق على جميع الأفراد بلا استثناء . واتخذ ميداناً لبحثه «تاريخ الأدب الإنجليزي» ونراه فيه لا يهتم بالكتّاب والشعراء الإنجليز في أنفسهم ، فالقوانين العلمية الطبيعية تنكر الفردية الشخصية لأنها قوانين عامة تطبق في كل أمة وفي كل أدب . وانظر إلى قانون تحليل الماء إلى أوكسوجين وإيدروجين بنسب معينة فإن هذا القانون يصدق على كل ماء . وكذلك نحن في الأدب ينبغي أن نضع القوانين العامة التي تطبق على جميع الأفراد . وما الفرد ؟ إنه جزء من أمة ، فيه كل خصائصها وعاداتها وملكاها ، ولذلك ينبغي أن نردّه إلى المؤثرات العامة التي تعمل فيه ، فمثل الشجرة ، نتيجة مباشرة للتربة التي نمت فيها وآتت أكلها ، ولا بد لفهمه فهماً صحيحاً من الرجوع إلى هذه التربة التي أنبتته والعوامل التي نبت فيها وتغذّى في أثنائها ، وهي عنده ثلاثة : الجنس فلكل جنس خواصه ، والبيئة فلكل بيئة ميزات إقليمية وجغرافية خاصة ، والزمان فلكل زمان واكل عصر أحداثه وظروفه السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية . وتلك هي قوانين الأدب الثلاثة : الجنس والبيئة والزمان ، وهي قوانين عامة كقوانين الطبيعة ، قوانين جبرية تشلّ حرية الأديب الظاهرة ، إذ هو ينشئ ما ينشئ من آثاره وأعماله داخلها ، فهو أثر من آثارها ، أثر لا يتخلف .

وأظهر «تين» مهارة رائعة في تطبيق قوانينه الثلاثة على الأدب الإنجليزي ، ولكن النقد لاحظوا أنه تجاهل الشخصيات الفردية في الأدب ، إذ أنكر عنصر الأصالة في الأديب الذي يجعله متميزاً بين أبناء عصره ممن يخضعون لنفس القوانين في أمة . ومن الخطأ البين أن ينكر ناقد المواهب الفردية وأن يلزم إلى أن الأدباء عناصر متجانسة يماثل بعضها بعضاً على نحو ما نجد في عناصر الطبيعة وكأنهم الماء في النهر ، كل جزء منه يماثل الجزء الآخر . والحق أن قوانينه إنما تعرض العناصر المشتركة بين الأدباء في أمة معينة وزمن معين ، وهي عناصر عامة إن أحاطت بأوساط الأدباء وأمكن تطبيقها عليهم فإنها لا تحيط بأفئذهم الذين يختلفون عن حوّلهم ويتميزون من بينهم تميزاً من شأنه أن يجعلهم ناثين في مجتمعهم بمواهبهم التي ينفردون

بها عن سواهم ، بل إن هؤلاء الأفذاذ أنفسهم لا يتشابهون فهم صنف ، لكل منهم على حيدته أصالته وذاتيته وفرديته .

وبجانب هاتين المحاولتين في وضع « التاريخ الطبيعي للأدب » نجد محاولة ثالثة عند « برونثير » (١٨٤٩-١٩٠٦) وهي محاولة تقوم على نظرية النشوء والارتقاء التي أذاعها « دارون » في تطور الكائنات العضوية ، وكأنما أعجب « برونثير » بنقل « اسبنسر » لها من العضويات إلى المعنويات إذ طبقها على الأخلاق والاجتماع ، فذهب هو يطبقها على الأدب والأدباء ، أليسوا من الكائنات الحية التي تخضع لهذا القانون هم وكل ما يصدر عنهم ؟ وإذن فينبغي أن نطبق هذا القانون على آثارهم تطبيقاً يصور لنا كيف نشأت الأنواع الأدبية ، وكيف نمت وتطورت من عصر إلى عصر متأثرة بعوامل البيئة والزمن ، وإن التطور فيها ليؤدي أحياناً إلى ظهور نوع جديد تتضح فيه — إذا تأملناه — بقايا نوع سابق . ومضى يطبق ذلك على أنواع ثلاثة في الأدب ، هي المسرح والنقد الأدبي والشعر الغنائي ، متعقبا كل نوع من أصل نشأته إلى الصورة التي انتهى إليها في عصره ، مسهبا في العوامل السياسية والدينية والاجتماعية التي عملت فيه على مر العصور والأطوار . وقد ذهب إلى أن الشعر الغنائي الرومانسي لم يتطور عن شعر مثيل له أو شبيه به في العصور السالفة ، وإنما تطور عن الوعظ الديني الذي شاع في القرن السابع عشر على نحو ما يتطور كائن عضوي إلى كائن آخر .

وليست هذه المحاولات العلمية في وضع « التاريخ الطبيعي للأدب » هي كل ما ورثناه عن النقد الفرنسي في القرن التاسع عشر فقد ثارت معارك حول فكرة الفن للفن ، حمى وطيسها مع ظهور ديوان « أزهار الشر » لبودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧) وقد هيأت تلك المعارك لظهور مذهب الفن للفن لا لغاية أخلاقية أو اجتماعية أو دينية أو لأي غاية أخرى خارجية ، وإنما لغاية ذاتية واحدة هي التعبير عن النفس وأحاسيسها ومشاعرها ، فغاياته الجمال وخلق إحساسات جميلة وأخيلة جميلة . ولم تقف هذه النظرية عند النقد ، فقد رافقها مذهب أدبي يسعى أصحابه من الشعراء إلى تغذية حاسة الجمال في الأفراد وهو مذهب البرناسيين الذين نسبوا أنفسهم إلى جبل البرناس ، ذلك الجبل الذي تزعم الأساطير اليونانية أنه مأوى آلهة الشعر ومسكنهم .

وكان أصحاب هذا المذهب يسخرون من الشعر الرومانسى وما فيه من بكاء وألم ، ويتخذون من أساطير الشعوب البدائية مادة لشعرهم ، حريصين على أن يستوفى تعبيره كل ما يمكن من صور الجمال الفنى وأشكاله . وسرعان ما ظهر المذهب الرمضى الذى آمن أصحابه أن الغرض من القصيدة أن تنقل الحالة الوجدانية للشاعر عن طريق إحياءاتها التصويرية والموسيقية . وفى رأيهم أن القصيدة لا تنقل معانى واضحة ، إنما تنقل معانى من الصعب التعبير عنها ، وما اللغة إلا رموز ، إلا أنها رموز قاصرة لا تستطيع أن تؤدى خوالج الشاعر المؤلفة من أحاسيس ومشاعر متباينة . وإذن فليستخدمها الشعراء ولكن لا كما تُستخدم فى الحياة العادية أو فى الحياة العلمية للدلالة على معانٍ واضحة ، وإنما للإيماء بها والرمز عن معانيهم الغامضة التى لا يستطيعون الإفصاح عنها بل يرمزون إليها بالأخيلة والصور الموسيقية .

ولا نُشرف على أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حتى يضيق النقد بإقحام الأدب بين علوم الطبيعة ، وتلك المحاولات السالفة التى وقفنا عندها والتى حاول أصحابها أن يُحدثوا للأدب تاريخاً طبيعياً له قوانينه الصارمة ، فقد لاحظوا فروقاً كثيرة بين القوانين الطبيعية والقوانين الأدبية ، إذ الأولى ثابتة لا تتغير من عصر إلى عصر ، بل تعمل منذ القدم ، أما الثانية فتغيرة ، تتغير وتتبدل من عصر إلى عصر ، تتبدل اتجاهاتها ، وتنشأ فيها مذاهب جديدة على نحو ما حدث فى القرن التاسع عشر ، فقد تعاقبت فيه المذاهب الأدبية فى شكل موجات متلاحقة من رومانسية إلى برناسية ورمزية . ولا بد فى القوانين الأدبية من الاستقرار بخلاف القوانين الطبيعية ، فنحن نستطيع أن نثبت القانون الطبيعى بتجربة واحدة ، نُجرىها على جزئية ونعم نتأججها على بقية الأجزاء . وهذا لا يحدث فى الأدب فلا بد من استقرار جميع الجزئيات ثم استخلاص القانون الأدبى ، وهو قانون كثيراً ما يتخلف . وهذا هو معنى القديم والجديد فى الأدب ، وهو معنى ثابت فيه لا يمكن نقضه .

ومن هنا ظهر نقاد لا ينفون نفيّاً باتّاً ما استخلصه نقاد القرن التاسع عشر من قوانين الأدب وقواعده ، ولكنهم لا يجعلون ذلك كل ما يعتمد عليه الناقد فى حكمه الأدبى ، بل لا بد أن يعتمد على تأثيراته الوجدانية الخاصة . ويمثل « إميل

فاجيه» (١٨٤٧-١٩١٦) هذا المتزع النقدي الذي يعتمد على الأصول الموضوعية للأدب كما يعتمد على انفعالات الناقد خلال قراءاته للأثر الأدبي الذي يريد أن يحكم عليه . وظهر بجانب متزع « فاجيه » متزع ثان أكثر غلوا ، إذ يرد أصحابه المقاييس العلمية في النقد جميعها راجعين في أحكامهم إلى أذواقهم وما يثيره النموذج الأدبي الذي ينقدونه من مشاعر وأحاسيس في نفوسهم . ويمثل هذا المتزع «چول ليمتر» (١٨٥٣ - ١٩١٤) وقد طبقه في مؤلفات له سماها «تأثرات مسرحية» صور فيها أحاسيسه في أثناء سياحاته في نماذج أدبية مختلفة . ووقف كثيراً في تضاعيف وصفه لإحساساته وانطباعاته إزاء النموذج الذي ينقده يهاجم النقد العلمي أو المذهبي قائلاً إن هذه القواعد التي يذكرونها ليست في حقيقتها إلا انطباعات وتأثرات فردية سابقة ، تحجرت بمضى الزمن . وكأنه أراد أن يحيل النقد المذهبي نفسه إلى نقد تأثري ، حتى لا يكون هناك منهج في النقد وراء منهجه .

ولم تعد تظهر في هذا القرن العشرين محاولة جديدة لوصل الأدب بعلوم الطبيعة ، فقد استقر بين النقاد أنه من الدراسات الإنسانية التي تتصل بالإنسان ونشأته وتطوره ونشاطه النفسي والاجتماعي ، فشكله مثل التاريخ والاقتصاد ، وما به من قوانين إنما هي قوانين مُقنعة ، وليست قوانين جبرية ولا حتمية كقوانين الطبيعة . وليس معنى ذلك أن النقد خلص من المناهج العلمية ، إنما معناه أنه اتجه اتجاهات جديدة ، إذ دُعمت الصلة بينه وبين العلوم الإنسانية وخاصة علوم الاجتماع والنفس ، وظهرت فيه دراسات كثيرة تتجه إلى كل ما وصل إليه الدارسون في هذه العلوم من نظريات وقواعد وقوانين .

ومعروف أن علم الاجتماع نشبت قوانينه ونظرياته في طبيعة المجتمع وتطوره وما بين طبقاته من صراع ، وما يؤثر فيه من مؤثرات يرجع بعضها إلى الثقافة وبعضها إلى موروثات شعبية . وقد أخذ البحث في هذه الموروثات يشغل علماء الاجتماع ، واتسع به النقد في الآداب الشعبية وما تحمل من أساطير بدائية وذكريات شعائرية تعمق في القدم إلى العصر الفطري للأمم ، عصر الرعي والبداءة ، الذي تنبثق منه حضارتها وكل ما أنتجت من شعر وفن .

وكان من أثر نمو الدراسات النفسية في هذا القرن أن انعكست على الأدب

منها أضواء وأصداء كثيرة منذ ذهب « فرويد » إلى أنه تعبير مقنّع لرغبات مكبوتة ، وقرن بينه وبين الأحلام ، وبالغ فجعله ثمرة مرحلة جنسية نفسية تمر بصاحبه ، وكأنما الأديب لا يجد ما يشبع رغباته المكبوتة في حياته الحقيقية ، ومن ثم يعوّض عن ذلك بأدبه . وتلاه « أدلر » يكرّر الحديث عن مركب النقص وأثره في الأديب وأدبه ، أما « يونج » ففسح للحديث عن اللاشعور الجماعي وأكد أن مردّ الأدب إلى الأساطير البدائية الموروثة عن عصور الإنسانية الأولى عن وعي أو عما يشبه الحلم ، وكان الأديب تعبير عن الأسلاف وهذا اللاشعور الجماعي الذي يختزن ماضي الإنسان وميراثه العتيق عن أقدم عصوره . ومضى النقاد يفيدون من كل هذه الدراسات ، ومن كل ما جاء به علم النفس الفردي والجماعي والتجريبي من نظريات ، تتصل بسلوك الإنسان منفرداً أو في الجماعة ، أو تتصل بأعصابه وغدده الصماء أو تتصل بمكبوتاته وعُقده النفسية .

ونشأ عن هذا كله أن ظهر من يعللون للجودة والرداءة في الأدب بالقيم النفسية ومدى التأثير النفسي في القارئ ، فهذه القصيدة أجود من تلك لقيمة نفسية تحتويها لا لقيمة مادية أو جمالية . ومرد هذه القيمة أننا نعيش — في رأى هؤلاء النفسانيين — وقد تملكنا أحاسيس ورغبات ودوافع لا عدد لها ، نخضع فيها لميول غريزية وإعادات واعتقادات موروثة وأفكار عامة لا تكاد تحصى . فنحن عندهم أسرى لفوضى في المشاعر والأحاسيس ، فوضى لانهاية لها . وبمقدار ما ينظم الأثر الأدبي هذه الفوضى تكون قيمته ، ونشعر بجماله وجودته ، فجودته ليست شيئاً ميتافيزيقياً مما يبحث فيه علماء الجمال ويرفعونه على أساسها عن عالم الحقيقة وعالم الخير إلى عالم تجريدي يتأملون فيه سابحين في نظريات مختلفة مما أدى بكثير منهم إلى الفصل بين الشكل والمضمون . وأيضاً ليست جودته شيئاً خلقياً مما تحدث النقاد عنه كثيراً ، فالأخلاق قد تكون جزءاً في بعض قيمه ، ولكنها لا تفسر كل قيمه ، ونحن لا نطلب فيه الأخلاق ، وإنما نطلب شيئاً عميقاً يرضى هذا الخضم من مشاعرنا وأحاسيسنا .

ومن غير شك نحن نلتقي في هذا الخضم بالأخلاق وبالخدمات الاجتماعية التي يؤديها الأدب ، ولكن هذه الأشياء إنما هي جزء أو أجزاء في دوافعنا العامة ، وليست كل هذه الدوافع ، ومن الخطأ أن نعتمد على أي جزء فيها ونجعله وحده مقياساً للأدب

نَصْدِرُ عَنْهُ فِي أَحْكَامِنَا عَلَيْهِ، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ نَعُودَ فِي هَذِهِ الْأَحْكَامِ بِجَمِيعِ الدَّوَافِعِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَجِيْشُ بِهَا قُلُوبُنَا وَقُلُوبُ الْأَدْبَاءِ، وَإِنَّهُمْ لَيُؤَلِّفُونَ بَيْنَ عُنَاصِرِهَا الْمُتَبَايِنَةِ تَأْلِيفاً يَتِيحُ لَهَا ضَرْباً مِنَ النِّظَامِ، فَإِذَا أَلْمَعْنَا بِهَا عِنْدَهُمْ رَاعَتْنَا لَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ يَثِيرُونَهَا فِينَا فَحَسَبَ، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ يَعِيدُونَ تَأْلِيفَهَا فِينَا، وَيَحْدُثُونَ لَهَا نَوْعاً مِنَ التَّسَاوُقِ، نَشْعُرُ إِزَاءَهُ بِضَرْبٍ مِنَ التَّسَامَى النَّفْسِيِّ، وَهُوَ تَسَامٍ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ نَقِيْسَهُ بِأَيِّ قِيَمَةٍ خَلْقِيَّةٍ أَوْ اجْتِمَاعِيَّةٍ خَاصَّةٍ. وَإِذَا كُنَّا نَتَسَامَى فِي سُلُوكِنَا الْعَادِيِّ بِمَقْدَارِ تَنْظِيمِنَا لِدَوَائِعِنَا الْخَفِيَّةِ الرَّاسِبَةِ فِي نَفُوسِنَا، فَكَذَلِكَ الْأَدْبَاءُ يَتَسَامُونَ وَيَتَفَاوَتُونَ فِي دَرَجَاتِ تَسَامِيهِمْ بِمَقْدَارِ مَا يَحْدُثُونَ فِينَا مِنْ تَنْظِيمِ مِمَّا ثَلَّ فِي عَوَاطِفِنَا وَنَزَعَاتِنَا النَّفْسِيَّةِ. وَكُلُّ شَخْصٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَلَاحِظَ نَفْسَهُ فَيَجِدُهُ مُتَقَلِّباً بَيْنَ حَوَافِزٍ وَبَوَاعِثٍ وَغَرَائِزٍ لَا حَصَرَ لَهَا حَتَّى كَأَنَّهُ يَتَغَيَّرُ مِنْ سَاعَةٍ إِلَى أُخْرَى، بَلْ مِنْ لَحْظَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَلَا بَدَّ لاسْتِقَامَتِهِ مِنْ تَذَكُّرِ الْقَوَانِينِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْوَضْعِيَّةِ وَتَذَكُّرِ الْعَادَاتِ وَالْأَوْضَاعِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ. وَكُلُّ هَذِهِ وَسَائِلٌ نَلْجَأُ إِلَيْهَا حَتَّى نَنْظِمَ سُلُوكِنَا فِي الْمَجْتَمَعِ. وَإِذَا كُنَّا نَسْتَرِيحُ لِلدِّينِ لِأَنَّهُ يَنْظِمُ جَانِباً مِنْ نَزَوَاتِنَا وَرَغْبَاتِنَا الْمُسْتَكْنَةِ فِي أَعْمَاقِنَا فَكَذَلِكَ نَحْنُ نَسْتَرِيحُ لِلشَّعْرِ وَغَيْرِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْأَدَبِ، لِأَنَّهُا جَمِيعاً تَقُومُ بِوُضُفَةٍ مِمَّا ثَلَّ، وَوُضُفَةُ تَنْظِيمِيَّةٍ، إِذْ تَقْنَعُ طَائِفَةٌ مِنْ دَوَائِعِنَا كَمَا يَقْنَعُنَا الدِّينُ، لَا تَقْنَعُ أَوْ تَنْظِمُ أَخْلَاقِنَا، وَإِنَّمَا تَقْنَعُ وَتَنْظِمُ عَوَاطِفِنَا وَأَحَاسِيسِنَا بِمَا يَكُونُ فِيهَا خَلْقِيّاً وَغَيْرَ خَلْقِيٍّ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يُرَضَّى الْأَدَبُ فِينَا عِنْدَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنَ النَّفْسِيِّينَ حَاجَاتٍ عَمِيقَةً، أَعْمَ مِنْ أَنْ تَكُونَ أَخْلَاقاً أَوْ غَايَاتِ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَحْدُودَةٍ، فَقَدْ لَحَازَتْ إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْ قَدِيمٍ لِيَكُونَ وَسِيلَتَهَا إِلَى التَّعْبِيرِ عَنْ عَالَمِنَا النَّفْسِيِّ الْفَسِيحِ وَكُلِّ مَا يَجْرِي فَوْقَ مَحِيطِهِ وَفِي دَاخِلِهِ مِنْ أَهْوَاءٍ وَرَغْبَاتٍ وَنَزَعَاتٍ وَدَوَائِعٍ. وَمَقْلُورَةُ الْأَدِيبِ إِنَّمَا تَظْهَرُ فِي أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسُوَّى مِنْ هَذَا الْعَالَمِ تَجْرِبَةً نَفْسِيَّةً كَامِلَةً، تَجْرِبَةً قَدْ تَلْتَحِمُ بِاتِّجَاهِ خَلْقِيٍّ نَعِيشُهُ وَقَدْ لَا تَلْتَحِمُ كَمَا أَنَّهَا قَدْ تَلْتَحِمُ بِاتِّجَاهِ اجْتِمَاعِيٍّ نَعِيشُهُ وَقَدْ لَا تَلْتَحِمُ لِأَنَّهَا أَوْسَعُ دَائِرَةٌ مِنْ أَوْضَاعِنَا الْخَلْقِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ. إِنَّهَا تَجْرِبَةٌ عَامَةٌ يَحَاوِلُ صَاحِبُهَا جَاهِداً أَنْ يَصُورَ رَجَائِباً مِنَ الْبَنِيَانِ الْكَبِيرِ لِلْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ الصَّابِحَةِ، وَهِيَ حَيَاةٌ تَسْتَمِدُّ مِنَ الْمَجْتَمَعِ وَمِنَ الْأَخْلَاقِ الصَّالِحَةِ وَالْفَاسِدَةِ وَمِنْ جَمِيعِ الْعُنَاصِرِ الَّتِي تَتَدَاخَلُ فِي كَيَانِ حَيَاتِنَا وَتَنْطَلِقُ فِي دَاخِلِنَا، نَعِيهَا تَارَةً وَلَا نَعِيهَا أُخْرَى لِأَنَّهَا تَرْسِبُ فِي اللَّاشْعُورِ. وَبِرَاعَةِ الْأَدِيبِ إِنَّمَا

هي في النفوذ إلى هذا كله وتجسيمه في تجربته أو قل تنظيمه ، بحيث نستجيب إليه ونحس أنه يرضى فينا أعماقنا ، فلا نقرؤه حتى تسرى فينا هزة قوية لما أحاط به من دوافع واعية وباطنة إحاطة شاملة .

ومنذ « بومبارتن » تتكاثر الأبحاث التجريدية في الفلسفة الجمالية ، فقد بحث الفلاسفة طويلاً في الحقيقة الجمالية للفنون وهل الجمال ذاتي أو موضوعي ، وهل هو في الجميل نفسه أو في تصورنا عنه ، وما المقياس الذي نقيسه به ؟ ويقولون إنه الذوق ويتساءلون عن مكوناته وهل يمكن تعاليله ووضع قواعد منطقية له كقواعد المنطق التي نقيس بها العقل ونميز عن طريقه بين الخطأ والصواب . ونقل « كروتشه » هذا التفكير الفلسفي الأدبي من نظرية أن الفن تعبير إلى نظرية أن التعبير فن وأنه لا يوجد في الفن شكل ومضمون ، فالفن كائن عضوي ، والحياة العضوية ليس فيها شكل ومضمون أو قالب وموضوع ، إنما فيها كينونة واحدة ، ينمو فيها الموضوع والقالب نمواً داخلياً كما تنمو الكائنات الحية

وعلى ضوء هذه الدراسات الفلسفية الأدبية يحاول نقاد دراسة الآثار الأدبية دراسة عضوية ، يعرضون فيها لأجزائها وعباراتها عبارة عبارة ، ليتبينوا علاقة الألفاظ بمعانيها ومواقعها في عباراتها ومواقع العبارات بعضها من بعض ، باحثين في الصور والأخيلة والأوزان بحثاً عضوياً ، مصورين ضرورتها لقوة الشكل والقالب وأن المعاني التي تحتويها تستوجبها ، وموضحين ما يمتاز به الأثر الأدبي من روعة وجمال . وعندهم دائماً أن القالب أو الأسلوب والموضوع أو المعاني شيء واحد ، وأن من المستحيل أن تفصل الصورة عن المادة ، فهما جميعاً كيان واحد تسوده علاقات عضوية حتمية .

ولا تزال ترتفع أصوات تنادى بدراسة الأدب من خلال أصوله وقواعده الموروثة فالأثر الأدبي ليس وحدة مستقلة قائمة بذاتها ، وإنما هو حلقة في سلسلة طويلة ، وهو لا يتضح إلا إذا عُرِفَت مكانته ومنزلته من هذه السلسلة ، فلا بد أن يُقَرَّنَ العمل الحديث بالأعمال السابقة ، إذ هو لا يسقط من السماء كالشهب بل هو نتيجة خبرة أدبية ، عملت فيها الأجيال التي سبقت عصره ، وهو لذلك لا بد أن يُقَرَّنَ إليها حتى نعرف مدى حِسِّ الأديب بالتاريخ الأدبي من جهة ، ومدى

ما يعمله الأدب الماضي في الأدب الحاضر من جهة أخرى. وأصحاب هذه الطريقة يؤمنون بأن الأديب ينبغي أن يكون واعياً للتيار الأدبي الكبير الذي تتدفق مياهه في القديم والحديث على السواء ، أو بعبارة أخرى ينبغي أن يدرس مادة مهنته وصورها على مرّ العصور وأن يتمثلها لا بحيث يفنى فيها فناء تاماً ، فذلك بوار وسقوط دون الغاية ، وإنما بحيث يشكّلها تشكيلاً جديداً فيه روحه وعصره وشخصيته . فهو يتلقّى ، يلتحم ما يتلقاه بكيانه ، ويخرجه للناس شرباً مصفى مختلفاً ألوانه ، مثله مثل النحلة تدور على الأزهار ممتصة لها ، ثم تُخرج ما تمتصه عسلاً صافياً .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على اتساع ميادين النقد في عصرنا ، وهي ميادين لا تتفاصل ولا تتقاطع ولا توجد بينها حواجز ، إذ كثيراً ما تتداخل وكثيراً ما يحاول بعض النقاد أن يفيد منها جملة أو تفاريق حسب مهارته وقدرته العقلية وطبيعته الانفعالية التي تحسن فهم الآثار الأدبية والاستجابة لها استجابة فنية وعاطفية . ومعروف أن هذه الآثار لا تكشف عن مكنوناتها ومخباتها إلا لتلك الصفوة من النقاد التي تملك ذوقاً أدبياً رفيعاً وحسّاً ثاقباً لطيفاً .

بين التحليل والتقويم

رأينا النقد يبدأ عند اليونان بدءاً ساذجاً ، ثم يأخذ في التعقيد شيئاً فشيئاً ، إلى أن تكونت فيه عند أرسطو نظرية واضحة المعالم . وأخذ منذ وُجد عندهم معنى بتفسير الشعر تارة والحكم عليه بمقاييس اجتماعية أو فلسفية تارة ثانية . ومضى أفلاطون يزعم أنه في مرتبة متخلفة بالقياس إلى الفكر والحكمة ، ولم يكتف بذلك فقد أعلن حملة صريحة على الشعراء ، وأخرجهم من مدينته المثالية لما ينشرون من أخلاق سيئة تضرّ بالمجتمع السليم . وخلفه أرسطو فأفاض في تحليل الشعر والمأساة خاصة ، ومضى يقول إن الشعر أكثر فلسفة وحكمة من التاريخ ، أما من حيث وظيفته وما قد يُظنُّ من أنه يبعث على الرذائل فليس بصحيح ، إنما الصحيح أنه يثير العواطف ويطهرها من أدّ رانها ، وهو لذلك ليس ضاراً ، بل هو نافع لما يجلب من هذا التطهير ، وهو أيضاً ممتع لما نجد فيه من راحة بهذا التطهير . ونلخص ذلك هوراس فيما نلخص من نظرية أرسطو عن الشعر ، فقال إنه يعلم بينما يمتع ، فهو نافع ممتع معاً .

وقد غلبت على النقد طوال العصور الوسطى فكرة النفع الخلقى التى أثارها الإغريق ، فالشعر ينبغى أن يصور الأخلاق الفاضلة حتى يتفق وتعاليم المسيحية ، وبذلك تقاس قيمته ويُفصلُ بين الجيد منه والردىء . وأكثر النقاد منذ عصر النهضة من الحديث عما يوفره الشعر من المنفعة أو المتعة ، فهو يثقف أو يهذب أو ينقل الحقيقة أو يفيد فائدة خلقية ، فتلك وظيفته الأولى فى رأى بعض النقاد ، وفى رأى آخرين أنه يمتع أو يجلب ضرباً من اللذة أو النشوة أو يجلب ضرباً من المسرة . حتى إذا كان القرن التاسع عشر ارتفعت أصوات نقاد كثيرين تنادى بأن القياس الحقيقى للشعر هو الأخلاق وما يبعث من فضائل . وقابلتها أصوات أخرى تقول إن للشعر عالمه القائم بذاته ، وعلينا إذا أردنا أن نحكم عليه أن نرجع إلى مقاييس من داخله وطبيعته ، إنه شعر وليس أخلاقاً ولا ديناً ولا ثقافة أو بعبارة أخرى ليس أداة تعليمية . واحتدمت المعركة بين الطرفين وظهر فى فرنسا ديوان وأزهار الشر ، لبودلير ، وصرخ كثيرون يقولون إن هذا الديوان وما يماثله وباء يجب على

المجتمع أن يقاومه ، كما يجب ذلك على الدولة . وانبرى كثيرون من النقاد يدعون إلى الفصل بين عمل الناقد وعمل رجل الدين أو رجل الشرطة ، إن الشعر تجربة ممتعة للخيال ، وهو ينقل لنا في هذه التجربة الحياة الإنسانية بخيرها وشرها وطهرها وإثمها . ولا حرج على الشاعر في ذلك لأن تلك وظيفته ، وتحكيم الأخلاق في عمله إنما هو تحكّم ، وأى أخلاق نحكّمها فيه ؟ لقد ثبت أن مقاييس الأخلاق تختلف من عصر إلى عصر ومن أمة إلى أمة ، فأى مقاييس نتخذها أساساً في الحكم ، أنتخذ مقاييس مدرسة الرواقيين أو مقاييس مدرسة الأبيقوريين ؟ وهل نتخذ مقاييس الفطريين أو مقاييس المتحضرين ؟ إن هذا ينتهى بنا في رأى هذا الفريق من النقاد إلى اضطراب شديد في المقاييس الأخلاقية التي نحكم بها على الشعر ، وما الأخلاق والشعر ؟ إنها من عالم غير عالمه ، وقيمها غير قيمته . وقد مضى الشاعر الإنجليزى « شلى » يقول إن دعوى أن الشعر مناقض للفضيلة باطلة ، واستلهم نظرية أرسطو في التطهير ، فقال إن الشعر يوسّع خيالنا ويوقظ عقولنا وينمى أرواحنا بما يعرض لنا من تجارب الحياة التي تدفعنا دفعاً إلى إنسانية مثالية ، وهو يخدم هذه الإنسانية خدمة أروع من تلك التي يقدمها الوعاظ ورجال الدين .

وظهر في أثناء هذا الجدل المحتدم في وظيفة الشعر والمقاييس التي نرجع إليها في تقويمه مذهب الفن للفن ، فالشعر ليس له غاية وراءه لا خلقية ولا غير خلقية . وليس معنى ذلك أن أصحاب هذه النظرية أنكروا الأخلاق أو دعوا إلى أن تعم في الشعر أخلاقية سيئة ، وإنما معناه أنهم ينكرون كل حكم على الشعر يستمد من شيء خارج عن طبيعته سواء أكان خلقاً أم ديناً أم ثقافة ، فالشعر مثله مثل أنواع الفن لا يهدف إلى أى ضرب من ضروب التعليم ، حقاً قد يعلم ويهذب ويخدم الثقافة والفكر المعاصر والقضايا العادلة ، ولكن هذا كله خارج عن قيمته الشعرية التي تُردُّ إلى خصائصه الجمالية . وأكد هذا المذهب البحث الفلسفى في نظريات الجمال ، وما ذهب إليه أصحابه من أن العقل تحتله ثلاث قوى ؛ قوة التفكير التي تهدينا إلى الحقيقة وقوة الإرادة التي تهدينا إلى الخير وقوة الإحساس التي تهدينا إلى المتعة الجمالية بالشعر وغيره من الفنون . وبذلك فصلوا بين عالم الشعر وعالم المعرفة والخير ، فالشعر لا يعطينا معرفة ولا خلقاً ، إنما يعطينا شيئاً يعلو على

عالمنا الحقيقي لسبب بسيط وهو أنه يقدم لنا ضرباً من ضروب الجمال ، وللجمال جوهره القائم بذاته ، وهو جوهر ينبغي أن يُدرَس دراسة منعزلة عن ضروب النشاط الإنسانى الأخرى ، حتى نفهم ما يرفدنا به من لذة وانفعالات جمالية ، وبهذه الانفعالات الجمالية الخالصة ينبغي أن تقوم ونقدره . وانتقلوا يحللون هذا الانفعال الجمالى ، فارقين بينه وبين الانفعالات العادية ، فهو من جنس مخالف لها ، وكما حللوا الانفعال بالجميل حللوا التقدير الجمالى للشعروهل يرجع إلى الأسلوب أو المضمون أو يرجع إليهما جميعاً ، فليس فى الشعر أسلوب ومضمون أو لفظ ومعنى ، بل هو بناء عضوى متكامل لا ينقسم فيه المعنى عن اللفظ ، ولا يمكن تصورهما منفصلين على نحو ما ينفصل الإطار عن الصورة التى يحتويها ، فهما كيان عضوى واحد .

ولا يزال لهذه النزعة أنصارها فى عصرنا ، وخاصة عند من يتعلقون بدراسة النصوص الشعرية ومعرفة مواطن الجمال فيها ، وحين نقرأهم لا نجدهم يفرقون فى شىء عن عبد القاهر الجرجاني فى كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » إذ نراهم يحدسون همهم فى النص وعباراته يحللونها ويشرحونها ويفحصونها من جميع الوجوه الجمالية أو البلاغية ، يفحصون الترابط فيها بين اللفظ والمعنى كما يفحصون الأخيلة والأوزان ، متسائلين هل أدّى الشاعر المعنى الذى أراد والغاية التى قصد إليها ، ويحاسبونه فى ذلك حساباً عسيراً ، يحاسبونه فى كل لفظة وكل عبارة حساباً منحصرأ فى حدود قصيدته وحدود قالبها العضوى الذى تفرضه مادتها الحية ، غير ناظرين غالباً إلى شىء خارج هذه الحدود ، فهم قلما يفكرون فى صاحبها أو فى بيئته وواقعه الاجتماعى ومثله الدينية أو الأخلاقية أو السياسية ، وأيضاً هم قلما ينظرون فى صلتها بالتراث الأدبى السالف ومكانها منه وما أخذها صاحبها فيها عن أسلافه ، فكل ذلك قلما يعنّيهما إنما تعنيه القصيدة فى ذاتها ، إذ هى كائن أدبى له شخصيته وله تعبيره المستقل الذى يعبر عن تجربة فى الحياة بطريقته الخاصة ووسائله الجمالية المعينة .

وإذا تركنا هؤلاء النقاد إلى أصحاب المنهج التأثرى فى النقد وجدناهم ثائرين على وصل الشعر والأدب بصاحبهما وبالمجتمع والأخلاق ، إلا أنهم يحدسون فيثورون

أيضاً على وصله بالفلسفة الجمالية . إن الأدب ينبغى أن لا يوصل أو توصل نماذجه بأى قانون أو قاعدة ، وحسبنا أن نتأمل فى هذه النماذج ونفرغ لهذا التأمل ونصنّدر عنه فى تحليلنا لها وفيما نسوقه من أحكام ، لا نستلهم فيها سوى ذوقنا الأصيل وبصيرتنا النافذة وما شعرنا به وأحسنا فى أثناء قراءتنا لها . ليس المقياس إذن فى تقدير الآثار الأدبية أن نرجع إلى قواعد الأدب الموروث عن القدماء ولا إلى قواعد أصحاب الفلسفة الجمالية ولا إلى المواضع الاجتماعية أو الخلقية ، فتلك كلها أشياء تتبدل وتتغير من عصر إلى عصر ، وينبغى أن نبعدنا عن عقولنا حين نحكم على أثر أدبى ولا نُسبى إلا على شىء واحد هو قيمة تأثيره فى نفوسنا فتلك هى قيمته الحقيقية .

وهؤلاء التأثيريون يُعَدُّون فى الواقع ردّ فعل لطائفة من النقاد دعت دعوة قوية إلى أن يصبح النقد موضوعياً لا أثر فيه لشخصية الناقد ولا لآى إحساس له آخر أو معرفة أخرى ، فَيَرُضَى عن أثر ويسخط على أثر ، وفيهم الرضا والسخط ؟ إن عمله ينبغى أن يكون عملاً علمياً خالصاً ، وكما أن العالم الطبيعى حين يتحدث عن ظاهرة فى الطبيعة يقف عند وصفها ولا يتحدث إزاءها عن نفسه ولا يُصنّدر عليها أى حكم بإطراء أو إزراء كذلك ينبغى أن يكون على مثاله مَنْ يدرس الآثار الأدبية وينقدونها ، فمهمة الناقد يجب أن تقف عند الأثر الأدبى فى ذاته ولا تتجاوزه إلى بيان التأثير به .

وبين أصحاب هذه النزعة الموضوعية طائفة من النقاد تنقيد فى تقديرها للأثر الأدبى بالقواعد الموروثة ، وهى طائفة تستمسك بالماضى فى تقويم الآثار الأدبية العصرية ؛ فى رأيهم أن للأدب نظاماً كبيراً ، وله علاقاته ونسبه التى تتميز بها وحداته ، ولا بد أن تكون تلك العلاقات والنسب بارزة فى الأثر الأدبى الجديد واضحة فيه تمام الوضوح فإن فقدتها فقد قيمته الأدبية الصحيحة . ويبالغ بعض أصحاب هذه النزعة المحافظة عندنا فلا يقبلون إلا ما يتفق ونظام الأدب الموروث ، فإن شَدَّ الأديب عن هذا النظام حرموه التقدير المنصف الصحيح . ومثل هؤلاء المسرفين فى التقيد بأوضاع الأدب القديمة ينبغى أن لا نأخذ بأحكامهم لأن الأدب لا يعرف الجمود على تقاليد وسُنن بعينها ، وتاريخه يشهد بذلك إذ يتطور من جيل إلى جيل فتظهر فيه المذاهب والمدارس الجديدة ، ويظهر فيه الأفذاذ من الأدباء الذين يعدّون فى قوانينه القديمة ، وقد يصوغونها بأعمالهم صياغة جديدة . ولا يتأخّر بهم هذا

الصنيع، بل يصعد بهم في مراقى الأدب الرفيع، على نحو ما نجد عند شكسبير إذ خرج على قانون الوحدات الثلاث في مسرحياته :وحدة المكان والزمان والموضوع ، فكان ذلك من أهم أسباب مجده الأدبي . ومن أصحاب تلك الطريقة المحافظة من يتوسطون ويعتدلون ، فهم لا يحكمون الأصول الأدبية الموروثة إلا بمقدار ، ويتركون للأديب حريته ، مكتفين منه بأن تدخل آثاره في النظام الأدبي العام ، مبقين له على جميع الحقوق في أن يغير ويبدل في علاقاته مع هذا النظام ، بشرط أن يسود بين عمله وبينه ضرب واضح من الانسجام .

وكان من أثر ظهور النظريات الفلسفية الحديثة في هذا القرن أن ظهر مقياس جديد هو مقياس الالتزام في الأدب ، فالأدب ينبغي أن تكون له دعوة اجتماعية يلتزمها ، بل إن هذا هو واجبه الذي ينبغي أن لا يتخلى عنه ، حتى يصبح دعامة من دعائم المجتمع . وهل الأديب إلا جزء من مجتمعه فعليه أن يشترك في نشاطه وتوجيه وعيه عن صدق واقتناع ، حتى يثبت أنه جزء حي فيه ، يعمل على تقدمه إلى الإمام ، وإلا كان معولاً من معاول هدمه وعاملاً من عوامل انتقاضه . وليس بصحيح أن الأديب من حقه أن يعتزل الجماعة ، بل الواجب أن يجتهد لخدمة أغراضها ، وحرى بالجماعة التي يظهر فيها أديب معتزل أن تتنكر له ولأدبه ، فهو طفيلي فيها رجعي ينبغي أن يؤخذ على يده . وعلى هذا القياس لا يُعدُّ الأثر الأدبي جيداً إلا إذا هدف إلى ما يهدف إليه مجتمعه ، فإن انحرف عنه كان لغواً من الأدب وهذا . ويتصدى لهذا المقياس الاجتماعي نقاد ، يقولون إن الأدب تراث إنساني عام ، وينبغي أن لا تتحكم فيه النظريات الفلسفية الجديدة ، ولا ما يقدمه من خدمات اجتماعية ، وكما أن الأطباء لا يسألون من يعالجونهم عن آرائهم كذلك النقاد ينبغي أن لا يسألوا الأدباء في أدبهم عن دعوات خاصة ، إنما يسألونهم وقيسونهم بصحة أعمالهم الأدبية وجودتها في ذاتها كما يسأل الأطباء مرضاهم وقيسونهم بصحتهم الجسدية ، وما قيمة الشعر إلا قيمة إنسانية ، وكذلك كل فروع الأدب ، فالآثار الأدبية كغيرها من ضروب التناج الفنى تسد حاجة إنسانية تتعلق بالنفس وأجاسيسها ومشاعرها . على أن مثل هذا القول ينبغي أن لا يتحول بالناقد إلى ضرب من الرجعية يقاوم من خلاله التيارات الاجتماعية ، فالأدب

أراد أصحاب هذا القول أو لم يريدوا إنما هو صورة لمجتمعهم ، وكما يلبي حاجات إنسانية عامة يلبي حاجات مجتمعهم الخاص . ومن الخطأ أن نتحدث بحجة الإنسانية والدعوة إلى مثالية صبارمة صدعاً بينه وبين المجتمع ، ونزعم أنه يرتفع عن الواقع الاجتماعي وكل ما يتصل بهذا الواقع من مواقف وتبعات اجتماعية محددة . إن الأديب ليس كائناً شاذاً يعتزل مجتمعهم ويعيش لنفسه معيشة حاملة ينفصل فيها عن الناس ومشاكلهم وما يخوضون فيه من شؤونهم ، بل هو كائن اجتماعي ، يختلط بمجتمعهم ويمتزج به ويصدر عن وعيه الكامل به صدوراً طبيعياً كما يصدر الضوء عن الشمس ، ولولا ذلك ما حاول منذ القدم أن يتصل بالناس ويقدم إليهم ما قد يعجزون عن التعبير عنه مما ينفس عن عواطفهم ومواقفهم ويجلب لهم شعوراً بالسعادة أو بالطمأنينة أو بالراحة خلال كفاحهم في معيشتهم ، ومن أجل ذلك كانوا يقبلون عليه ، لما يصور لهم من علاقتهم بالحياة . وليس معنى ذلك أنه يخلو من روح إنسانية عامة ، وإنما معناه أن هذه الروح لا تجعل له عالماً مستقلاً بذاته ، ينفصل فيه عن أمته وما لها عليه من تبعات ومسؤوليات ومن هنا جاءت مقاييسه المعاصرة بالتزام مذاهب اجتماعية معينة . وكل هذا مصدره أن الأدب ينبغي أن يكون متوافقاً أو متناسقاً مع الجماعة التي يخاطبها ، وهو ما حدث فيه دائماً عن شعور الأديب أولاً شعوره ، لسبب بسيط وهو أنه لا يصنع أدبه لنفسه ، وإنما يصنعه للجماعة . وهو لهذا ينبغي أن يلتزم بما تلتزم به الجماعة ، بحيث يكون أدبه متكافلاً مع مصالحها ومواقفها لا أدباً سليباً يتصل من واقعها وأوضاعها ، فإنه لا يكتب في فراغ ولا في خضم من العدم ، ومن ثم كان عليه أن يلتزم بقضايا قومه ويصدر عنها في كتاباته . على أن هذه القضايا وما يتصل بها من قياس الأدب بالحاجات والدعوات الاجتماعية لا تنتظم تفسيراً عاماً لكل قيمه ، إذ يوجد وراءها قيمه الجمالية والفنية الموروثة ، كما توجد وراءها قيم نفسية عامة ، تحيط بآثاره في القديم والحديث .

ومردُّ هذه القيم النفسية إلى أن الإنسان اتخذ الأدب منذ وجد ليعبر به عن تجربته الشعورية ، وهي تجربة تتجمع فيها أحاسيس لا تحصى ، بعضها يتصل بحاضره ، وبعضها يتصل بماضيه منذ عصر الطفولة المبكر ، وبعض ثالث

يتصل بظروفه ، فكل ما مر به من أحداث يختزنه في خلايا ذاكرته حتى يعيده إلينا في تجربته الأدبية . وتعمق هذه الأحداث مشاعره ، كما تُعمق مياه النهر مجراه ، فإذا به يحسها إحساساً في صميمه ، إحساساً لا يلبث أن يندفع في شكل شعر أو غير شعر . ولكن لا تظن أن هذا الشكل الأدبي الخاص الذي يتخذه لتعبيره شكل بسيط لم يُعان في عمله ، فهو ثمرة جهد في الأداء وجهد أوسع في تنظيم الأحاسيس والمشاعر ، جهد لا بد له من قدرة بارعة في استدعاء الدوافع والعواطف الماضية ، ولا بد له من بصيرة نافذة لكي ينفذ صاحبه إلى أعماق النفس الإنسانية فيستخلص منها تجربته الأدبية .

وهنا نلتقي بدراسات النفسين المحدثين في هذا القرن وما أثاروه من أبحاث — على اختلاف مدارسهم — في الأدب والأدباء ، فقد أخذوا يحللون النماذج الأدبية على أساس أنها تجارب بشرية ، وتغلغلوا في محيط اللاشعور وأغواره الغامضة التي تستبقي فيما يشبه السجلات ذكريات الطفولة وذكريات أقدم منها ، ذكريات عريقة في الحياة الإنسانية هي ذكريات الموروثات الشعبية منذ عصور المجتمعات الأولى ، مجتمعات القبيلة ، وهي ذكريات تختلط بها نزعات مكبوتة جنسية وغير جنسية . ومن كل هذه النزعات والذكريات يصدر الأدباء في أدبهم ، وقد أتاحوا لها ضرباً من التنظيم ، يجعلها تؤثر فينا تأثيراً عميقاً ، إذ تنطلق في داخلنا نفس الذكريات والنزعات ، ولا تلبث أن تنسج في الصورة التي أخرج بها الأديب أثره ، فننفع ونعجب . وبمقدار تنسيقه لها وتنظيمه تكون جودة عمله ، فإن كان التنظيم ناقصاً أو مبتوراً كان تأثيره فينا كذلك ، وكان عمله رديئاً .

والأديب بهذا المقياس النفسي شخص واسع الخيال شديد الحساسية ، يستجيب أوسع استجابة لمؤثرات خارجية وأخرى داخلية مما استبقاه في نفسه وورثه عن أسلافه ، وهي استجابة تأخذ شكل أحاسيس ومشاعر لا يزال يلازم بينها مستمماً لعلاقاتها من جهة ولعناصرها من جهة ثانية حتى تأخذ الشكل الخاص في أثره الأدبي . وليس من الضروري أن يكون واسع التجربة أو قوى الذاكرة ، لكي ينجح في عمله ، فقد يكون غيره أكثر تجربة منه وأقوى ذاكرة ولكنه لا يستطيع أن يبرز ما في نفسه على مثاله ، لأن المسألة ليست مسألة قوة ذاكرة ولا كثرة تجارب وإنما مسألة براعة خاصة في تمثيل تجربة بعينها والتأليف بين عناصرها النفسية المتشابكة تأليفاً

دقيقاً يسوده التنظيم المحكم والربط المتقن بين تلك العناصر مهما تباعدت ، ومهما صغرت . ويدلُّ على ما يحدثه الأديب من ربط بين عناصره براعته في التشبيهات والاستعارات الجديدة التي لم يسبقه إليها أحد ، فإنه هو وحده الذي يعرف ما بين المشبه والمشبه به من علاقات لم يكن يدركها أحد قبله . وطبيعي أن الإنسان العادي لا يدركها ، أما هو فإنه يدركها بسبب تلك البراعة التي أوتيها في تنظيم العناصر النفسية التي يؤلف منها عمله الأدبي وإحداث العلاقات والروابط بينها ، بحيث تغدو كلاً أو عملاً كاملاً تاماً . ويأتي دور الناقد ، فيبحث فيه الأديب بأثره الأدبي صورة عمله بكل ما يجري فيه من أحاسيس ومشاعر ودوافع وعواطف مكتوبة أو موروثة ، وسرعان ما يُعيد في داخله تنظيمها على الصورة التي وضع الأديب فيها أثره ، وبمقدار هذا التنظيم وما فيه من غنى وخصب يكون تقدير الناقد للأثر الأدبي . ولا ريب في أن الأثر القيم إنما يصور تجربة فذة أو قل معقدة وإلا فلا يُعد أثراً قيماً ، ولننظر في حياتنا العادية فإننا إذا مشينا في طريق ممهد مشينا فيه بدون تفكير أو انفعال ، ولكن إذا مشينا في طريق غير ممهد مليء بالوهاد فإننا نفكر وقد ننفل حين نسقط في وهدة ، فإذا صعدنا في جبل تحفُّه هاوية كان تفكيرنا وانفعالنا أكثر تعقيداً . والتجربة الأدبية لا تعرف الطريق الأول ، وإنما تعرف الطريقين الثاني والثالث بل إن التجربة الحقة لا تعرف سوى الطريق الثالث الذي ترحف على مشاعرنا وعقولنا فيه دوافع شتى . بل إنها أكثر تعقيداً أو أكثر غنى لما تطلقه فينا من موجات شعورية وعقلية لا حصر لها ، بعضها يتصل بالحاضر ، وبعضها يتصل بالماضي القريب ، ماضى الطفولة ، وبعض ثالث يتصل بالماضي البعيد ، ماضى الأجداد والأسلاف الأولين . فكل ذلك ينبعث فينا مع التجربة الأدبية ، أو تنبعث أطراف منه وتلتقي مع الموجات الشعورية والعقلية عند الأديب ، ولا تلبث أن تأخذ نفس النظام ونفس الوضع ، فإذا هي قد تآلفت تآلفاً ، وإذا نحن نستجيب إليها . وبمقدار هذه الاستجابة وما أحدثت فينا من تنظيم لنشاطنا الخيالي والنفسى تكون قيمتها الأدبية .

ولا يقف النفسيون عند دراسة القيمة النفسية العامة للأثر الأدبي ، فقد اتجهوا منذ أخرج « فرويد » كتابه « تفسير الأحلام » إلى دراسة الأدباء والفنانين على أساس

أن عملهم سجل للاشعور ، وأنه تعبير متسام عن نزعة جسدية منهومة أو نزعات مكبوتة يغلب عليها الشذوذ . وكأن الأديب أو الفنان حين يصيبه في الطفولة حادث أو يلُمُّ به حلم يعود إلى التنفيس عنه بأدبه أو فنه . ونرى فرويد يدرس «ليوناردو دافنشي» الرسام الإيطالي المشهور وفنّه على هذا الأساس ، وقد رجع إلى مذكرات وكتابات مختلفة له كما رجع إلى ما كُتب عنه وإلى رسومه الناقصة ، وحاول أن يعيّن الدوافع اللاشعورية التي كُبتت في نفسه منذ عهد الطفولة ، ولم يستطع تحقيقها لمخالفتها للنظم الاجتماعية ، فظلت عاملة في لاشعوره . وقد ردها إلى حبه العميق لأمه ، الذي عمل في سلوكه وكان له أكبر الأثر في فنه . ويدخل في هذه العلاقة بين الابن والأم غيرته عليها من أبيه ، وهي علاقة تؤدي إلى عقدة أوديبية كعقدة أوديب اليوناني الذي قتل أباه . وفسر بعض النفسيين على ضوء هذه العقدة مسرحية «هملت» لشكسبير وأن ما عاناه هملت فيها من صراعات نفسية مدمرة إنما هو صورة مقنّعة لحب صبي لأمه وما أثمره هذا الحب من بغض لعمّه وغيره شديدة منه لمزاحمته له في هذا الحب . وعلى هدى آراء فرويد في مرحلة الطفولة وتأثيرها في أعمال الفنانين تكاثرت أبحاث النفسيين التي تحاول تفسير الأدباء على أساس بواطن لا شعورهم وما حدث لهم في صباهم متحدثين عن الكبت الجنسي والتسامي والمغالاة في التعويض ، ورفندهم «أدلر» بنظريته في مركب النقص .

ونقل «يونج» البحث في اللاشعور من الفرد إلى المجتمع ومن الأيوين إلى القبيلة فلم يقف باللاشعور عند نطاق الأفراد وما يحلمون به من ذكريات ، بل مدّه إلى نطاق الجماعات وما تحلم به من ذكريات ، هي الأساطير . وقد ذهب إلى أنه يوجد في الأديب والإنسان عامة ضربان من اللاشعور : ضرب فردي ، هو الذي وقف عنده فرويد ، وضرب جماعي ، وهو الأهم ، انحدر إلينا من أسلافنا الأولين عابراً نفوس الآباء والأجداد ، وهو الذي يعقد الصلة بيننا وبين أساطيرهم كما يعقد الصلة بين الأدباء وبين هذه الأساطير ، فيتخذونها موضوعاً لبعض آثارهم أو أعمالهم . وهذا اللاشعور الجماعي الذي يشترك فيه الناس جميعاً هو الذي تنبع منه الأعمال الأدبية الرائعة . وكأن يونج وتلاميذه لا يقدرّون الأعمال الأدبية التي تصور العواطف والمجتمعات الحاضرة ، إنما يقدرّون الأعمال الأدبية الخيالية التي تلتقي بما

خلفه القدماء من أساطير يترأى فيها خيال الجماعة الإنسانية الكبيرة، فهذا الخيال - في رأيهم - أكثر غنى وحيوية وخصباً من خيال الفرد .

وبكل ما كتبه هؤلاء النفسيون يستضيء كثير من النقاد المعاصرين في تحليلهم للأدباء ونماذجهم الأدبية، ويبالغ بعضهم في ذلك حتى ليتحول تحليله إلى صورة استبطانات ذاتية واسعة، وهي استبطانات طريفة إلا أن لها عيباً، وهو أنها لا تصلح للتكرار في نقد النماذج الأدبية وتحليلها، إذ تُردُّ في مجموعها إلى آراء وعقد عامة كعقدة الرجسية أو عقدة أوديب، وهي آراء وعقد يمكن تطبيقها على أكثر الأدباء وأكثر آثارهم، فإذا أعيدت - وهي تعاد فعلاً - كانت تكراراً مملاً. وأيضاً فإن الناقد النفسى يُقبل على دراسة الأديب وآثاره وقد استقرت هذه الآراء في نفسه، مبتغياً التطبيق، وكثيراً ما يفضل ذلك، لسبب بسيط، وهو أنه يحكم قبل أن يدرس ويفحص، ويضع النتيجة قبل أن يتخذ لها المقدمات السليمة. وخير من التغلغل وراء العقد وفي باطن اللاشعور الفردى والجماعى وإثبات أن الأديب يعانى أزمة نفسية أو مرضاً جنسياً شاذاً يعوّضه بأدبه ويمثّل في عمله أن يعرفنا الناقد النفسى الأسباب النفسية التى تجعله يرضى عن أثر أدبى ويسخط على أثر آخر، وأن يصور مبلغ التأثير العميق الذى يؤثر به عمل أدبى رائع في نفوس من يقرءونه والتأثير الباهت الذى يؤثر به عمل أدبى ردىء.

إن الأدب والفن جميعاً ليسا حصيلة نفوس شاذة. وإنما هما حصيلة نفوس ممتازة، ولا نقصد الامتياز الخلقى، وإنما نقصد امتياز البصيرة التى يستطيع صاحبها أن يمثّل سلوكنا النفسى فى الحياة، بما يقدم من تجارب تصور علاقتنا بالكون الخارجى وعلاقتنا بعالم النفس الداخلى وما فيه من عواطف وأهواء ونزعات ذات أساس راسخ فى كياناتنا. والأدباء يختلفون فى تصوير ذلك، منهم من ينفذ إلى أعماق الأعماق فى حياتنا الإنسانية، فلا نقرؤه حتى يهزنا هزاً قوياً، ومنهم من يظل عند السطح، لا يتعمق ولا يتغلغل، وهم أوساط الأدباء الذين نفتقد عندهم التجربة الأدبية الكاملة، وكما لها إنما ينبع من الدوافع النفسية التى لا تثيرها فحسب بل أيضاً تنظمها تنظيماً نشعر إزاءه بارتياح بالغ.

ويستطيع النفسيون كلما تعمقوا فى بحث هذا الجانب أن يوسعوا من دراساتهم

النفسية في الأدب وآثاره ، فإنهم حينئذ لا يرددون كلاماً واحداً ، وإنما ينوعون ما يقولونه بتنوع الآثار الأدبية وتنوع ما تنقله لنا من التجارب النفسية . فكل أثر أدبي إنما هو تجربة مستقلة قائمة بذاتها ، لها ما تبعثه فينا من دوافع نفسية ، ولها طريقها في عرض هذه الدوافع وتنسيقها بما تبرز فيه من علاقات وروابط لم تكن واضحة لنا ، ولها أصدائها في تبصيرنا بالحياة الإنسانية ، وقد يظل أثرها فينا طويلاً لا ننساه . وأهمية الناقد النفسى في رأينا أن يكشف عن كل هذه الجوانب ، وأن يصور لماذا كان أثر بعينه خالداً وأثر آخر لم تبق منه إلا ظلال أو بعبارة أخرى لماذا يكون أثر أدبي جيداً وآخر رديئاً لا يبقى على الزمان ، وأن يحاول جاهداً تمييز الآثار الأدبية الجيدة بعضها من بعض ، وأن يدل على درجة الجودة في كل أثر من هذه الآثار .

وما دمتنا نتحدث عن المناهج المختلفة في تحليل الأدب وتقويمه فلا بد أن نقف عند منهج لا يعتمد إلى الدراسة العامة في الأدب والأدباء ، وإنما يقف عند شرح الشعر وتفسيره وبيان معاني ألفاظه ودلالاتها . وعمل هؤلاء الشارحين — من قديم — لا يعدو الوقوف عند جوانب ثلاثة هي المعانى اللغوية والمجازية والباطنة الخفية ، أما اللغوية فهي المعانى الواضحة البسيطة ، وأما المجازية فهي التى يقوم على دراستها علم البيان ، وأما الباطنة الخفية فتحاول أن تثبت أن وراء الدلالات اللفظية السطحية دلالات عميقة ، فبجانب المعنى الظاهر الواضح معنى باطن بعيد . وقد عرفت هذه الشروح الثلاثة عندنا من قديم ، وهى تتضح في تفسير القرآن الكريم ، فقد وجدت فيه الصور الثلاث ، أما الأولى اللغوية فصورة التفسير بالمأثور التى لا تخرج عن المعنى الظاهر المكشوف ، وأما الثانية المجازية فقد شاعت في بيئة المعتزلة الذين نشطوا في تأويلات آى الذكر الحكيم تأويلات مجازية ، تتفق وآراءهم في حرية الإرادة وغير حرية الإرادة . وأما الثالثة الباطنة فقد شاعت في بيئى المتصوفة والشيعة ، إذ يجعلون للآيات معنى باطناً عميقاً ترمز إليه . وتلقانا هذه الصور الثلاث ماثلة في شروح الشعر ، أما شعر المديح والهجاء فيتجلى فيه التفسير أو الشرح اللغوى والمجازى ، ويتجلى الشرح الباطنى في الشعر الصوفى والشيعى . وحتى الضرب السابق من الشعر ضرب المديح والهجاء إن اتصل شاعره بإحدى البيئتين : الصوفية والشيعة كان من الضروري لفهمه أن يُشرَحَ فيه اللفظ الذى يقصده الشاعر على نحو ما نجد

في بعض شعر المتنبي وابن هاني الأندلسي .

ولا يزال شرح الشعر قائماً في عصرنا ، بل لقد زادت الحاجة إليه لظهور مذهب الرمزية والسريالية ولكثرة ما فيهما من معانٍ مستغلقة . وهناك من يعمدون إلى نقل الشعر الذي ينقدونه إلى نثر ، وكأنما يؤدون ملخصات للقصائد التي ينقدونها . وقد شاع ذلك عندنا حديثاً ، وخاصة إزاء بعض النصوص القديمة ، وهو صنيع أشبه ما يكون بالترجمة لا من لغة إلى لغة ، وإنما في اللغة نفسها . وهو قد يؤدي حاجة في تعليم الناشئة ولأوساط المثقفين ولكنه لا يؤدي نقداً وتقويماً .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت لنا المناهج المختلفة في تفسير الشعر وتحليله وتقويمه ، وما نشك في أن من واجب الناقد الحديث أن يفيد من هذه الطرق جميعاً في نقده ، فإذا كان بصدد الحكم على أثر شعري لا بد له أن يفهمه ويفسره أولاً ثم يأخذ في تحليله مهتدياً بأضواء المعرفة الحديثة وما كتبه النقاد قبله سواء من قد رآوا الشعر تقديراً اجتماعياً أو جمالياً أو نفسياً .

ونحن لا نشك في أن نقد الآثار الأدبية شيء صعب ، لأنه لا يعتمد في جوهره على قواعد مقررة ثابتة ، ولأنه يحتاج إلى ذكاء ومهارة في العرض ، فلا يكفي أن يكون الإنسان دارساً لنظريات النقد الحديثة ومناهجه ، بل لا بد أيضاً أن يكون من دقة الذوق وجمال الأداء بحيث يصوغ نقده صياغة تروق القارئ . ونخذ مثلاً تجربة كيمائية يعرضها علماء مختلفون فإن كل عالم كيمائي يعرضها بنفس الطريقة ، إذ يسجل نفس الظواهر ونفس النتائج . وهذا مالا يحدث في النقد ، فلكل ناقد عرضة ولكل ناقد ذوقه وطريقته في الأداء . ويتفاوت النقاد في ذلك حسب قدرتهم الأدبية ومهارتهم وحساسيتهم ووعيتهم بما يتطلبه الموضوع منهم وعياً يجعلهم ينوعون في طرقهم كلما ألموا بأثر أدبي .

وما أظن صفة ينبغي أن يتحلى بها الناقد تبلغ صفة العدالة في وزنها وقيمتها ، إنه حَكَمٌ أمين فينبغي أن يضع في يده موازين عادلة رشيدة لا تميل مع أي هوى ولا أي تعصب . ومن أجل ذلك كان حرياً به أن لا ينقد أثراً أدبياً لا يتفق ومثله في الحياة حتى لا يجور عليه في حكمه وتقديره . والناقد الحق لا يرفع شيئاً فوق قيمته ولا ينزل شيئاً دون قيمته . وإنما يحقُّ الحق للصديق وغير الصديق فلا يثنى إلا في مكان الثناء ولا يُزرى إلا في مكان الإزراء . وتلك مسئولية عليه أن يتحمل تبعاتها وينهض بها في غير تقصير .

تصوير الشخصيات الأدبية

قد يظن بعض الناس أن تصوير الشخصيات الأدبية عمل سهل بحيث يستطيع مَنْ قرأ آثار أديب وشيئاً عن حياته أن يرسم صورة جيدة واضحة له ، وليس هذا الظن بصحيح ، فإن تصوير الأدباء من أصعب الأشياء ، إذ لا بد لمن يصورهم أن يرسم ملامحهم الأدبية رسماً بيئياً بالضبط كما يرسم الرسامون الوجوه بقسماتها وكل ما يميزها .

ومعروف أن الرسام يأخذ وقتاً طويلاً في عمله ، مع أن عمله لا يقاس إلى عمل مَنْ يرسمون الشخصيات الأدبية ، لسبب بسيط وهو أنه يغلب عليه أن يرسم شخصيات سطحية في المجتمع من سيدات وعذارى ورجال عاديين ، أما مصور الشخصيات الأدبية فإنه يرسم أفذاذاً من النابغين الذين أثروا في آداب أقوامهم ، وربما أثروا في الآداب العالمية ، ولا بد أن يعبر رسمه عن أسباب نبوغهم وتنطق ملامحهم بأفكارهم وعواطفهم ومشاعرهم .

والرسام يتناول ريشته وينظر في الوجه المائل أمامه ، ثم ينقله إلى لوحته بخصائصه وطابعه ، فمواد عمله جاهزة لا يبحث عن شيء منها ، أما مصور الشخصيات الأدبية فمواد عمله كلها تكاد تكون غائبة ، وعليه أن يبحث عنها ، عليه أن يبحث عن صندوق الألوان الذي يغمس فيه قلمه ، وهي ألوان ليس من السهل جمعها ، لأن مصادرها متعددة ، منها الداخلي الذي يجمعه من حياة الأديب ومن آثاره ، ومنها الخارجي الذي يجمعه من بيئته وعصره . ومنها ما يجلبه من خياله هو وإحساسه ، إذ ينبغي أن يكون هو الآخر فناناً ، أوتي حسنة تسعفه على استكمال الملامح الدالة على الأديب ، مما لا تمده به آثاره ولا تاريخ حياته .

إن مواد عمله كلها معنوية ، ولا بد أن يكون قد أوتي الملاحظة الدقيقة ، حتى يستطيع أن يجمع كل العناصر والتفاصيل التي يرسم منها الشخصية المعنوية للأديب وهو يبدأ بيئته وزمانه ، ولكن لا تظن أن هذا شيء سهل أو قريب التناول ، فإن مصور الأديب يلتقي فيه بشيء معقد : بحياة إنسانية اشترك فيها كثير من الناس ، وإن لم يصل بين هذه الحياة وبين الأديب كان مثله مثل الفلكي الذي

يتكلم عن الجبال والأنهار والسهول والغابات دون الوصل بينها وبين الكائنات الحية التي تضطرب فيها . ولا بد من الاعتراف بأن مكاناً محدوداً وزمناً محدوداً يموجان بعلاقات لا حصر لها ، وهي لا تتضح في نفس المصور للأديب إلا إذا ائتلف في ذهنه نظامٌ دقيق لجنسه وعصره ومكانه وظروفه الاجتماعية بحيث يستبين له نوعٌ بعينه من أنواع الحضارة وهيئة بعينها من الهيئات الاجتماعية يردُّ إليهما بعض القوى التي أثرت في الأديب ودفعته في اتجاه دون اتجاه آخر .

والأدباء يختلفون ، منهم من يكادون ينفصلون عن الوسط المكاني والزمني الذي يعيشون فيه ، وكأن أزمة خطيرة قامت بينهم وبين وسطهم ، ولا بد أن توضح هذه الأزمة ، حتى نعرف كيف تخلصوا من وشائج الوسط وروابطه وكيف نزعوا أنفسهم منه . ومن الأدباء من يتصلون بوسطهم أدق اتصال حتى لكأن آثارهم تعكس بيئتهم والفصول التي تأتلف منها عكساً دقيقاً . وقد يبدأ الأديب متأثراً بوسطه ، ثم يتضاءل فيه هذا التأثير كلما تقدم في سنه ، فهو يبدأ مفعماً بما كانت تحمل إليه حواسه منه ، ثم يقل ذلك في نفسه مع الزمن ، إذ يغلب عليه الاستمداد من داخله ومن عقله وتأملاته .

وتأتي بعد دراسة الزمان والبيئة الاجتماعية في الأديب دراسته في أسرته : أبويه وإخوته ، فقد تنكشف عن هذه الدراسة خطوط أساسية في شخصيته . وحذا لو اتسعت معرفتنا بأمة وبالظروف المادية والمعنوية التي أحاطت بحملته ورضاعته حتى نعرف جانباً من المؤثرات البدنية والنفسية التي تأثر بها في أثناء نشأته الأولى .

وننتقل بعد ذلك معه في دورة الصبا ، ونحاول أن نعرف تربيته وظروفه الاقتصادية ومن كان يعاشرهم من المواطنين حينما استيقظت في نفسه مواهبه . ونتعقبه في شبابه لنراه في ألعابه الرياضية إن زاول بعضاً منها وفي معاصريه وأصدقائه ومن كان يألفهم ، وهل تصادف أن تعاون مع جماعة من الشباب في بعض المشروعات ، وأهمُّ من ذلك أن يكون قد تعاون معهم في دراسة الأدب ، وكأنهم وُجدوا جميعاً للهوض بعمل واحد . وخير مثال لذلك عندنا عبد الرحمن شكري وإبراهيم المازني وعباس العقاد ، فقد كانوا في شبابهم خلية نشيطة من خلايا حياتنا الأدبية في

أوائل القرن ، بل لعلها أعظم خلية تكونت عندنا ، إذ اتحد أفرادها في الاتجاه الأدبي ، فإذا هم يُكَبِّون معاً على الشعر والنقد الإنجليزيين والآداب الغربية المختلفة فيقرأون دواوين واحدة وكتباً واحدة ، ويحسُّون وطنهم ونكبتهم بالاحتلال الإنجليزي حينذاك إحساساً واضحاً . وهياًهم ذلك لأن يصدروا في شعرهم عن نزعة واحدة ، برغم اختلافهم في المواهب وطبيعة الاستعداد . وإن تصويراً لأحدهم لا يثبت فيه هذا الخط القوي في حياته يكون تصويراً ناقصاً ، بل يكون تصويراً مشوهاً ، لأنه ينقص جانباً مهماً من جوانب حياته الأدبية .

وكل هذه مؤثرات خارجية تؤثر في الأديب وأدبه آثاراً بالغة ، ولكن هل نصل بذلك كله إلى معرفته ؟ إن الغاية لا تزال بعيدة ، لأننا حتى الآن لم نتحدث عنه هو وعن المؤثرات الذاتية التي عملت في تكوينه ، فلا بد أن نعرف آراءه في السياسة والدين والمعتقدات ، ولا بد أن نعرف تقديره للمادة والمال ، ولا بد أن نعرف ما مر به من حوادث ، ونعرف خلقه . ومن الأدباء من تكون لهم أخلاق رديئة ، ولكنهم يتخلصون منها في كتاباتهم ، فإذا هم مثاليون ، وكأنهم يؤمنون بأن من واجبه أن لا يصوروا سوى الصور الجميلة وأن من " يُصوِّر هذه الصور لا يشترط فيه أن يستمد من نفسه . والوقوف على ذلك ينفعنا في معرفة حقيقة هذا المصور وأنه غير صادق في صوره وأن حرباً كانت ناشبة بين أدبه ونفسه وخلقته . وفرق بعيد بين من يكون طاهراً عفيفاً وينشد الكمال في شعره وبين من ينشد هذا الكمال وهو منغمس في حمأة الشهوة والرذيلة .

وحقاً من أهم ما ينبغي لمصور الشخصية الأدبية أن يقف عند مواضع الضعف والنقص فيها ، فإن الأدباء بشرٌ يعيشون بنفس النقائص التي يعيش بها كثير من الناس . هم ليسوا قديسين ولا ملائكة ، إنما هم أناس يعيشون بنفس الرغبات والدوافع التي يعيش بها من حولهم ، فلا بد أن توضَّح دوافعهم ونزواتهم ، وإلا فقد تصوير الشخصية الأدبية الحيوية والحياة ، فغدا الأديب كأنه دمية جامدة صلبة لا تنفذ فيه سهام الضعف الإنساني .

وهذا الضعف لا ينقص شيئاً منه ومن أدبه ، بل يجعله إنساناً ، يتقلب في فضائل ونقائص أو يتقلب بين عوامل قوة وعوامل ضعف ، وأي شخص لا يتقلب

فى الطرفىن المتناقضىن . إى البطل فى مىدان القتال قد يكون ضعيفاً أمام زوجته ، وىكون أكثر ضعفاً حىن ىخلع له طىىب ضرساً من أضراسه ، ولا ىغض ذلك من بطولته ، إى الإنسان لا ىستطىع أن ىكون بطلاً دائماً فى كل جوانب الحىاة . ولكى تم لنا صورة البطل أو الأدىب لا بد أن نعرف موطن الضعف والنقص فىه كما نعرف موطن القوة والكمال . وكثيراً ما ىكون هذا الضعف والنقص ردّاً فعل للقوة والكمال الفائضىن فى نفسه ، وكم ىكون تصوىىر أبى نواس ناقصاً بل معوجاً مشوهاً إى نحن لم نذكر إثمه ومجونه .

إى أذى الأدىب ثمرة لشجرة كبرى تضرب ىجذروها فى الحىاة الإنسانىة ، ولا ىكفى أن نشىر لما فى الثمرة من حلالة ، بل لا بد أن نشىر أيضاً لما فىها من مرارة ، بل قد تكون المرارة فى بعض الثمار أكثر دلالة عىلها من الحلالة .

ولىس معنى ذلك أن نعالى فى بىان موطن الضعف عند الأدىب ، حتى ىتحول بنا ذلك إلى حملة عنيفة عىله ، فنصىب وهمناً أن ننال منه ونخط من عمله وقدره فإننا إى فعلنا ذلك كنا أكثر إفساداً لصورته ممن ىوقرونها وىرفعونها عن السىات . فلىس الغرض من ذكر النقائص فى الأدىب أن نشوه سىرته وأن ننزله من مكانته التى ىترىع عىلها فى رأى موطنىه ، ولىس الغرض أيضاً أن نثبت أننا رجال أخلاق ندعو إلى الفضىلة فإن ذلك ىخرج بمصور الشخسىة الأدىبة عن القصد ، وىجعله ىجور فى الحكم حتى لىصىب مثله مثل الرىاضى الذى ىحكم على المثلث المتساوى الأضلاع بأنه أخلاقى والمثلث المتساوى الضلعىن بأنه غىر أخلاقى . إىما نعرف أخلاقه ونزعاته وموطن الضعف عنده ، لتهدىنا فى تحلىل أذىه ، لا لنتخذها مقىاساً للحكم على قىمة عمله .

ومن هذه الناحىة ىنبغى أن ىكون مصور الشخسىة الأدىبة موضوعياً إلى أقصى حد ، حتى لا ىسقط خىط من خىوط التعصب إلى أحكامه . إى كل ما ىطُلب منه أن ىعبر تعبىراً دقىقاً عن العلاقة بىن آثار أذىبة معىنة وىىن أذىب صَنَعها ، له حىاته العامة والخاصة فى وسط تكوّن فىه . ومهمته أن ىرىنا هذه الحىاة فى أضواء قوىة تكشف عن انسجامها الكلى مع تلك الآثار ، بالرغم مما فىها من نشاز ، بل إى النشاز أحياناً ىكملها وىؤلف خصائصها ، فهو نشاز فى الظاهر ، أما فى الحقىقة

فهو جزء منها مكمل لها ولنغمها وألحانها المختلفة .

إنه يكتب حياة نفس ، ولا بد أن يصور هذه الحياة بتفاصيلها ، وأن يظهر في تصويره أنه غير متعصب على صاحبها ولا متحيز له . فالتحيز كالتعصب يضع على العين غشاوة ، وهو لا يقل عنه إفساداً لصورة الأديب وتشويهاً . إن الأديب إنسان من لحم ودم ومن غرائز ودوافع بشرية متناقضة ، فمن الخطأ أن نعلوبه في حياته عن الناس أو نسقط به عنهم ، وحقاً نبوغه ضرب من التفوق العقلي عليهم ، لكنه ضرب لا يتجاوز به حدود حياتهم . فإن نحن فصلناه عن هذه الحدود لم يكن له في هذا أى فخر ، لأنه فخر لم تقدمه يده .

ليست غاية من يصور الشخصية الأدبية إذن أن يتجنس عليها أو أن يسوى منها مثلاً أعلى للفضيلة والمزايا البشرية ، ليست غايته أن يشوه أو يحسن ، أو بعبارة أخرى ليست غايته أن يضع عليها أكداً من تراب ولا أن يزيل عنها كل غبار . إنما غايته وهدفه أن يؤلفها كما هي في حقيقتها وفي جوهرها : جوهر الحياة بسموه ودنوه أو بحسناته وسيئاته . ولا تدل الحسنات على الأديب بأكثر مما تدل السيئات ، بل لعل دلالة السيئات أكثر عمقاً ، لأنها تكشف عن دخائله وطوايا نفسه .

وينبغي لمن يصور الأديب أن لا يحشد في تصويره له سيئاته ونقائصه فحسب ، بل يحاول أن يعرف أسبابها وآثارها في عمله وما أحدثت فيه من عقدة نفسية مختلفة . وقد تقدمت الأبحاث النفسية في عصرنا تقدماً واسعاً ، وجرى أن نفيد منها في دراساتنا الأدبية ، وأن نرجع إليها لنستضيء في تفسير جوانب الشخصية الفنية ، حتى نجلو بعض الجوانب الغامضة في نفس الأديب وحياته ونكشف عما عاناه من أزمات نفسية داخلية عميقة .

ومعنى ذلك أنه ينبغي لمصور الشخصية الأدبية أن يفيد من أبحاث علم النفس الحديثة ومن عقد مركب النقص والرجسية وغير الرجسية التي يذكرونها ، وخاصة إذا كانت تلك الشخصية شاذة في السلوك تنحرف عن الطريق المستقيم . وعلى العموم ينبغي أن يعيش مع الأديب في غدوه ورواحه وفي صباحه ومساءله ، حتى يصبح كأنه رفيق له ، يطلع على الكبير والصغير من شئونه اليومية والشخصية ، كي يستطيع أن يسوى منه إنساناً تام الحلقة والتكوين . وينبغي أن يعرف علاقته

بزوجته وأولاده وأصدقائه وما كان يجرى بينه وبينهم ، وهل كان سعيداً في زواجه أو كان شقياً منكوباً ، وهل كان سليم البنية أو كان معتلاً مريضاً ، وهل كان جميل الحلقة أو كان قبيحاً ، وهل فقد حاسة من حواسه كحاسة النظر التي تشوب علاقته مع المرأة ومع الطبيعة والواقع بشوائب لا يعرفها المبصرون . ولا يترك شيئاً تافهاً إلا وقف عنده وسجله تسجيلاً أميناً .

والمعاصرون هم الذين نستطيع أن نطلع على حياتهم بجميع صغائرها ودقائقها إذ تغمرهم أضواء تكشفهم لمن يكتب عنهم كشفاً تاماً وخاصة إذا كان من أصدقائهم ، أما القدماء فإن حياتهم غابت عنا ، ومهما جهد من يصورهم فإن صورهم تظل ناقصة ، لأنه لا يملك الوسائل الكافية كي يستبين حياتهم ، وخاصة إذا أوغلوا في القدم ، ولم تُعْطِ المصادر المعلومات الكاملة عنهم . ومن ثم كان لا بد أن يستعين بخياله في تصويرهم ليستكمل به ما محاه الزمن من حياتهم ، فإن حياتهم تبدو كتمائيل مهشمة ، ولا بد من يد صناع كي تعيد تكوينها وخيال خالق كي يعيد قسمات وجهها وأجزاءها المبتورة .

وبعد ذلك كله لا بد من الفحص الدقيق لآثار الأديب ، حتى تستكمل صورته خطوطها وألوانها وظلالها ، فإننا لا نرسمه شخصاً مستقلاً عن آثاره ، بل نرسمه من أجل هذه الآثار ، ولذلك كان لا بد أن نقف عندها وقوفاً طويلاً ، وننظر إليه من خلالها ، ونرى كيف تضامنت العناصر العامة من الجنس والزمان والبيئة وهذه النفس الفردية في نماذجها الأدبية .

ولا بد أن ننظر فيمن أثروا في أدبه ، واتخذهم هادياً مرشداً له في عمله ، بل لا بد أن نعرف أثر التراث الماضي كله في نماذجه ، وخاصة إذا كان ممن حرصوا على التقاليد والأشكال المقررة . فشاعر كشوقي لا يتم لنا فهمه إلا إذا عرفنا صلته بالبارودي وغيره ممن سبقوه وكان لهم تأثير في كيان شعره أمثال البحري والمتنبي . ثم نعود إلى آثار الأديب أثراً أثراً ، وندرسها من وجهين ، وجه نرى فيه ما قد يساعدنا على تأريخ حياته وعصره وظروفه ، فقصة من القصص قد يكون أبطالها هو نفسه كاتبها ، على نحو ما هو معروف عن ديكتز في قصة « ديفيد كورفيلد » وجوته في « آلام فرتر » والمازني في « إبراهيم الكاتب » وتوفيق الحكيم في « عودة الروح » .

ووجه ثان نحاول فيه أن نقوم النموذج تقويماً أدبيّاً ، بحيث نطلع في قصة من القصص على قدرة صاحبها في العمل القصصى ورسم شخصيتها رسماً دقيقاً ، ونعرف مكانه الذي يشغله في عالم الأدب ومقدار ما أدى لأتمته وللحضارة الإنسانية من خدمات .

وقصيدة من القصائد في الحب مثلاً نقف منها نفس الموقفين : موقف نعرف منه حالة الشاعر الوجدانية الخاصة ومدى انتصاره في الحب أو إخفاقه ويأسه . وموقف ثان نعرف منه إلى أى حد تعد القصيدة نموذجاً أدبيّاً بديعاً فهي مثلاً تنمو فيها المشاعر والأحاسيس نمواً عضوياً دقيقاً ، بحيث تعد تجربة شعرية تامة ، وتكتمل فيها الصياغة الجميلة بحيث تعد عملاً أدبيّاً بليغاً .

فنحن إزاء الشاعر نلاحظ مجرى العواطف والمشاعر عنده ، ونلاحظ قدرته على إبرازها ، بحيث تصبح القصيدة ذات دلالة أدبية تامة ، دلالة تنفرد بها . وفي هذا التفرد يمتاز الأدباء بعضهم من بعض ، فلا تظن أنه من السهل أن يحدث أديب عادى نموذجاً مستقلاً له فرديته الكاملة ، إنما يستطيع ذلك الأدباء الأفاضل الذين يعرفون كيف يجمعون في نموذجهم تفاصيل دقيقة لما يرسمونه من حالات وجدانية جزئية إن كانوا شعراء وشخص قصصية إن كانوا قصصاً .

والقصصيون والمسرحيون الذين خلدوا في التاريخ الأدبي قليلون ، وقلتهم ترجع إلى أنهم لا يخلدون إلا إذا استطاعوا في قصصهم ومسرحياتهم أن يصوروا شخصياتها نماذج إنسانية متكاملة . وتكاملها إنما يأتي من أنهم يحسنون تكوينها ، فكل ما يؤدونه كلاماً أو سلوكاً يتمم بعضه بعضاً بحيث يصوغون في النهاية شخصاً ذات طابع متميزة ، شخصاً تنبض بالحياة ، وكأنها نماذج بشرية تامة .

ويقف مصور الشخصية الأدبية عند ذلك كله ، ليدل على براعة صاحبه وسر جودته الفنية في نماذجه الأدبية . وعلى نحو ما عاش معه في حياته من مهده إلى شيخوخته ، كذلك يعيش في هذه النماذج ، فيصحبه فيها ، ليرى هل تطورت مع تطور سنه ، وهل حدث فيها انقلاب . ومن الأدباء من يبدأ معارضاً للأساليب الأدبية الموروثة ، ثم ينقلب مستجيباً لها قليلاً أو كثيراً ، ومنهم من يبدأ متمسكاً بها ، وهم الأكثرون ، ثم يستقل عنها . وقد ينقلب ضدها انقلاباً ، ففي الأديب الواحد ونماذجه ربما لعب قانون الفعل ورد الفعل دوراً مهماً . وقد يكون ذلك نتيجة عوامل

خارجية في البيئة ، وقد يكون نتيجة عوامل نفسية في الأديب .

وهو بجانب لا بد من التأتى عنده طويلا ، لا لنلاحظ الانقلاب أو التطور بوجه عام ، ولكن لنلاحظ المشابهات بين الدورين من حياة الأديب ، فشاعر كشوقي ظل شاعراً غنائياً نحو أربعين عاماً ، ثم انقلب شاعراً تمثيلاً في مسرحياته المعروفة ، فلا بد أن تكون الدورة الطويلة الأولى قد تركت آثاراً في الدورة الثانية . وهذا ما حدث فعلاً فإن شعره التمثيلي يُطْبَعُ بطوابع غنائية قوية ، وكان قبل أن يصبح ممثلاً يتغنى بعواطف وطنية قومية ، وبعواطف العروبة والإسلام ، فنسجى في مسرحياته نفس المنحى .

وقد لا ينقلب الشاعر هذا الانقلاب الذى رأيناه عند شوقي من نوع أدبى إلى آخر ، ولكنه على كل حال لا بد أن يتطور أدبه بحكم العلاقة الوثيقة بين النماذج الأدبية وشاعره التى تجرى فى داخله ، إذ الأديب فى شيخوخته يختلف اختلافاً قليلاً أو كثيراً عنه فى شبابه بحكم الدم الذى يجرى فى عروقه . إن زمن الشباب زمن المشاعر والأحاسيس الدافقة بل الجارفة التى تكتسح كالسيل كل شىء أمامها . ومع الزمن يهدأ السيل وقد يتحول أو يتوقف ، فإذا الأديب لا يغرق فى أحاسيس الشباب التى تنطق بها نماذجه ، وإذا هو لا تروقه قيم الجمال البراقة فى الأساوب كما كانت تروقه من قبل ، وإذا هو يركن إلى التفكير والتأمل والتجريد بعد أن كان يركن إلى الحواس وما تحمله إليه من اللذة والألم ، كما يركن إلى الأسلوب النقى الصافى الذى لا ينشأ جماله من زينة لامعة ، وإنما ينشأ من تناسق دقيق تام . وعلى هذا النحو ينبغي أن يمضى مصور الشخصية الأدبية فى بحثه وتصويره لها ، ليرى كيف تعمل حياة الأديب فيه وفى أدبه . فهو كائن عضوى ، يتطور مع نهر الزمن المتحرك وتتطور معه آثاره الأدبية .

ومما يجمل بمصور الأديب أن ينظر - ويعيد النظر مراراً - فى أصول آثاره المخطوطة إن كان قد بقى منها شىء ، فإنها بدورها تكشف له عن جوانب ، لا يعرفها إلا عن طريقها . فإذا كان الأديب يحرص على الكمال الفنى وجده يُصلح فى مسودات نماذجه مراراً ، وقد يهمل نشر بعض العبارات ، وربما ترك أخرى دون استكمال لبعض ألفاظها ، وفى هذه الحال يترك لها فراغاً ليعود فيضعها ، وكأن تفكيره أسرع

«من يده . وكثير من الأدباء لا يستطيعون نزع أنفسهم من سبيل أفكارهم بسهولة ، وهؤلاء نستطيع إذا رجعنا إلى مسوداتهم أن نجد بعض الشواهد التي تدل على ذلك ، كأن لا يتركوا في الصفحة فراغاً لكلمة تُكتَب ، فهم لا يريدون أن يتوقفوا تلك المسافة الزمنية القليلة التي يمدون فيها أيديهم من أجل التحول إلى صفحة جديدة .

وقد رجعت في تصويري لشخصية شوقي إلى مسودات لبعض مشاهد من مسرحية «مجنون ليلى» فلاحظت أن حوار المتحاورين فيها لا يتسلسل بالصورة التي يجري بها في المشاهد ، فاستنتجت أن شوقي كان يُعيد الحوار على نحو ما يعد الأبيات في قصيدته الغنائية ، فهو يكتب أولاً قطعاً جميلة ، ثم يرتبها على النسق الذي يريده الحوار ، وقد يحذف بعض القطع ، إذ لا يجد لها مكاناً في المسرحية . ولعل ذلك هو الذي أدخل الحلل على مسرحياته ، فإن الحركة لا تسرع فيها ولا تنمو نمواً عضوياً . وكان يُكثر من التعديل في ألفاظه وسطوره وأبياته مما يدل على أنه كان يجهد نفسه في عمله ، كما كان ينشد الكمال في الأداء والتعبير .

ومن كل هذه الخيوط التي ذكرناها يصنع مصور الشخصية الأدبية صورتها . بل قل من هذه الخلايا خلية خلية يشكّلها ويرسم قسماتها وكل ما بها من حنايا وتعاريج متخذاً من كافة العناصر العامة والخاصة ما يقيم حدودها وأبعادها مستعيناً بأضواء مختلفة من الجنس والبيئة والعصر والملابس والظروف ، حتى يصوغ صياغة محكمة هذه الشخصية المعنوية الكبيرة .

ونقول الكبيرة لأن مصوري الشخصيات الأدبية إنما يعنون بتصوير الأفعال النابغين من الأدباء ، حتى يجلوا على الناس شرارة نبوغهم الذي يروعهم ، وحتى يكشفوا لهم عن مواهبهم وما يحوطها من السحر والحاذية التي تجعلهم يتعلقون بهم . وهم ليسوا سواء في صلاحيتهم لهذا التصوير ، فمن كانت حياته منهم هادئة كالبحر الساكن ، فلا عواصف ولا أمواج ولا صراع مع داخله ولا اضطراب في أحداث مجتمعه وبيئته كانت حياته فقيرة ، مهما لمع اسمه في عالم الأدب ، وهو لذلك لا يصلح كي تصور شخصيته صورة كاملة .

إنما الذي يصلح لذلك من كانت حياته غنية بتجارب إنسانية كثيرة ، تجعل منه موضوعاً صالحاً للتصوير ، بحيث يظهر فيه صراع داخلي أو خارجي ،

وبحيث تتفاعل فيه معاني الحياة ويتقلب في عواطف معقدة . وبذلك تصبح الشخصية الأدبية نامية تتطور مع الزمن وتنمو دوافعها النفسية ومنازعها السلوكية ، وقد تتطور تطوراً مفاجئاً ، فيكون ذلك أدعى إلى نجاح تصويرها ، فإنها تحمل في ثناياها عناصر تشوق القارئ ، وتجعله يقبل على قراءتها في شغف شديد

لا بد إذن أن تكون الشخصية الأدبية المصورة ذات تفاصيل كثيرة بحيث تستطيع أن تمتد مصورها بمواد وافرة كي يسوى منها صورته . ولا بد أن يكون لهذا المصور ذوق الفنان وبصيرة العالم جميعاً ، وأى عالم وأى فنان؟ إن علمه لا بد أن يتسع ، حتى يقف على المكونات الحضارية والثقافية والاجتماعية والإقليمية التي طافت بزمان الأديب ومكانه وطوقت آثاره بمعالم خاصة . وأيضاً لا بد أن يتسع في المجال النفسي حتى يستطيع استبطان وعي الأديب ومدى تفاعله مع الوعي العام ، بل ربما نفذ إلى لا وعيه ووقف على محيطه وقوفاً دقيقاً .

وبذلك تنبسط أمامه حياة مَن يصوره ، ليعمل في دوافعها ونوازعها ، مستخدماً بصيرته في البحث والحدس والتفسير ، وهو إلى ذلك كله ينبغي أن يكون ملمماً بأصول الأدب وقواعده ، حتى يستطيع الحكم على آثار الأديب حكماً موضوعياً ، لا أثر فيه لتحيز أو تعصب .

ثم هو ينبغي أن يكون فناناً ، يعرف كيف يرتب كل هذه المواد في بناء متكامل يُبرز حياة الأديب متدرجة مع الزمن ومتفاعلة مع الأحداث الخارجية والداخلية . وهنا لا بد له من الاختيار في التفاصيل حتى لا يتعلق بشيء عارض ، لا دخل له في تطوير هذه الحياة ، مثله في ذلك مثل الروائيين في تصوير شخصياتهم ، فهم لا يُدخلون عليها ما ليس له دلالة على سلوكها من قول أو فعل ، ولا ما يعوق الحركة النامية فيها من أحداث عارضة . وكذلك تصوير الشخصية الأدبية ينبغي أن لا يدخله استطراد وأن يُسلم كل جزء فيه إلى تاليه في تشويق بالغ كتشويق الروائيين .

وليس معنى ذلك أن يتحول تصوير الشخصية الأدبية إلى ضرب من القصص ينطلق فيه المصور وراء الخيال فيخترع الأحداث والأسباب اختراعاً . إنه حيثئذ يكتب قصة لا تحليلاً لشخصية أدبية حقيقية . إنَّ له أن يستخدم خياله ، ولكن في حدود حقائق الأديب الواقعة وفي حدود ملابساته الزمانية والمكانية ، فخياله ليس

حرّاً ، إنما هو خيال مقيد بالواقع العام والخاص الأديب . وهو يتقيد بهذا الواقع في ترتيب الحقائق واختيارها وتنسيقها وعرضها عرضاً خلافاً ، محاولاً بكل قوته أن يتخلى عن عواطفه وعن تبريراته الخيالية أو العقلية المنطقية ، مما يبعدنا عن كيان الشخصية الحقيقي . إننا لا نريد منه أن يصور لنا نفسه ولا قدرته الذهنية ولا مشاعره وأفكاره ، إنما نريد أن يرسم لنا شخصية أدبية بآرائها وأفكارها هي ، بحيث ينقل لنا كل المحيط الذي نمت فيه والتربة التي مهدت لهذا النمو ، وبذلك تصبح الصورة لصاحبها ، وتصبح معبرة عنه دالة ناطقة تمام النطق والدلالة .

بين الأدب والعلم

لكل من الأدب والعلم مجاله في المعرفة الإنسانية ، فالعلم مجاله الواقع ينقّب فيه عن قوانينه وأدلته ، والأدب مجاله علاقتنا بالواقع وإحساسنا وتأثرنا به . ويختلف ذلك باختلاف الأدباء واختلاف أحوالهم الوجدانية ، ولذلك كانت تختلف النماذج الأدبية إزاء المنظر الواحد في الطبيعة من أديب إلى أديب بمقدار ما ينعكس في نفس كل منهم من أفكار ومعان ومشاعر وأحاسيس .

أما في العلم — كعلم الطبيعة مثلاً — فلا يختلف ما يكتبه عالم عن آخر ، لأن كلا منهما يحكى الواقع عن طريق المشاهدة أو التجربة مستخلصاً القوانين العامة من الطبيعة وظواهرها مقلداً لها بالأدلة الحسية الدقيقة ، مستخدماً عقله ومنطقه وفكره وموارياً نفسه ودخائله الوجدانية وكل ما يتقلب فيه من عواطف مفرحة أو محزنة . فالعالم لا يصدر في علمه عن نفسه ، وإنما يصدر عن الواقع الخارجي ، ليثبت ما يريد إثباته من القوانين في الطبيعة وغير الطبيعة مقيداً بالمنطق العقلي وأدلته وبراهينه وتفصيلاتها السليمة ومقدماتها السديدة . أما الأديب فلا يعبأ بذلك كله ، وإنما يعبأ بما يشعر به في نفسه إزاء الواقع فهو يستمد من داخله مازجاً الواقع الخارجي بمشاعره وما يضيفه عليه من حالاته النفسية ودقائقها المعنوية .

وهذا هو معنى قولهم إن الأدب ذاتي والعلم موضوعي ، فالعالم يتناول حقائق الواقع محاولاً أن يصفها كما هي ، غير مضيف إليها أى شيء من داخله أو من مشاعره وتصوراتهِ ، إذ لا ينسج نفسه ، وإنما ينسج الواقع وحقائقه وقوانينه . أما الأديب فلا يهمه الواقع ولا حقائقه وقوانينه ، وإنما تهمة نفسه وحقائقها الوجدانية ودخائلها الشعورية

ومن أجل ذلك كان لكل أديب تجاربه الخاصة به التي لا يشترك فيها غيره ، لأنها تصور مشاعره وأفكاره هو وحده في حالة نفسية معينة . والأحوال النفسية لا تتكرر حتى هو نفسه لا تتكرر عنده ، فإذا وقف شاعر أمام جبل شامخ في يوم وكتب قصيدة ، ثم وقف نفس الموقف في يوم آخر وكتب قصيدة ثانية كانت مغايرة للقصيدة الأولى لأنها تمثل حالة نفسية جديدة . ولكن انظر إلى ما يكتبه عالمان عن

الجبل نفسه مثلاً ، فإنك لن تجد بينهما خلافاً بعيداً ، لأنهما يسجلان الواقع المادى ولا يتجاوزانه إلى أصدائه النفسية التى انطبعت فى قلوبهما إزاءه . وكل ما يمكن أن يكون بينهما من خلاف إنما هو فى بعض الجزئيات وبعض الدقائق والتفاصيل ، ومع ذلك فالجبل هو هو عند كل منهما بأبعاده وأجزائه وظواهره وما عليه من نبات وأشجار أو من صخور وكهوف أو من حقائق جيولوجية مختلفة .

والأديب شاعراً أو غير شاعر لا يهتم شئ من ذلك كله ، فالجبل وظواهره وحقائقه لا تهمه ، وإنما تهمه حالته النفسية فى تلك اللحظة الخاصة التى وقف فيها أمام الجبل . وقد تتبدل فى رأيه وحسّه بعض الظواهر ، فطريق قصير فى جبل كما يقول الجغرافيون قد يبدو عنده طويلاً طويلاً لانهاية له بحسب ما يعاينه من أزمة نفسية ، وقديماً شكى شعراؤنا المحبون المحزونون من طول الليالى وهى لا تطول حسب أهوائهم وحالاتهم الوجدانية التى عاشوها وإنما تطول تبعاً لمدار الشمس حسب نظريات جغرافية معروفة ، ولكن الشاعر يتخيلها قد طالت حسب شعورٍ مرّ به . وهذا لا يحدث فى العلم ، فالعلماء يقدمون لنا الحقائق كما هى بدون تدخل فيها ، وبدون تغيير فى زمانها أو مكانها .

ومع ذلك فحقائق الأدب النفسية أكثر ثبوتاً وخلوداً فى الحياة الإنسانية من حقائق العلم العقلية ، فشعر هوميروس وامرئ القيس والمتنبى وشكسبير وأضرابهم ما زال يمتعنا ويلذنا كما كان يمتع ويلذ معاصريهم ، أما حقائق العلم التى كانت تعاصرهم فقد بليت وذهبت مع الريح .

ولنفترض أن مدرساً للطب دخل ذات يوم إلى طبلابه فى غرفة المحاضرات ، ومعه كتاب طبي ألف فى منتصف القرن الماضى ، وقال لهم إننا سندرس اليوم فى هذا الكتاب وقرأ لهم تاريخه ، وسمى مؤلفه ، فإذا يكون الموقف ؟ إنهم لا شك يضحكون ويسخرون ، ولن يُغْنِيه ما قد يقوله من أن مؤلفه كان عالماً كبيراً فى عصره ، فإنهم سيردّون بأن علم الطب قد تطور من عصره إلى عصرنا تطوراً واسعاً وأنه لو كان على قيد الحياة لأعاد تأليف كتابه ، إذ أصبح كثير مما كان يراه الأطباء فى عصره صحيحاً غير صحيح ولا يستقيم ، وأيضاً فقد اكتشفت أمراض وأدواء كثيرة ، بحيث يصبح من المضحك أن يعود طبيب إلى هذا الكتاب ليستقى منه علمه بالطب ومعرفة .

وما لنا نُبعد ؟ إن كتاباً يؤلف في الطب أو في غيره من علوم الكيمياء والطبيعة إذا مضت عليه بضع سنين وأعاد المؤلف طبعه كان لا بد أن يعيد نظره فيه وأن ينقّحه ، ولذلك كانت تُلغى الطبعة الحديثة لكتاب في العلم ما قبلها من طبعات ، وقد ينشر عالم آخر كتاباً جديداً في نفس الموضوع فيلغى معظم ما ذهب إليه العالم الأول من آراء ونظريات

وهذا لا يحدث في الأدب ، فتمودج أدبي لا يلغى آخر ، وطبعة جديدة لا تلغى طبعة قديمة ، بل قد تكون الطبعة القديمة إذا كانت بمراجعة المؤلف أثمن وأنفس من الطبعة الجديدة . فالأدب لا يتقدم ، إنما يتقدم العلم ، وقد كان « دارون » معاصراً « لديكنز » ، وكان الأول عالماً وكان الثاني قصصياً ، واشتهر الأول بكتابه « أصل الأنواع » وما يلحق الكائنات من تطور واشتهر الثاني بروايات قيمة كرواية « ديفيد كورفيلد » ولو كان دارون حياً بيننا اليوم لاضطر إلى حذف صفحات كثيرة من كتابه ولنقّح الصفحات الأخرى التي يبقيا . أما ديكنز فلو أنه كان حياً ما غير ولا أصلح حرفاً مما كتب ولا حذف منه أي عبارة .

وقد ألف شعراء الإغريق القدماء شعراً قصصياً وغنائياً وتمثلياً كثيراً ، وازدهرت الآداب المختلفة من بعدهم ، وزخرت العصور التالية بأعلام الأدب القصصى وغير القصصى ، ولا نزال نقرؤهم كما نقرأ من خلفهم فتتأثر بذلك كله دون أن يحاول أحد أن يغير فيه أو يحذف منه شيئاً ، بل لو أن أحداً حاول ذلك لعُدَّ ناقص العقل ينبغى لأهله أن يداووه .

ومرجع ذلك أن نظريات العلم تتجدد وأنها عرضة للتغير في حين أن الآثار الأدبية تستمر فاعلة ، لأنها قائمة على أشياء ثابتة فينا : على طبيعتنا البشرية ، وأصول هذه الطبيعة النفسية والشعورية لا تتغير ولا تتحول من زمان إلى زمان ولا من مكان إلى مكان ، لم تتغير في الماضي ولا في الحاضر ، ولن تتغير في المستقبل ، فالناس سيظلون يحبون بنفس الدوافع والعواطف والغرائز والبواعث .

وكأن الناس في عواطفهم ومشاعرهم وغرائزهم وانفعالاتهم الوجدانية لا ينمون ولا يكبرون ولا يشيخون ، إنما الذي ينمو ويشب ويكبر هو العقل ، ونخذ مثلاً من يحبون فإنهم مهما كانوا علماء أو كانوا ذوي نفوذ ومقام في الهيئة الاجتماعية إذا

أحبوا أصبحوا يشبهون الأطفال . فالحب لا تدعمه ثقافة ولا رقى عقلى ، ولا نفوذ ومقام اجتماعى ، فدوافعه وأحاسيسه واحدة عند الطفل والشاب والشيخ ، وعند البدوى والمتمدن والجاهل والعالم ، وهى دوافع وأحاسيس صادقة فى ذاتها . وأنت لذلك لا تقول لأديب صدقت أو كذبت فيما عبرت ، إنما تقول ذلك للعالم ، لأن أدلته وحقائقه التى يذكرها ينبغى أن تكون صادقة ، فإن لم تكن صادقة فقدت قيمتها ، أما فى الأدب فكل ما يقوله الأديب صادق لأنه يصور به نفسه ، أما من يقولون حين يستمعون إلى قصيدة شاعر تعجبهم ما أصدقه فإنهم لا يفهمون عمله إلا إذا كان هذا القول معبراً عن اقتناعهم به ، لا أقل ولا أكثر .

فالأديب لا يسوق أشياء نصدقها وأشياء نكذبها ، بل ما يسوقه كله صادق بل من الخير أن نخرج كلمة الصدق من أوصافه ، فإنها قد تضللنا . إنه لا يسوق مصدقات ، وإنما يسوق عواطفه ، وهى سواء كانت خيرة أو شريرة فإنها تنبع من طبيعة الحياة البشرية ، وهى طبيعة يندمج فيها الأخلاقى بغير الأخلاقى ، والمألوف المعتاد بالشاذ الذى يجرى على غير قياس .

وكم ظهر أدباء شذوا على منطق الحياة الاجتماعية السليمة ، ولكنهم لم يصيبوا هذا المنطق باختلال ، فمثلهم مهما أسرفوا فى شذوذهم مثل أطفالنا العصاة الذين نجبهم ونشملهم بعطفنا رغم عصيانهم لنا ولجتمعه . وقد يدفعنا شذوذهم إلى أن نكتشف دوافعه ووسائله فيهم فتتقيه ونحترس منه .

والعلم لا يعرف هذا الشذوذ ولا ينساق فيه ولا فى متاهات الخيال ، لأنه يعكس الواقع الخارجى ولا علاقة له بالواقع النفسى وشذوذاته وتخيالاته التى تخلق فى الروايات والقصص أشخاصاً لم نعرفهم من قبل . ومعنى ذلك أن العلم لا يعرف الخيال ، فالعلماء لا يصنعون خيالات ، وإنما يصنعون نظريات . وإذا تخيل العالم قانوناً أو فرضاً لم يكن مقصوداً لذاته ، إنما يقصد به إلى تحقيق رأى علمى ، فإن لم تثبت صحته لم يكن لخياله أى قيمة ، فهو خيال موقوت مشدود إلى الحقيقة العلمية وظل لها ، فإن لم تسعفه وتصححه أصبح كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

وليس كذلك خيال الأديب ، فإنه يبقى ببقاء نموذجه ، سواء أطاق الواقع الخارجى أم لم يطابقه ، ونضرب مثلاً لذلك كلفة القمر ، فإن الجغرافيين يعللونها بوهاد

وجبال فيه توشَّحه بالظلال ، وكأن أبا العلاء لم يُرْهف سمعه إليهم حين قال :

وما كُلفَتُ البدرِ المنيرِ قديمةً ولكنها في وجهه أثرُ اللَّطمِ

وخياله غير صحيح من الوجهة العلمية ، ولكنه خيال أدبي باق . يصور شعوراً له حين نظم هذا البيت ، شعوراً حزيناً قائماً .

وتكثر هذه التعليقات الخيالية عند الأدباء، وهي من أهم ما يفرق بين العمل العلمي والعمل الأدبي ، فلا بد في الأول من صحة الأدلة صحة عقلية ، أما في الثاني فليس من الضروري أن تكون الأدلة صحيحة، إنما يكفي أن تكون مقنعة، بحيث تجعلنا نتابع الأديب فيما يقوله ، حتى لو كان خرافياً خالصاً ، كما هو الشأن في قصة السندباد البحري مثلاً فإنها تَخْرُج عن عقلنا وأدلته المنطقية ، ومع ذلك نُعْجَب بها، لأنها تطابق شيئاً داخلياً خيالياً عند منشئها، وليس من الضروري لها بعد ذلك أن تطابق حياتنا الواقعية الحسية .

ولا يُكْتَفَى في العلم بصحة الأدلة من الوجهة العقلية ، إذ لا بد أيضاً أن تكون العلاقات والارتباطات بين العبارات والكلام منطقية، فالمنطق لا بد أن يسود في كل جزء من أجزاء القول ، فيه وحده ، وفيه مع ما يسبقه ويلحقه من الأجزاء .

وفي هذا ما يلفتنا إلى أن هناك استعمالين للأدلة ، أدلة عقلية يُحْكَمُها العقل والمنطق ، وأدلة عاطفية كثيراً ما ينعدم العقل والمنطق فيها ، كما ينعدمان أو يضعفان في تماسكها وتسلسلها . وَبَوْنٌ بعيد بين بناء النظرية العلمية وبناء النموذج الأدبي ، فجميع لبنات البناء الأول يشد بعضها بعضاً بمنطق حاد، أما البناء الثاني فكثيراً ما يغيب المنطق فيه ، وخاصة في الشعر الغنائي وفي مذاهبه المستحدثة من رمزية وسريالية، إذ تتشابك الأبيات والصور بعلاقات واهية .

وقد فسح السرياليون لمكبوتات تظهر فجأة في خلال قصائدهم، تَطْمَس العلاقات المنطقية بين أبياتها طمساً ، حتى وكأنها أضغاث أحلام . وحتى الشعر الغنائي السابق لمذهب السريالية لا تتجسم فيه هذه العلاقات كما تتجسم في النثر العلمي ، ويتضح ذلك في شعرنا العربي ، فأبيات قصائده يستقل بعضها عن بعض ويمكن بسهولة أن يُفْرَدَ البيت عن قصيدته. وهذا ما صنعه اللغويون والنحويون والمفسرون في استشاداتهم الكثيرة ، وما نصنعه حين نستشهد على معنى عام بشعر

للمتنبي أو ابن الرومي أو أبي تمام أو غيرهم من الشعراء . ولا يحدث ذلك في العلم فلا يمكن أن نستشهد من نظرية بعبارة تفصلها منها عما قبلها وبعدها ، وإن فعلنا لم نكد نفهمها ، لأن فهمها الصحيح متوقف على ما يسبقها ويلحقها من عبارات ، فهي جزء من كل عام ، ولا يفهم الجزء وحده ، وإنما يفهم الكل بجميع أجزائه .

فليس للعبارة في العلم استقلال ، بل هي تخضع خضوعاً شديداً للعبارات السابقة واللاحقة ، إذ ليس لها وجود متميز ، وهي ترتبط بما يتقدمها ويتأخر عنها ارتباط الأسباب بالمسببات والعلل بالاحتتمية بالمعلولات . ولهذا الارتباط المنطقي الشديد أو قل الحاد ظاهرة نحوية واضحة ، هي كثرة حروف العطف ، التي تصل العبارات بعضها ببعض . وهي كثرة لا نلاحظها في العبارات الأدبية ، بل قد نفقد فيها حروف العطف ، وحتى إن وجدت قلما نتبين وظيفتها في الربط ، ولذلك كان البلاغيون يهتمون بدراسة باب الوصل والفصل أو بعبارة أخرى باب الاتصال والانفصال بين الجمل الأدبية ، ويتمحلون فيه تمحلات يبدو فيها التعسف ، لأنهم يريدون أن يخضعوا الجمل في الأدب لمنطق العقل ، وهي إنما يسيطر عليها منطق العاطفة .

وإذا كانت هناك فروق واضحة بين العبارتين في الأدب والعلم على هذه الشاكلة فكذلك هناك فروق واضحة بين مواد الألفاظ والكلمات في كل منهما ، فاللفظة في العلم تؤدي معنى دقيقاً محدوداً ، لا يختلف فيه اثنان ، أما في الأدب فالحدود حروفها وما تشغله من زمن أو فراغ على ورق ، أما معناها فإنه غير محدود . ويرجع هذا إلى أساس مهم ، هو أن الدلالة العقلية للكلمات دلالة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، أما الدلالة العاطفية فغير واضحة ولا مستبينة ، ونحذ مثلاً كلمة قريبة الدلالة مثل الحب ، فإنها إذا انزلت على لسان الأديب وسمعها كثيرون معاً اختلفت دلالتها عند كل منهم بحسب حالته الوجدانية وأصدائها في نفسه .

وذلك قالوا إن الكلمات في الأدب رموز ، رموز بالقياس إلى الأديب الذي يتحول العالم الخارجي كله في نفسه إلى رموز ، وهو يعبر عنها بكلمات هي نفسها رموز أيضاً ، وكما يرمز العلم على أمة كذلك ترمز الكلمة الأدبية على أمة من الأحاسيس والمشاعر ، رمزاً فيه قصور الدلالة من جهة واتساعها من جهة . أما قصورها فلائها لا تبين بالدقة عن دقائق العاطفة ، كما تبين الكلمة في العلوم عن

دقائق الفكر . وأما اتساعها فلأن السامع حين يسمعها توحى إليه بمعنى لا ينحصر . ومن أجل ذلك كانت توصف الكلمات الأدبية أو العاطفية بأنها رمز موحٍ أو موعز ، فهي توعز بمعان كثيرة ، تنطلق بنا إلى آفاق واسعة جداً ، وكأنها تخرجنا من عالمنا وتسبح بنا في عوالم لا حصر لها ولا ضبط . ونستطيع أن نلاحظ ذلك حين نقرأ في قصيدة أو في أى نموذج أدبي أصيل فإننا نحس كأننا نتخلّى عن عالمنا ، وكأن الأديب أو الشاعر يحملنا على أجنحته ، فنقفز معه من سحاب إلى سحاب ، ونحن غارقون في نشوة محبّبة ، وهى نشوة لا نتحقق فيها من الكلمات ودلالاتها ، فالكلمات تنشر حولها ضباباً ، ويكفيها أن نراها من خلال هذا الضباب رؤية غامضة ، وهى رؤية شديدة التأثير فينا .

ولعلنا بذلك نفهم سبب شيوع الغموض في الشعر ، إذ هو اللغة العاطفية التامة ، ومن قديم صنعت له الشروح ، لعلها تفك غموضه ورموزه ، ومع ذلك تبقى أبياته — حتى بعد حلها وشرحها — مغلّقة بضرب من الإبهام . ولذلك كثيراً ما تعاد الشروح فيه على نحو ما صنع أسلافنا بشروحهم لشعر أبي تمام والمتنبي ، فقد أعادوا شروح شعرهما مراراً . وكل ذلك مرجعه إلى غموض الكلمات الأدبية والشعرية وأن دلالتها غير محدودة ، وحتى إذا كانت دلالتها واضحة كما يبدو فإننا حين ننعم النظر فيها نجد أنها ملتفة في رداء من ضباب . وهذا الرداء هو الذى يجعل أى بيت من الشعر حين يُعرّض على عدد من الطلاب ليفسروه يفسره كل منهم تفسيراً مخالفاً قليلاً أو كثيراً لصاحبه ، لأن كلا منهم يفسره حسب شعوره وحالته الوجدانية ، وكأن التفسير يحمل معنى البيت وصداه في نفس مفسره ، والأصداء النفسية تختلف ، وبذلك يختلف التفسير من شخص إلى آخر .

وصفة ثانية في الكلمة الأدبية متممة لصفاتها الرمزية أو العاطفية ، وهى أنها تحمل معنى صوتياً ، ومعروف أن العالم لا يفكر فى أصوات كلماته ، إنما يفكر فى معانيها العقلية فحسب ، فالكلمة عنده ليس لها أى وظيفة سوى أداء المعنى العلمى أو المنطقى ، أما فى الأدب فإنها تؤدى بجانب معناها النفسى العاطفى معنى صوتياً يتممه ، ولذلك يُعنى الأدباء بأساليبهم عناية لا يعرفها العلماء ، فهم لا يستخدمون أى ألفاظ ولا أى كلام بل يتخبون ألفاظهم وكلامهم ، ولكل أديب طريقته فى

الانتخاب ، ومن ثمَّ كان لكل أديب أسلوبه .

وقد تكون معاني بعض الأدباء سطحية ، ولكن أسلوبهم جميل ، فينض بمعانيهم ويجعل لعملهم الأدبي على ضحولة هذه المعاني قيمة ، وكثيراً ما يستتر أسلوب الكاتب عيوبه . وهذا لا يحدث في العلم ، فلن يقف شخص عند أسلوب عالم ، ولن يحاسبه على عيوبه وأخطائه اللغوية والنحوية أو البيانية ، وإذا صنع شخص ذلك كانت تلك محاسبة أدبية لاعلمية .

فليس من الضروري في الكتابة العلمية الأسلوب الجيد ولا الأسلوب الجميل ، بل قد يُضعفها إذا طغى على ما تتضمنه من الحقائق . والكتابة الأدبية بخلاف ذلك ، فلا بد فيها من براعة التعبير ومن العناية بجمال الأسلوب وانتقاء الألفاظ وتنقيحها وتحري الإجازة وعرض الصور الرائعة . وفي ذلك كله صعوبة يكفى لتصورها أن ننظر في العلوم التي نشأت حول دراسة الأدب ولغته من مثل علوم البيان والبلاغة والنحو والصرف وفقه اللغة والعروض والقوافي ، وهي كلها علوم يُقصدُ بدرسها إلى أن يحاط الأدب بسياج في متين .

وهذا السياج أو هذه المادة الشكلية هي التي تجعل من الصعب بل يكاد يكون من المستحيل أن يترجم نموذج أدبي من لغة إلى لغة ترجمة تنقل كل مادته وصورته ، فهما كانت الترجمة دقيقة فإنها لن تستطيع أن تحتفظ بمواطن التعجب والجمال في أسلوبه ، بل لا بد أن تسقط جميعاً وأن يعيد المترجم تأليفها في لغته . ولا بد أن يكون على علم تام باللغة التي ينقل عنها النموذج واللغة التي ينقله إليها وأن يكون في تذوق أدبيهما سواء ، بل لا بد أن يكون أديباً في لغته ، حتى يحافظ قدر الطاقة على الصورة الجمالية للنص الذي ينقله . ولا نطلب في مترجم العلم شيئاً من ذلك ، لأننا لا نطلب منه إلا أداء المعاني واستيفاءها على حقها وصدقها ، وهي معان واضحة الدلالة ليس فيها إيهام ولا غموض .

الجمال الفني

يتعلق الوصف بالجمال دائماً بشيء محسوس سواء أكان ذلك في الطبيعة أم في نموذج أدبي أم فني ، وهو محسوس فردي معين كأن يكون غروب شمس أو زهرة من الأزهار أو أى منظر صغير أو كبير في الطبيعة . وبالمثل النماذج الأدبية والفنية ، فهي نماذج فردية معينة ، نماذج محسوسة قد تكون مادتها الألفاظ أو الأصوات أو الألوان أو الرخام .

فالجمال دائماً يوصف به محسوس ، وهو محسوس متميز في مادته وصورته ، تراه العين أو تسمعه الأذن . ومن قديم يبحث الفلاسفة والمفكرون في حقيقته ، وقد ذهب أفلاطون إلى أن كل جمال حسى أو خلقى أو عقلى يُردُّ إلى المثال الأزلى الخالد أو بعبارة أخرى إلى الجمال المطلق . وتلاه أرسطو فأنكر عالم المثل الأفلاطونى وجعل الجمال في تناسق التكوين ، كما جعله أسمى من الحقيقة . حتى إذا كنا في العصر الحديث أخذ كثير من الفلاسفة يفرقون بين الجمال من جهة والحق والخير من جهة ، فالحق نصل إليه عن طريق الأدلة العقلية الصرفة ، ويحقق لنا الخير المنفعة ، أما الجمال فلا غرض وراءه من حقيقة أو خير ، وإنما هو ضرب من الإحساس يمكن أن نسميه الشعور بالجمال أو الشعور الجمالى . ووضع « بوجارتن » (١٧١٤ - ١٧٦٢) اصطلاحاً لهذا الشعور هو كلمة الإستطيقا « Acsthetica » . وسرعان ما أصبح هذا المصطلح عكساً على مباحث فلسفة الجمال التى شغلت نشاطاً عقلياً واسعاً في أبحاث الفلاسفة من كانط وهيغل وشوبنهاور إلى جويو وكروتشه ، فقد تساءلوا ما الجمال الذى نراه في الأشياء المحسوسة ؟ وما الشعور الذى يتولد فينا إزاءه ؟ وما التأثيرات التى تنبع منه في وجداننا الجمالى ؟ .

وقد ذهب « كانط » إلى أن الجمال في الكون وفي الفنون لا يبتغى غاية سوى اكتماله وانسجامه الذاتى وكأن الجمال إنما يرجع إلى الصورة وليس للمضمون فيه أى دخل ، إنما الدخول كله للناحية الفنية الصرفة ، وهو بذلك لا يعلق أى أهمية على الغاية الخلقية أو الاجتماعية ، بل هو يفصل بين غايته التى يؤدي تحقيقها إلى توليد الشعور بالجميل وتلك الغايتين الخارجيتين عن طبيعته في رأيه ، وقد رده إلى ما يشبه اللعب ، فعلى نحو ما

نُسَرُّ باللعب نسر بالجميل سروراً خالياً من كل منفعة ومن كل غرض في الوصول إلى المعرفة أو الحقيقة . وتلاه « هيجل » يقول إن الفن إنما هو إدراك الروح الحسى للمثل الأعلى للجمال في صورته المختلفة ، وهو لا يتمثل في المادة وحدها بل يتمثل فيها وفي المضمون أو الفكرة . وتختلف الفنون بمقدار اندماج المادة في الفكرة ، ففن كالعِمارة لا تندمج فيه الفكرة في المادة ، ومن ثم كان يسبقه فن النحت ، غير أنه هو الآخر لا يستطيع تمثيل الجوانب السامية في الروح الإنسانية ، بسبب مادته الصلبة المحدودة . ومن أجل ذلك كان فن التصوير يتقدم النحت ، إذ المادة فيه أقل تحجراً وصلابة ، ومن ثم كان أكثر قرباً للمثل الأعلى للجمال . وليس من شك في أن فن الموسيقى يتقدمه إذ تبرز الفكرة بالصورة امتزاجاً تاماً ، ولا يوجد ما يعوقها من حواجز المكان . وأرفع صور الفن جميعاً الشعر لأنه يؤلف بين فني التصوير والموسيقى جميعاً ، ولأنه أتم تعبيراً عن الفكرة وأوضح دلالة . والطريف في تفسير هيجل للفنون أنه فسح في جماها للمضمون وذهب يعلل لتطورها بتطور النشاط الاجتماعي والعقلي والديني ، فأتاح الفرصة لتفسير الفنون تفسيراً اجتماعياً . وخلفه « شوبنهاور » فقال إن الحياة إرادة وفكرة وإن الفن يخلصنا من الإرادة ، إذ يسمو بالعقل إلى مرتبة التأمل في الحقيقة تأملاً غير إرادي ، فمدار شعورنا الجمالي في الفنون وفي الطبيعة على السواء أننا نتأمل في الشيء الجميل دون أن نخرج به إرادتنا الذاتية ، إذ نتخلص من شواغلنا في الحياة وحاجتنا ومطالبنا ونفرغ للتأمل الجمالي الخالص . وفرق بين العلم والفن بأن العلم يعنى بالحقائق الكلية التي يشتقها من الجزئيات ، أما الفن فيعنى بالجزئيات عناية تتمثل فيها الصفات الكلية ، فإن أراد الفنان تصوير رجل مثلاً أسبغ عليه صفات الإنسان عامة حتى يكشف فيه عن النوع كله ، ويقرب من المثال الأفلاطوني ، وبذلك كانت الموهبة العادية تكفي في العلم أما في الفن فلا بد من العبقرية والنبوغ . وعنده أن الموسيقى أرفع الفنون ، ومن ثم كانت تؤثر مباشرة في المشاعر والأحاسيس .

وذهب « جويو » إلى أن الجمال إحساس يعمق شعورنا بصور الحياة الثلاث : العاطفة والعقل والإرادة ، فنحن إنما نعجب بالجميل لأنه يمدنا ببراء طائل في حياتنا ، ومن هنا يأتي جمال الآداب والفنون لأنها تصلنا بأعمق ما فينا من مشاعر

وعواطف وتجعلنا نشعر بانتظام الحياة وانسجامها في روعة بالغة . أما « كروتشه » فقال إن للمعرفة صورتين : صورة حسية (بصيرية) وصورة منطقية ، وعماد الأولى الخيال وعماد الثانية العقل ، والأولى هي صورة الجمال وهي تنبع من الصور الذهنية الجزئية التي يتمثل فيها جوهر الأشياء المدركة ، والثانية هي صورة العلم وتنبع من الكليات الذهنية التي تبعدنا عن الأفراد والجزئيات وتنطلق بنا في عالم كله تجريد على نحو ما هو معروف في العالم الرياضي . والمعرفة الأولى تسبق المعرفة الثانية لأن الخيال يسبق الفكر ، فهي فجر كل معرفة ، وهي التي تبعث في الفنان إحساسه بالجمال ، وهو إحساس لا غاية وراءه من خلق أو غير خلق ، إحساس قائم بذاته ، وعلى من يتذوق الفن أن يقف أمامه موقف العابد الخاشع لا موقف القاضي أو الناصح ، إنه يحس " ببصيرته ما أحسه الفنان أولاً ، فهو يعيش ببصيرته مرة ثانية واعيا لها وعياً كاملاً . وأساس الفن إنما هو إحساس الفنان وقدرته على تكوين الصور الذهنية التي تسبق صور العقل المنطقية وأفكاره الكلية ، فهو يتمثل في باطنه صورة ما يبرزه تمثلاً دقيقاً ، ويدركه في داخله إدراكاً جليلاً واضحاً تمام الوضوح ، وبذلك يخرج تعبيره عما في نفسه كاملاً ، وهو تعبير غير إرادي لأنه صورة حتمية لما وراءه في باطن الفنان ودخيلته ، صورة لا بد أن ترسم بهذا الوضع والشكل المعين . وإذن فالجمال في الفنون لا يتعلق بالصورة الخارجية التي تمثله ، وإنما يتعلق بما وراءها من صورة باطنة تجسدها الصورة الخارجية . وعلى ذلك لا يكون الفرق بيننا وبين الفنان أنه أقوى منا تعبيراً ، وأنا نمتلك نفس أفكاره وأحاسيسه غير أنه هو الذي يقتدر على صوغها ، وإنما الفرق داخلي في الصورة الباطنة التي يتمثلها والتي يعبر عنها بتلك الصورة الخارجية . وعلى هذا القياس الإحساسُ بجمال الفنون فهو لا يُرد إلى إحساس ظاهري ، وإنما هو إحساس باطني ، نرى فيه الأثر الجميل مصوراً بدخائلنا في صورة ذهنية تعبر عنه . وإذن فالتعبير هو الفن وهو الجمال ، وهو تعبير باطني داخلي ، تعبير يتجسد في أشكال مختلفة ولكن لا فرق بين الأشكال والمضامين ، فهي جميعاً شيء واحد ، شيء ذهني أو صور ذهنية ترسم في بصيرة الفنان وبصائرنا ، ومن الخطأ أن تفصل بينها فنقول شكل ومضمون أو لفظ ومعنى ، فهما جميعاً تعبير عضوي لا يتفصم فيه اللفظ عن المعنى

ولا القالب عن المضمون ، وهو تعبير ينطبق عليه ما ينطبق على الكائنات العضوية من قوانين . ومعروف أن تلك الكائنات لا ينفصل فيها المضمون عن القالب ، فكلاهما — إن صح أنهما شيان — يعبر عن وجودها ووظيفتها الحيوية . ليس القالب إذن إطاراً خارجياً للأثر الفني يفرض إرادته عليه ، بل هو نفس تعبيره وكيانه الذى يحدد مضمونه ، أو بعبارة أدق الذى يحدد النمو الداخلى لهذا المضمون . والفنان لا يبتغى شيئاً سوى مخاطبة إحساسنا بالجمال ، فقيمة عمله فى ذاته ، وليس له هدف وراء ذلك .

وقد تناقش أصحاب هذه الفلسفة الجمالية طويلاً فى موضوعية الجمال وذاتيته وهل شعورنا به يقترن بتصورات ذاتية لنا أو هو لا يقترن بشيء من ذاتنا ، إنما يرجع إلى صفات فى الشيء الجميل نفسه ، وبعبارة أخرى هل الجمال مطلق أو هو نسبي يختلف باختلاف الأشخاص والأجيال والحضارات ؟ . وكثرت الإجابة على مثل هذا السؤال وما يتفرع عليه من أسئلة ، فقال بعض الباحثين إن الجمال موضوعى وقال آخرون إنه ذاتى ، أما من قالوا بموضوعيته فقد رجعوه إلى ما تتضمن الأشياء الجميلة فى الطبيعة والفنون من تناسب وتوازن فى الأجزاء وعلاقاتها . ففى الجميل ضرب من التوافق والنظام هو سر جماله ، وهو يبدو فى تناسب دقيق بين أجزائه تسرى فيه وحدة منتظمة تصوغه صوغاً جميلاً ، وارجع إلى الموسيقى فسرى فيها نظام الإيقاع تاماً ومثلها الشعر فهو الآخر نظام من النغم ، أما التصوير فنظام من الألوان يشبه فى اتساقه نظام الأنغام ، وكذلك بقية الفنون لا بد فيها من نظام هو جوهر جمالها .

أما من يأخذون بفكرة الذاتية فى الإحساس بجمال الفنون فإنهم يقولون إن الناس يختلفون فى هذا الإحساس ، بل إن الشخص الواحد يختلف إحساسه إزاء شيء جميل معين باختلاف مراحل عمره ، فما قد يعده جميلاً فى الصبا أو الشباب لا يعده جميلاً فى الكهولة أو الشيخوخة . وعلى ذلك فالإحساس بالجمال إحساس نسبي ، وهو ينمو ويرقى بنمو الحضارات ورقها ، وانظر فى اثنين أمام أى شيء جميل فإن كلا منهما يتصوره فى صورة مغايرة لصاحبه ، ويحسّه كذلك إحساساً مخالفاً لإحساس صاحبه ، فلا وجود لجميل جمالا مطلقاً ، بل نحن — فى

تقديرهم — الذين نسقط على الجميل جماله بما نسقط عليه من مشاعرنا وانفعالاتنا الوجدانية .

ونستطيع أن نقف بين الطرفين المتعارضين موقفاً وسطاً ، فنقول إن الجمال ذاتي وموضوعي معاً أو خارجي وداخلي معاً ، إذ لو كان خارجياً فقط لا عتمد على الحواس وحدها ، فكان أحد الناس بصرأ وأرهفهم سمعأ أشد إحساساً بالجمال من غيره ، وهو ما لا يشهد به الواقع ، وحتى لو قلنا إن مردّه إلى إدراك عقلي تطبعه الحواس في أذهاننا ، فيه يلتقي العقل بالإحساس لتصوّر الناس جميعاً الجميل تصوراً واحداً . إنه لا بد أن نحسّ به أو أن يكون فعلاً محسوساً في شيء وأن تنطبع له انعكاسات داخلية فينا . وهنا تتجلى الذاتية فيه ، وعلى أساسها يتفاوت الإحساس به من شخص إلى شخص ، كما يتفاوت التقدير . ولهذا التفاوت أثره في تطور الفنون والآداب ، فما كان يراه الكلاسيكيون من قواعد في الفن مسرحاً وغير مسرح أنى عليه زمن أصبح الناس فيه لا يعتدّون به ، فظهر ذوق جديد هو ذوق الرومانسيين ، وتعاقبت أذواق مختلفة . ومعنى ذلك أن الشعور الجمالي في الآداب والفنون يختلف من عصر إلى عصر . ومع ذلك ينبغي أن لا نبطل جمال الجميل في ذاته ، إذ لا بد فيه من ضرب من ضروب التناسق حتى يؤثر في نفوسنا ، وإذا كان من يحكمون في مسابقات الجمال بين الغيد الحسان يرجعون إلى مقاييس ونسب للأعضاء والقَدّة فإن من يقدرّون الجمال في الفن لا بد أن تتكون في نفوسهم مثالية للجمال ، حتى يستطيعوا تقديره . وهذه المثالية هي نفس الذوق الأدبي ، فهو مثال جمالي يتكون في نفس الشخص يستطيع به أن يحس الشعور الجمالي في الآثار الفنية والأدبية إحساساً واضحاً ، وهو لا ينشأ من الهواء إنما ينشأ من خبرات لا حصر لها خلال اطلاع صاحبه على نماذج الفن والأدب المختلفة . ومعنى ذلك أن متذوق الفن يتذوقه ويتأثر به من خلال النظام الجمالي الذي يسود في كل فرع من فروعهِ . ولا يُفهم من ذلك أن هذا المتذوق ينبغي أن يتقيد في تذوقه بأوضاع هذا النظام ونسبه في كل ضرب من ضروب الفن الجميل ، بل هي كالعلاقات الدالة في الطريق سواء بالنسبة له أو بالنسبة للفنان ، فكلاهما يعرف النظام الجمالي للفنون ، كل فن على حدة ، لا لكي يسجن نفسه فيه ، وإنما ليكون نقطة بدء وانطلاق في التذوق والتأثر ، بحيث

يستطيع أن يتذوق لوناً جديداً ، لا سابقة له .

ومعنى ذلك أن متذوق الأدب لابد أن تتحول خبرته فيه إلى بصيرة واعية ، يستطيع أن يحس بها الجمال إحساساً دقيقاً ، سواء ظلّ في الحدود المرسومة له سابقاً ، أو خرج عليها . ومعروف أن تقاليد الجمال في الفنون عامة ليست ثابتة فهي تتطور وتتحوّل ، وكأنها المياه المتحركة في النهر ، تفيض دائماً وتتجدد دائماً . حتى لنستطيع أن نقول إن الماضي فيها يتأثر بالحاضر أكثر مما يتأثر به الحاضر ، والمعول دائماً سواء عند متذوق الأدب أو الأديب إنما هو على الحدس الدقيق والحسّ الثاقب والبصيرة النافذة بحيث يكون معدّاً للشعور بالجمال في صور جديدة .

وكل هذه مسائل يقف عندها أصحاب الفلسفة الجمالية ، وقد شغلهم كما رأينا التفكير في حقيقة الجمال ، وتقصى أسباب الشعور به في الطبيعة والآثار الفنية . ويقفون غالباً عندهذه التأمّلات العامة ، وقلما عاجلوا الناحية التطبيقية في الآثار الفردية . ومن غير شك هم الذين فسحوا لنظرية الفن للفن ، فالفن عندهم إنما مداره على الشعور الجمالي ، وليس له غاية وراءه ، وسواء فصم بعضهم القلب عن المضمون أو وصلوا بينهما وصلاً تاماً ، حتى ليصبح وصلاً عضوياً ، فإن الفنون لا تخاطب عندهم شيئاً وراء هذا الشعور ، إذ الجمال نفسه جوهر له وجوده في ذاته ، وليس له غاية وراء وجوده ، فهو لا يُقصد به إلى حقيقة ولا إلى منفعة ولا إلى خدمة أى نظام اجتماعي . فعالمه عالم مستقل ، يتمتع فيه بقوانينه الذاتية ، وإذا تصادف أن اتخذ أداة للثقافة أو للسياسة أو للدين أو للتعليم فإن ذلك يكون شيئاً خارجاً عن وظيفته وقيمه الجمالية الفنية الخالصة .

وقد أتاح تطبيق الدراسات الطبيعية والاجتماعية والنفسية تفسيرات جديدة لهذه القيم ، فإن النقاد أخذوا يحللون الأدب على أساس البيئة والمجتمع والوراثات الشعبية وما يؤدي من وظائف اجتماعية ، واعتبر كثيرون منهم ذلك أساس تقديره وتقويمه . ولم يلبث أن ظهر فرويد في أول هذا القرن ، ففسّر الفنون بأنها تعبير عن رغبات مكبوتة في اللاشعور منذ الطفولة ظلت تعمل دون انقطاع ، حتى اتجهت إلى التسامي عن طريق التعبير الفني الجميل .

و«فرويد» بذلك يجعل الجمال الفني إشباعاً لرغبات مكبوتة ، ويقرن بين الفن

والحلم ، ويدعو إلى دراسة العمل الفني على أساس أنه حلم يقظة يحلمه الفنان معبراً عن دوافع جنسية راسية في داخله منذ الطفولة ، وهي رواسب جاءت من صدمات وتوترات ظلت مستكنة حتى تسامى صاحبها وسعى بها نحو غايات مقبولة اجتماعياً . وعلى هذا الأساس يعيش الفنان في كبّئت دائم يعبر عنه بضرب من ضروب التعبير الفني الجميل . وتقل « يونج » عالم اللاشعور من الطفولة إلى القبيلة ، فالأول مكتسب للفنان أما الثاني فهو الخلق بالبحث ، والفنان يرثه عن آبائه وأجداده الأولين مجتازاً إليه العصور ، وفي رأيه أنه قائم في كيان كل مجتمع مهما تحضر ومهما ارتقى ، ومن أجله يُعجّبُ الناس بالأساطير ويتخذها الفنانون موضوعاً لفهم . فليس منبع الأعمال الفنية وجمالها اللاشعور الفردي القريب ، وإنما منبعها اللاشعور الجماعي . وكأن الفنان يترك مجتمعه إلى أغواره الداخلية التي يشهدها الناس في أحلامهم ويشهدها هو في يقظته ، إذ تتسرب إليه من أعماق الأعماق ، فيبرزها في أعماله الفنية الجميلة . ودعاه ذلك إلى أن يقسم الآثار الفنية قسمين ؛ قسم يستجيب فيه الفنان إلى حياته ومجتمعه وقسم يستجيب فيه إلى الوراثة البعيدة .

ويقف نفسيّون آخرون موقفاً وسطاً بين « فرويد » و « يونج » وأصحاب الدراسات الجمالية ومن قاسوا الأدب بمقاييس اجتماعية فيقولون إن التجربة الفنية في الأدب وغير الأدب إنما هي تجربة نفسية كاملة ، تجربة ينقل إلينا فيها الفنان أشتات الأحاسيس والمشاعر ، وهي أشتات منها ما يعود إلى مجتمعه وآرائه في الخلق والسياسة وغير الخلق والسياسة ، ومنها ما يعود إلى ذاته وشعوره ولا شعوره الفردي والجماعي . إنها صورة النفس الإنسانية بكل ما يقع عليها من مؤثرات وكل ما يجري فيها من دوافع مكبوتة وغير مكبوتة ، ومن الخطأ أن نحكم جانباً ونترك الجوانب الأخرى ، فنحكم الدين مثلاً أو الأخلاق أو السياسة أو الشعور الجمالي التجريدي أو اللاشعور الفردي أو اللاشعور الجماعي ، فكل هذه خيوط في التجارب الفنية ، ومنها جميعاً تمّ التجربة وتشكّل ، وقد تنقص جزءاً كأن تنقص اللاشعور الجماعي فلا تكون أسطورة مثلاً أو تنقص الخلق فتكون شاذة عليه . غير أن ذلك لا يبطلها فإن الفنان يهتم بأجزاء أخرى ويحدث بينها من التناسق ما يجعل أثره الفني جميلاً جمالاً رائعاً .

فالمهم أن يسوى الفنان تجربته من مجموعة من العناصر والدوافع النفسية ،
تتجمع في ذهنه ويؤلف بينها وينسج منها عمله في صورة منسقة جميلة . وإننا
لو تدبرنا في صنيعة لعرفنا أنه منظم في دقة لأحاسيسنا ومشاعرنا وكل ما يضطرب في
نفوسنا من عواطف تتزاحم في داخلنا تراحماً ، حتى لكأن فوضى تضرب أطنابها
في باطننا ، فإذا هو يسلط أشعة فكره على هذا الباطن فتتجمع هذه العواطف
والمشاعر تجمعا متناسقا في مكان أو زمان . وتلك هي براعته وهي الشيء الذي
يعجبنا عنده ، فإن كلاً منا يشعر كأن في داخله محيطاً مضطرباً من نزعات
ورغبات وأحاسيس ، وهو لا يستطيع أن يسوى من ذلك عملاً كاملاً . وما أشبه
ما يجري في داخلنا من ذلك ببطاقات كتب لدار من دورها قد تناثرت فوق أرض
الغرفة التي بها صناديقها ، فهل يمكن أن تعود هذه البطاقات إلى صناديقها وتنظم
فيها مرتبة ترتيباً أبجدياً دون أن تتناولها أيد حاذقة ، فتعيد إليها نظامها . وهذا نفسه
ينطبق بالضبط على دوافعنا وغرائزنا ومشاعرنا فإنها دائماً متناثرة في فوضى داخل
نفوسنا . ولا نستطيع تنظيمها ولا تبويبها ، لسبب بسيط وهو أننا نفتقد القدرة
الصحيحة على ذلك . إنما الذي يستطيع الهوض بهذا العمل هم الفنانون الذين
أوتوا قدرة بارعة في تنظيم أخلاط الأحاسيس وأمشاج المشاعر والدوافع النفسية تنظيماً
نراه ماثلاً في تجاربهم مثلاً بيناً ، وكأنما في أيديهم مصابيح ينفذون بها إلى حجرة
النفس المظلمة ، فتنجلي لهم جوانب من خوالجها المتنافرة المتباينة ، وسرعان ما يرتبونها
وينظمونها وينفون عنها كل فوضى واضطراب . فإذا أبصرناهم أو سمعناهم أحسنا
أنهم نظمونا داخلياً ، أو نظموا جانباً فينا باطنياً ، إذ تنطبع في نفوسنا تجاربهم
انطباعاً تنسق في أثنائه أحاسيسنا ومشاعرنا المختلطة ، وكأنما ينسقوننا على غيرارهم ،
فإذا دوافعنا النفسية تتلاقى بتآلف : بعد أن كانت متنازعة متخاصمة ، فقد
تشكلت تشكلاً جديداً ، أو قبل تشكلت حياتنا الباطنة تشكلاً جديداً يمنحنا ضرباً
من الراحة والمتعة ، أو ضرباً من الرضا العميق ، فقد توازنت فينا انفعالاتنا وانتظمت
عناصرنا الوجدانية انتظاماً محكماً .

وإذن فإحساسنا بالجمال في الفنون إنما يرجع إلى أنها تحدث في دوافعنا النفسية
وما يَطْوِي فيها من مشاعر وذكريات ونوازع ورغبات ضرباً من النظام أو التوازن

والانسجام . فالإنسان مركب في داخله من دوافع مختلطة لا ضابط لها . وهي دوافع تتباين وتتصارع أنواعاً من الصراع ، فإذا ما أبصرنا أو سمعنا تجربة فنية ضُبِطت هذه الدوافع فينا ضبطاً ، وانتظمت انتظاماً . وهذا هو مبعث إعجابنا بنماذج الفن وتأثيرها فينا ، وهو تأثير لا يُردُّ إلى ما يقوله أصحاب الفلسفة الجمالية من أن منشأه شعور جمالي مجرد فإن ذلك يجرُّنا إلى نظرياتهم في الفصل بين ملكاتنا الثلاث ، وهي التفكير والإرادة والإحساس وأن ملكة التفكير هي التي تصلنا بالحقيقة وأن ملكة الإرادة هي التي تصلنا بالخير بينما تصلنا ملكة الإحساس بالجمال في الطبيعة والفنون . وفي هذا ما فيه من فصل بين ملكات الإنسان المذكورة ، بل كأنهم يوجدون بينها حواجز وفواصل ، بينما هي جميعاً عاملة فيه وفي كل ما يصدر عنه من فن وغير فن . ومن ينكر أن الفنان يخضع لملكه العقل وما تبحث عنه من الحقيقة ، كما يخضع لملكه الإرادة وما تبحث عنه من الخير ؟ إن من حقه أن ينشد الحقيقة وأن ينشد الخير وأن يتمثلهما ويصدر عنهما في أعماله . ونحن أنفسنا حين نقرؤه أو نسمعه أو قل حين نبصر تجاربه كما في الرسم أو نسمعها كما في الشعر والموسيقى لانتخلي عن ملكاتنا العقلية ولا الأخرى الإرادية ، بل نظل محتفظين بهما على نحو ما نحتفظ بملكة الإحساس .

ومعنى ذلك أنه ليس هناك إحساس أو شعور جمالي خاص يقودنا إلى تأملات الجمالين وإلى فصل الفنون عن الحياة وقيمها المختلفة ، فتصبح لها قيمة معزولة ، بل إن قيم هذه الفنون هي من نفس قيم حياتنا ، ووظيفتها أن تؤدِّي لنا هذه الحياة في تجارب كاملة ، تجارب لا تحلق في عوالم وراء عالمنا ، بل هي تستمد من نفس عالمنا ، وكل ما هناك أن للفنان من القدرة على جَمْع عناصرنا النفسية والتأليف بينها في تجربة تامة ما ليس للأشخاص العاديين ، وهي عناصر منها ما يستمد من رواسب داخلية في لاشعوره القريب أو البعيد ، ومنها ما يستمد من ذكرياته الغامضة أو الواضحة ، ومنها ما يستمد من مجتمعه ومشاعره . فكل ذلك ينساب في نفسه انسياب الماء في مجراه ، وقدرته إنما هي في جَمْعِهِ وتنسيقه بين عناصره وإحداث العلاقات بينها بحيث تصبح كياناً واضحاً لعمل فني ، له روابطه الحية . وهو في ذلك لا يعلو على حياتنا ولا يخرج منها إلى عالم خاص به ، وإنما هو يستمد من

نفس واقعنا ودوافعه ، ويعيش بيننا ، ولكن هذه المعيشة التي تميزه منا ، والتي تجعل له نبوغاً في أن ينظم ما بداخلنا أو قل ما بداخله ويتمثله تمثلاً دقيقاً ، بحيث يصوغه صياغة جديدة في تجربته ، صياغة تمتزج بروحه وعقله ، يستدعي في أثنائها جميع دوافعه ومشاعره الواعية وغير الواعية ، فهتزّ وتتأثر تأثراً بالغاً حين نبصر عمله أو نسمعه ، وكأنه يصوغنا نحن فيه ، أو قل كأنه يصوغ دوافعنا ومشاعرنا الظاهرة والباطنة .

تجاربُ الفنان إذن ليست فوق مستوى حياتنا ولو أنها كذلك ما تأثرنا بها ولا كان لها صدى في نفوسنا ، إنما نتأثر بها لأنها تخاطبنا وتخاطب داخلنا ، وليس ذلك فحسب ، بل لأنها تصقلنا وتصلق دوافعنا المكبوتة وغير المكبوتة ، وكأنما تجعلنا نشعر بحياتنا شعوراً أكثر عمقاً ، أو قل إنها تجعلنا نشعر بوجودنا شعوراً كاملاً ، إذ تتلاقى عناصرنا الوجدانية الداخلية المتباينة والمتخاصمة ، وتُصاغ صياغة جديدة ، يتمُّ لها فيها كل ما كنا نحلم به من تناسق وتآلف . ومن هنا يأتي تأثير التجربة الفنية ، وهو تأثير عميق ، يفوق أي تأثير خارجي فينا . وإذا كنا نشعر بضرب من الرضا حين نكتسب خبرة عارضة في الحياة ، فإن رضانا عن التجربة الفنية يكون أبعد غوراً ، لأنه يتناول خبراتنا النفسية الداخلية ، وينفذ إلى خبيثها ومكنونها مما يرسخ رسوخاً في دخائلنا . ولعل هذا ما يجعلنا نشعر إزاء هذه التجارب التي يقدّمها لنا الفنانون ، كل في فنه ، بأننا نزداد فهماً للحياة وخبرة بها ، إذ توسّع مداركنا وكأن حياتنا تتضاعف ، ونغمزنا بغير قليل من الراحة والطمأنينة ، وكأننا نجد الأمن والدعة وما نفتقده في حياتنا من السعادة ، فقد خرجنا من التّيه الداخلي لدوافعنا الباطنة المختلطة وما كانت تسببه لنا من ارتباك واضطراب إلى هذه الواحات الجميلة المسماة بالتجارب الفنية ، لننعم بظلالها الوارفة وما تُضفيهِ علينا من هدوء ورضا ونعيم . وهو نعيم ليس خيالياً إنما هو نعيم حقيقي ، فإن الفنانين ينظّمون بتجاربيهم حياتنا العاطفية ، يثيرون كوا منها وما يُختزن من مشاعر في خلايا نفوسنا ، وهم لا يثيرون هذه الكوامن والمشاعر فقط ، بل يضمّون بعضها إلى بعض في تنسيق عجيب ، تنسيق يحدث بينها نوعاً من التآلف ، أو قل من التوازن ، فإذا هي قد خرجت من فوضاها ومن كل ما كان يجري فيها من اضطراب ، وإذا نحن نشعر كأنما أعيد

خلّقنا من جديد ، فنستريح إليها ونطمئن اطمئناناً بالغاً .

وهذا هو تفسير الجمال الفني فهو ليس شيئاً ميتافيزيقياً يرتفع عن حياتنا وانفعالاتنا العاطفية ، مما بحث فلاسفة الجمال عنه كثيراً ، مبتعدين به عن عالمنا الحقيقي وكل ما يتصل به من مؤثرات نفسية ، وبذلك فصلوا بين الفن والقيم الاجتماعية ورفضوا ما سموه بقيم خارجية لا تتصل بقيمه الفنية الحالصة ، بل هو نفس حياتنا العاطفية وعناصرها النفسية ، وكل ما هناك أنه يصوغها ويعيد تنظيمها . وليست هذه قدرة هيّنة ، فالفنانون يجيدون في تجاربهم الفنية بحسب ما يستطيعون من النهوض بهذه الصياغة وذلك التنظيم . ولا شك أنهم يعانون في ذلك ، يعانون في تمثّل ما يصوغون وينظّمون من انفعالاتنا الوجدانية ، ويعانون في تأليفه وإحداث العلاقات والروابط بين عناصره مما يتفوقون فيه على الأشخاص العاديين .

وإذا لم تبلغ التجربة الفنية مدى واضحاً من دقة هذا التأليف لعواطفنا وانفعالاتنا الداخلية فإنها لا تؤثر فينا وبالتالي تكون تجربة رديئة ، فإن الفنان لم يُحسن جمع الدوافع النفسية التي ترتبط بتجربته ولا تنسيقها تنسيقاً يجعلنا نستجيب إليه ، ولذلك لا نُقبل عليه لأنه لم يعرف كيف يتخاطب معنا ، وكيف يتحدث إلى نفوسنا . ومعنى ذلك أن التجربة الفنية ليست شيئاً منعزلاً عن واقعنا ولا هي من عالم فوق عالمنا ، بل هي من نفس عالمنا ونفس حياتنا ومحيطنا النفسي اللّجب . وكما نحس إزاءها إذا كانت ناجحة تامة التأليف بالرضا والسعادة فإننا نحس ، إذا كانت فاشلة ناقصة ، بغير قليل من الحيرة والتعاسة ، وكأن الرحلة التي رحلناها مع صاحبها كانت رحلة مخففة ، إذ لم نظفر فيها بشيء .

ولعل في ذلك كله ما يدل على قيمة الفنون ، فهي التي اختارها الإنسان منذ القدم ، لتعيد له تنظيم دوافعه النفسية الباطنة ، وإذا كان العلم ينظّم لنا حياتنا المادية فإن الفن هو الذي ينظّم لنا حياتنا المعنوية ، وإذا كان العلم يعمل جاهداً على السيطرة على الحياة المادية فإن الفن أيضاً يحاول السيطرة على الحياة المعنوية وإعادة تنظيمها تنظيمياً يجعلنا نشعر بارتياح ورضا عميق . وقد بذل في ذلك محاولات كثيرة ، فعُدّ الفنون من جهة ، وعدد تجاربها من جهة أخرى ، وكل يوم تظهر تجربة جديدة ، فالفنانون ينبعثون في كل مكان للنهوض بهذا العمل الجليل . وارجع مثلاً إلى فن

التصوير وانظر في لوحة من اللوحات فإنك ستجد الرسام يحاول بمجموعة من الألوان ،
يحدث بينها جملة من العلاقات أن يعبر عن تجربة معينة له ، وكذلك الشأن
في التجربة الموسيقية أو القطعة الموسيقية فإن الموسيقى يربط بين طائفة من النغمات ،
لا نسمعها حتى تثير فينا طائفة من الأفكار والعواطف التي تلائمها . وكذلك نحن
حين نستمع إلى قصيدة أو ننظر إلى تمثال فإننا نستجيب إلى ما صنعه الفنان .
وتتشابه هذه الاستجابات في الفنون جميعاً لأنها تثير فينا انفعالاتنا الداخلية ، وتصوغها
صياغة دقيقة ، وهذا هو سر جمالها ، فجمالها ينبع منها ومن نداءها العميق
لدوافعنا ، هذا النداء الذي يتيح لها الاستمرار ، بل البقاء والخلود .

الشعر والتصوير والموسيقى

الشعر والتصوير والموسيقى جميعاً فروع متآخية لشجرة واحدة كبيرة ،
 هي شجرة الفنون الجميلة ، وربما كان أفلاطون أقدم من تحدث عن الفنون
 عامة حديثاً فيه بعض التفصيل ، إذ ذهب إلى أن فوق عالمنا المثل الرفيعة ،
 وكل ما في عالمنا الحسى والعقلى يحاكي مثاله في هذا العالم العلوى ، وهو مثال له
 حقيقته الخارجية التى تترأى في جزئيات عالمنا ، فلكل مثال جزئياته التى تحاكيه
 في الطبيعة . ثم يأتى الفنانون من شعراء ومصورين وموسيقيين فيحاكون الطبيعة ،
 فعملهم محاكاة لمحاكاة الطبيعة ، وهو لذلك يتأخر عن المثال خطوتين أو ثلاث .
 ومن هنا مضى يهاجم الفنون وخاصة فن الشعر ، إذ زعم أن الشعراء يفسدون
 الأخلاق إلا أن يطبعوا شعرهم بطابع الخير .

وعلى هذا النحو مضى أفلاطون يزعم أن عمل الفنون إنما هو إبراز صور للأشياء
 المحسوسة التى تحاكي المثل الرفيع ، فهى ليست أكثر من صورة لصورة ، صورة
 طبق الأصل . وكأنه لم يلاحظ مثالية الفنان ولا تحويره لصور الطبيعة ، ولذلك
 كان أول ما عمد إليه تلميذه أرسطو في كتابه « الشعر » أن قال إن الفن يقوم
 على المحاكاة لأشياء الطبيعة أو لأقوال الإنسان وأفعاله ، ولكن هذه الأشياء والأقوال
 والأفعال لا تحاكي شيئاً وراءها ، وبذلك ألغى عالم المثل الأفلاطونى ، ثم انحدر
 فقرن الشعر إلى التصوير والموسيقى ، ليدل على أن الشعراء والفنانين لا يحاكون محاكاة
 مطابقة للأصل ، فقد يكونون واقعيين وقد يكونون مثاليين يسبغون مشاعرهم على
 ما يحاكونه .

وقد لعبت نظرية المحاكاة دوراً طويلاً في تاريخ الفنون ، فقد ظل النقاد يتداولونها ،
 وكل يؤولها حسب نظريته في الفنون وغايتها ، وهى من غير شك أضيق من أن
 تصور عمل الفنانين ، لأن عملهم قد يتحول إلى خلق خالص ، كما نرى في بعض
 التماثيل وبعض الصور الرمزية ، وكما نسمع في الموسيقى ولبعض نماذج الشعر ، فالفنانون
 قد يخلقون أعمالهم الفنية خلقاً .

ولعل هذه أول رابطة تربط بين فنون الشعر والتصوير والموسيقى ، فهي تكمل الطبيعة في نماذجها ، وقد تخلق نماذجها خلقاً ، ومعنى ذلك أن لملكة الفنان فيها عملاً واسعاً ، فهو يصدر عن نفسه وأحاسيسه ومشاعره ، وكأن كل نموذج له إنما هو صورة خوالجه وصورة ما أوحى له الطبيعة به من مشاهد الحس والخيال ، وهي مشاهد تزدهم بها جنّات نفسه مشاعر وخواطر ، مشاهد كاملة لا نبصرها في لوحة المصور أو نسمعها في نظم الشاعر وفي ألحان الموسيقار ، حتى نشعر كأن حياتنا تتضاعف ، إذ نعيش في نبضات الوجود من حولنا وما يهمس به الكون أو يزجر من همسات وزفرات ، وكأننا نعيش في كل ناطقة وصامتة من ظاهري الطبيعة وباطنها وكل متحركة وساكنة . وهذا جميعه نناله في نظرة واحدة أو في لحظة خلال تلك المشاهد المنتقاة التي يقدمها لنا المصورون والموسيقيون والشعراء ، أو قل تلك المشاهد التي يقدمون لنا فيها مشاعرهم ، مستوحين خيالهم ووجدانهم .

وهي مشاهد جميلة ، وهذه هي الرابطة الثانية بين تلك الفنون ، فهي فنون جميلة ، وهو وصف يفرق بينها وبين الفنون النافعة كفن الطهي والنجارة ، فنون تكشف ما في الكون وما في نفس الفنان من جمال . وتلك متاحف التصوير تقام في كل حين ، فتجذب الناس إليها ليشاهدوا جمالها ، كما تجذبهم حفلات الموسيقى ، وكما يجذبهم الشعر والشعراء . وكلنا نحفظ العبارة المأثورة : إن الله جميل يحب الجمال ، وكذلك يحبه الإنسان في الطبيعة وفي الحياة وفي كل ما يمثلها من فنون .

وهو جمال له مقاييسه في الفن وأوضاعه على نحو ما للجمال في الطبيعة من مقاييس وأوضاع ، جمال نجتليه في لوحة الرسام وفي قطع الشعر والموسيقى ، نجتليه في نماذج معينة محسوسة . ولعل هذا من أهم الفروق بين العلم والفن ، ففي العلم تقوم القوانين والأفكار على تجريدات ذهنية ، إذ يلاحظ العالم ما بين جزئيات مختلفة في الطبيعة مثلاً من تشابه في خاصية أو في قانون ، فيستخلص من هذا التشابه فكرة عامة يصوغها في قاعدة عقلية مجردة . أما في الفن فإن القوانين والأفكار ترتبط بالنموذج الفني المفرد الجميل ، أو قل ترتبط بالنموذج المعين المحسوس .

ولعل هذا ما جعل قواعد الفن صعبة إذ يدخل منها الفنان إلى فنه ، لاليتقيد بالقوالب والصيغ المرسومة ، بل ليستغرق في صناعته ، ويسمع في داخله أصداً

النفس الإنسانية في جَهَرها ونَجَواها ، ويمثّل لنا ذلك عملاً فنياً جديداً ، يجمع فيه أشدّات خواطره ويركّزها في لمحة يلمّ بها البصر أو تلمّ بها الأذن ، فتأخذنا روعة شديدة ، إذ استطاع أن يخلق لنا نموذجاً فنياً ، يثير فينا ما يثيره الجمال من معان وأحاسيس متجددة .

ومعنى ذلك أن في هذه الفنون من الشعر والتصوير والموسيقى وما يماثلها من فروع الفنون الجميلة إبداعاً لا شك فيه ، وقديماً رَدَّ أفلاطون هذا الإبداع إلى إلهام سماوي . وهذا الإلهام هو الرابطة الثالثة بين الفنون ، وقد عرض له علماء النفس المحدثون ، كما عرضوا لفكرة الإبداع أو الخلق الفني ، فقالوا إن كل أثر فني يتخلّق في أربع مراحل ، هي الإعداد أو الدرس والتحصيل ، والحضنة إذ يبدأ الأثر الفني في التولد ، والإشراق وفيه يأخذ الأثر الفني في الظهور ، ثم التحقيق والتنفيذ إذ يتم ظهوره وتخلقه . ومن الفنانين من يبدعون إبداعاً مفاجئاً وفيه يتحقق الإلهام واضحاً ، ومنهم من يبدعون إبداعاً بطيئاً . ويردُّ بعض النفسيين الأثر المبدع إلى الشعور ، ويرده بعضهم إلى اللاشعور ، ومنهم من يتغلغل به إلى ميراث الفنان عن أسلافه ، وهو ميراث يضيف إليه خياله ما يجعل عمله شيئاً جديداً ، إذ ينظّم في المعاني والصور القديمة أو الموروثة ، ويزيد عليها من تصوراتها ما ينفعها الجدة والطرافة .

وتشترك فنون الشعر والتصوير والموسيقى في شيء آخر ، هو أننا لا نحكم عليها بقواعد المنطق ، وإنما نحكم عليها بأذواقنا ، فهي المعيار الذي نرجع إليه في تذوق جمالها . على أنه لا بد أن يكون الذوق مدرباً ، لا من حيث معرفة صاحبه بقواعد الفن الذي يحكم عليه فحسب ، بل بحيث تكون له خبرة واسعة في هذا الفن ونماذجها ، حتى يستطيع الحكم . والناقد للفن في هذا الجانب كالفنان ، فهو مهما عرف من قواعد الفن لا يفيد ذلك شيئاً إلا أن تكون له بصيرة نافذة تلدُّ الجمال الفني . وكم من أشخاص يتقنون قواعد العروض والقوافي ، وهم لا يحسنون نظم بيت من الشعر ولا تمييز الجودة الفنية أو الجمال الفني بين بيت وبيت أو بين قطعة شعرية وقطعة . فمعرفة قواعد الشعر لا تجعل من الشخص شاعراً ولا ناقداً إنما الذي يتيح له ذلك ضرب من اللقاقة أو من الخبرة به يستطيع أن يصنع الشعر كما يستطيع أن

يتذوقه تذوقاً يقدر به الفروقَ بين قصائده ومقطوعاته وأبياته . فلا يختلط عليه التمييز بين بيت وبيت ولا بين مقطوعة ومقطوعة . وبنفس هذا القياس لناقد الشعر ناقد فى التصوير والموسيقى .

وإذا كنا قد لاحظنا بعض الروابط والمشاوہات بين هذين الفنين وفن الشعر فإن فواصل كثيرة تقوم بين حدودها جميعاً ، وقد شكّا « ليسنج » الناقد الألمانى المشهور فى القرن الثامن عشر فى كتابه « لا وكون » من الخلط الناشب بين الفنون وخاصة فنون النحت والشعر والتصوير وما قاله الرومان عن الفنين الأخيرين من أن الشعر تصوير ناطق والتصوير شعر صامت . واتخذ « لا وكون » محور كتابه وهو أحد كهنة طروادة غضبت عليه الآلهة ، فأنزلت به عقاباً صارماً ، إذ سلطت عليه أفاعى ضخمة قتلتها هو وأولاده شر قتلة . هكذا تقول الأسطورة التى أثارت خيال المثالين والشعراء ، من اليونان والرومان ، فصنعوا تماثيل تصور عذاب « لا وكون » والأفاعى تطوقه . ثم جاء فرجيل شاعر الرومان المعروف ، فصور جزعه فى شعره ، وهو تصوير يوضح الفرق بين الشعر وفى النحت والتصوير فى التعبير .

ووجد « ليسنج » فى هذا العمل أو فى هذا الموضوع المشترك مادة كتابه ، ولذلك سماه باسمه ، وقد لاحظ أن الناس يقارنون بين الشعر والتصوير لما يجدون فيهما من جمال ، ولما يخلقه كل منهما فيهم من تأثير مشابه ، ولكن أهذا يكفى لنقول إنهما شئ واحد ؟ إنه لا بد أن ننظر فى طبيعتهما الداخلية وفى مادتهما ، فالشعر فن سمعى مادته الألفاظ ، والتصوير فن بصرى مادته الألوان ، وليست الآذان عيوناً ولا الألفاظ ألواناً .

ولعل أهم ما لاحظته من فروق بين الفنين أن للشعر لحظات فى الزمان والتصوير لحظة فى المكان ، فالشاعر إذا صور شيئاً لم يستطع أن ينقله إليك نقلاً ، إنما يعطيك أثره فيه ووقعه على نفسه وما بعث فيه من أحاسيس ومشاعر وذكريات دفينه ، ومهما أوتى من بيان وبلاغة لن يستطيع أن يجسم ذلك فى صورة معينة ، إنما هى أوصاف تتعاقب فى الزمن ، فتجتمع لك منها صورة ، تؤلفها لنفسك من أشتات الألفاظ . أما المصور فيجمع لك ما يصوره بجميع قسماته وأجزائه فى مكان أو فى رقعة أو لوحة ، فتراه بعينيك فى لحظة وتبصره فى نظرة واحدة . وليس معنى ذلك أنه ينقل

المنظر من مناظر الطبيعة نقلاً مطابقاً لواقعه ، فخياله وأحاسيسه تضيف إليه ما يثير فينا خوالج مختلفة . وهو بمجرد أن يخلص من تصويره ترى كل الصورة التي ارتسمت في نفسه على لوحته ، فهي صورة محدودة بمساحة خاصة تمتزج فيها الألوان وتتلاحق الكتل المضيئة والمظلمة ، متباينة في أشعتها النيرة وظلالها القائمة .

ومهما تلاعب المصور بالظلال والأضواء وأجرى فيها من حياة ومهما خالف بين الظلال فجعل بعضها خفيفاً في قتمته وبعضها ثقيلاً داكناً ، ومهما خالف بين الأضواء فجعل بعضها مركزاً وبعضها غير مركز ، فإنه مقيد بإطار خاص ولوحة خاصة ، من شأنهما أن يحددّا المشهد ويصغّراه ، حتى تضمه رقعة صغيرة .

وتحديد هذه الرقعة يجعل من الصعب عليه أن ينقل مشاهد الطبيعة الضخمة ، وهب أنه يريد أن يصور منظراً واسعاً كمنظر الصحراء فإنه لن يستطيع ذلك إلا أن يمثل جزءاً بعينه ، تسمح رقعته بتصويره . وقد يكتفى بتصوير فضاء وبعير يسير فيه . فليس من السهل على المصور أن يرسم مشهداً واسعاً من مشاهد الطبيعة ولا أن يرسم منظراً جليلاً رهيباً كمنظر هوة سحيقة تحت أقدام جبل شامخ . أما الشاعر فما أهون ذلك عليه لأنه غير مقيد بمكان خاص أو رقعة خاصة ، وعنده من أدوات التعبير اللفظية ما يستطيع به أن يستثير خيالاتك إذا صور شيئاً رهيباً ، وعنده من فسحة الزمن ما يستطيع به أن يصور لك المناظر الطبيعية الواسعة متتابعة متوالية . فالمناظر الجليلة والواسعة في الطبيعة لا يستعصى على الشاعر تصويرها ، لأنه يستطيع تمثيلها بالصور المتلاحقة ، وهي صور لا تتجمع أجزاءها في رقعة محددة ، بل نحن الذين نربط بين هذه الأجزاء ونكوّن منها كلاً عاماً بسرعة شديدة ، حتى ليخيل إلينا أنها جميعاً صورة واحدة . وهكذا يقودنا الشاعر من جزء إلى جزء في الصورة ، أما المصور فيعرض علينا أجزائها كلها دفعة واحدة .

وليس ذلك فقط فالمصور يتقيد في صورته بأوضاع خاصة ، لا يستطيع تخلصاً منها ، فهو إذا صور إنساناً صورّه في وضع بعينه ليعبر عن فكرته ، على نحو ما نرى في تمثال « لا وكون » فقد نُحت وهو يصيح فرعاً تلك الصيحة التي نرى فيها ألمه وحزنه ، وهي صيحة تستمر ما استمر التمثال . أما فرجيل فقد جعله يتألم من لدغة الأفعى وكأنها تركت به جرحاً لا يبلغ ألم أي جرح آخر ، فقد كان

عقاب الآلهة ، ومن ثم لم يوجد من يعطف عليه أو يواسيه .

ومعنى ذلك أن الشاعر لا يحسّم الصورة في وضع معين ، بل هو يحركها في أوضاع مختلفة تسعفه في ذلك لحظات الزمن المتتابعة التي يصور فيها صورته ، وهي صورة تنبض بالحياة وبالعواطف البشرية ، ليست صورة جامدة . وقارن بين الآلهة عند مثالي اليونان وشعرائهم فإنك تجدها عند الأولين تمثل فكرة محدودة ، أما عند الأخيرين فإنها مخلوقات حية ، تنفعل وتتأثر وتحب وتكره وتغار وتغضب وتتقم . وقد مثلوا جميعاً قينوس إلهة الجمال والحب ، أما المصورون فأسبغوا عليها كل أنواع الجمال والفتنة المغرية ، وأما الشعراء فصوروها إنسانة لها مشاعرها وأحاسيسها تغضب حيناً وترضى حيناً ، وتستسلم لعواطف متباينة .

ولا يزال « ليسنج » يقارن بين وظيفتي الفنانين ، وكيف أن لحظات الزمن المتعاقبة تتيح للشعراء ما لا يتاح للمصورين ، فقد وصف « هوميروس » تُرُس « أخيل » في عشرات الأبيات من الشعر ، وصف مادته وشكله في عبارات خلاصة يستطيع المصورون أن يصوروا منها أتراساً مختلفة . وكل ذلك ينشأ من أن المصورين يعطوننا أوصافاً مادية يتقيدون بها ، ومن خلالها نشاهد ما يصفون ، أما الشعراء فيعطوننا أوصافاً معنوية ، لا نشاهد عن طريقها ما يصفونه ، وإنما نتخيله . وانظر إلى هوميروس حين أراد أن يمثل لنا جمال « هيلين » فإنه لم يعمد إلى وصف أعضائها وجسدها على نحو ما يصنع المصورون والمثالون بل اكتفى بمثل : جمالها سماوي . ولم يدخل في تفاصيل هذا الجمال ، ومع ذلك تجد عنده مقطوعة طويلة يصف فيها جمالها أوصافاً عامة تحدث فينا الأثر الذي يريده ، أو قل الصورة الجميلة التي يريدها ، وهي تراءى في مخيلة كل منا بصورة ، تختلف من شخص إلى شخص حسب خياله وتأثره .

ومعنى ذلك أن الشاعر لا يعرض — كما يعرض المصور — الجمال المادي ، إنما يعرض أثره فيه ، ومعروف أن المصورين يعلمون تلاميذهم كيف يرسمون الجسد وأعضائه من عين وأنف وأذن وفم وقدم ، وكيف تكون النسب ، حتى تتوازن في الجسد وتناسب تناسباً دقيقاً . وشيء من ذلك لا يصنعه الشعراء ، فهم لا يتجهون هذا الاتجاه العضوي ، وهم يحسون دائماً أن ألفاظهم لا تستطيع القيام بتصوير الجمال ، ولذلك

يعمدون إلى التشبيه والاستعارة والإثارة بطرق مختلفة كأن يصور لنا هويروس جمال «هيلين» وسحرها وفتنتها عن طريق انفعالات من شاهدها ومبلغ إعجابهم بها ، وقد صور فيهم الدهول الذى يصيب الرجال حين يرون امرأة فاتنة ، وترك قارئه يتصور فتنتها بنفسه ويتخيلها كما يشاء متمتعاً بهذا المنظر الخيالى الرائع.

فالشاعر — وخاصة البارع — لا يصور غالباً تصويراً عضوياً ، وإنما يستعين بما يثير فيك من انفعالات ، على أن تتخيل صورة الجميل الذى يصوره وصورة جسده وأعضائه ، فإذا تحدث عن عينين جميلتين لا يقول لك إن جمالهما نبع من سوادهما أو لمعانهما وإنما يقول مثلاً إنه نبع من النظرة الحلوة الفاترة ، وإن الحب يحقق حولهما ويطلق سهامه . ولا يقول لك إن فم صاحبتة جميل لأن شفيتها تفرّان عن عقدين من اللؤلؤ ، ولكن يقول لك مثلاً إنه جميل ، لأنه يرينا ضحكة الحب الملهم أو ضحكة البراءة التى تفتح أمامنا أبواب السعادة والنعيم . ويقول إن صدرها جميل لا لأنه يرينا صورة اللبن أو العاج ، ولكن لأنه يرى فيه تماوجاً يشبه تحرك الموجات على الشاطئ .

ويستطيع المصور أن يصور الذقن فى استدارة جميلة وأن يضع عليها «طابع الحسن» الرشيق ولون البشرة البديع ، ولكنه لا يستطيع أن يعطيها شيئاً بعد ذلك ، فهى تثبت عند وضع معين ، ولا تستطيع أن تتحرك إلى أعلى ولا إلى أسفل . أما الشاعر فيستطيع أن يعطينا ذلك كله بلغته المتحركة ، فيمثلها لخاطرنا تمثيلاً

وعلى هذا النحو تقوم فروق واسعة بين الشعر والتصوير ، وهى فروق تُردُّ إلى اختلاف موادهما ووظيفتهما ، إذ التصوير يحسّم الجمال تجسيمياً فى رقعة محدودة ، أما الشعر فيوزعه فى لحظات زمنية تتيح للشاعر أن يصف الحركات المتعاقبة ، وهو دائماً إنما يصف وقّع الجمال وما يبعثه من الإحساسات والمعانى . وكنا نتمنى لو أن «ليسنج» ألف كتاباً آخر فى علاقة الشعر بالموسيقى ، إذن لربح النقد ربحاً عظيماً ، ولربحت الفلسفة الأدبية أيضاً ربحاً وفيراً ، فقد عمّ ذوق أدبى جديد بعد نشره لهذا الكتاب وما ضمنه فيه من آراء كثيرة فى النقد وفلسفة الجمال جميعاً

وربما كانت صلة الشعر بالموسيقى أقوى منها بالتصوير ، فكلاهما فن سمعى ، ومادة الموسيقى الأصوات ، ومادة الشعر الألفاظ وهى تنحلُّ إلى أصوات . وكلاهما

يوقظ الغرائز بأقوى مما يوقظها التصوير ، وهما أقدم منه في النشأة . ولعل الموسيقى أعمق في القدم ، لأنها أصوات خالصة ، والأصوات أسبق في نشأتها من اللغات ، فقد مضى على الإنسان حين من الدهر يعبر بأصوات خالصة كما تعبر الحيوانات الراقية بها عن إحساساتها ، ثم أخذ يحددها ، وينشئ ألفاظاً تصورها فكانت اللغات .

واتخذ الإنسان اللغات وألفاظها وسيلة للتفاهم فتحددت دلالاتها ، وأصبحت أداة طيعة مرنة للتعبير عما في نفسه ، أما الموسيقى فظل لما كثير من إبهامها القديم ، وحقاً يدلُّ الموسيقيون ببعض قطعهم على معانٍ ، ولكنها معانٍ غامضة لا تدل دلالة واضحة ، إنما تدل دلالة مبهمة ، دلالة لا يملكها حقاً سوى صاحبها ، ولذلك كان من الصعب نقلها أو روايتها ، بخلاف الشعر فإن الناس يحفظونه ويتناقلونه .

ولعل هذا ما جعل الشعر يخلد ، فلو أنك بحثت عن القطع الموسيقية التي وقعتها الأمم القديمة لم تجد شيئاً مذكوراً ، أما الشعر فلا يزال باقياً ، لأن من الممكن نقله من جيل إلى جيل عن طريق الرواية الشفوية . وحتى في عصرنا لكي تسمع الموسيقى ينبغي أن تذهب إلى المكان الذي توقع فيه وأن تهبي نفسك تهباً خاصاً ، فسترى الموسيقى في حفل ، ولن تراه رؤية شخصية ، بل ستراه في جماعة ، وللجماعة تقاليدها . أما الشاعر فإنك تقرأه وأنت معه وتقرأه وأنت بعيد عنه ، وتقرأه في حياته وبعد موته ، ولا تتطلب منك القراءة مكاناً خاصاً ولا زماناً خاصاً . وحقاً إن القطع الموسيقية تسجل الآن ولكن هذه ظاهرة جديدة ، لم تكن معروفة في القديم ، أما تسجيل الشعر بالمطابع فلا يعطينا شيئاً جديداً من حيث تسجيله ، لأن الناس كانوا يسجلونه في ذاكرتهم قبل أن يكتبوه وقبل أن يقدموه لحروف الطبع ، فكانت روايته تقوم مقام المطبعة الآن .

على أن هذا كله لا ينفي الصلة الشديدة بين الشعر والموسيقى ، فهوبها أمس رحماً وأقرب قرابة من التصوير ، لأنهما يعتمدان على الأداء الصوتي وإن اختلفت لغتاهما واختلفت قدرتهما على هذا الأداء . فجوهرهما واحد ، ولذلك كانا يتحدان أو يكمل أحدهما الآخر ، فالشاعر ينظم قصيدة والموسيقار يلحنها ، وقد يسبق الموسيقار فيصنع لحناً ، ويطلب إلى شاعر أن يضع قصيدة تلائم . فالفنان

يلتقيان ، وقد يتحدان .

وأدخلُ من ذلك في لحمه القرابة أن الشعر يعتمد على الموسيقى في أدائه ، فلا بد أن يوضع في أوزان . وأغلب الظن أنهما كانا مترابطين في أول نشأتهما ترابطاً وثيقاً ، ثم انفصلا بمضى الزمن ، ورقى كل منهما ، وأصبحت له طبيعته الخاصة . ولا تزال طوابع هذه النشأة بارزة في الشعر ، فلا يوجد شعر بدون موسيقى ، وهى فيه تقوم مقام الألوان في الصورة ، فكما أنه لا توجد صورة بدون ألوان كذلك لا يوجد شعر بدون موسيقى وأوزان وأنغام .

وإذا كان أصحاب الموسيقى يلاحظون أنها تختلف من جهات أربع هى طول النغمة وقصرها ، وغلظها ورقتها ، وارتفاعها وانخفاضها ، ومصدرها ، فكذلك نستطيع أن نلاحظ ذلك في الشعر ، فبعض تفعيلاته أطول من بعض ، ففاعلتن في بحر الكامل أو وزن الكامل أطول من فعولن في وزن المتقارب . وبعض الألفاظ قوى جزل وبعضها رقيق عذب . وبعض الشعر يحسن أن ينشد في جلبة وقعقة كشعر الحماسة وبعضه يحسن أن ينشد في هدوء وبدون جلبة كشعر الرثاء . أما مصدر الصوت واختلافه في الشعر فيتضح في الوزن الذى يختاره الشاعر فهو يقوم من شعره مقام الآلات الموسيقية من ألحانها .

على أن موسيقى الشعر لم يُضَبَطْ منها إلا ظاهرها وهو ما تضبطه قواعد علمى العروض والقوافى . ووراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات ، وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام . وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء ، ولعل شاعراً عربياً لم يستوف منها ما استوفاه البحرى ، ولذلك كان القدماء يقولون إن بشعره صنعة خفية ، فشعره أصوات جميلة وغناء مطرب ، وقلما وجدنا عنده تجديد فى المعانى ولكن دائماً نجد عنده الأصوات المعجبة والألفاظ الجميلة ، فهو بلب الشعر العربى يصدق دائماً بأنغامه .

وقد نبهت هذه الصلة الشديدة بين الشعر والموسيقى أصحاب المذهب الرمزي في القرن الماضى وفي هذا القرن إلى ما فى ألفاظ الشعر من كيمياء موسيقية ، فأخذوا يتفرون على درسها وإحكام استخدامها واستخراج كل ما يمكن من رنين فيها

وفي حروفها وحركاتها بحيث تلائم الحواسّ وتحرك بنبراتها الأحاسيس والمشاعر .
وقد رأوا في ألحانها ألواناً باهرة ، وأحسوا كأنهم جاءوا لإبلاغ سحرها وفتنتها .

وبذلك أصبحت إيقاعات الألفاظ مادة أساسية في الشعر الرمزي ، يعبرون بها
عن خلجات أنفسهم تعبيراً موسيقياً تاماً ، تعبيراً يُقصدُ به إلى الإيحاء بنفس الرنين
والنغم ، أو كأنهم يستكملون به ما لا تستطيع معاني الألفاظ أن تؤديه من الأحاسيس
والمشاعر ، أو كأنهم يريدون أن تكون موسيقى الشعر نفسه موسيقى تعبيرية تنقل أحوالهم
الوجدانية وخواطرهم النفسية نقلاً غامضاً موعزاً .

أوزان الشعر وقوافيه

منذ وُجد الشعر وجدت معه الأوزان ، فالشاعر لا ينطق بكلامه في لغة عادية وإنما ينطقه موزوناً ، وكأنه يلبيّ فينا غريزتنا أو فطرتنا الأولى قبل أن تنشأ اللغات ، إذ كنا نتصايح بأصواتنا ، وكأنما كل صيحة كانت كلمة أو قل كانت قصيدة ، نعبرُ بها عن مشاعرنا وإحساساتنا ، تلك الإحساسات والمشاعر التي كانت تشبه محيطاً متجمداً .

وأخذ الإنسان يذيب جوانب من هذا المحيط عن طريق الألفاظ والغناء بها ، وكأنما يريد عن طريق ذلك الغناء أن يحلّ عقدة لسانه ويذيب شيئاً من التجمد الذي يشعر به في محيط نفسه ، وأيضاً في المحيط الخارجي للوجود الذي يشبه هو الآخر محيط النفس إذ يكتظ بالرموز ، وإنها لتغلّفه ، وتملؤه بما يشبه الطلاسّم والألغاز . وهو يجنّأ هنا وهناك بالصراخ والغناء والنشيد ، يلفظ ببعض الكلمات ، وكأنه يريد بها أن يفتح الأبواب الموصدة على عالم نفسه وعالم الأشياء من حوله . وتراءى له العالمان جميعاً في صورة من النغم ، فالنغم جوهر الوجود ، وكل ما فيه يزخر بالنغم ، سواء الجبل الشامخ بصخوره والبحر المتلاطم بموجه والعاصفة المزججة بزوابعها والشمس المنيرة بأضوائها والقمر المضيء بأشعته والنجوم اللامعة والأشجار اليبانة ، فكل ذلك يفيض بنغم كأنه لهب مندلع ، وهو نغم تتجاوب أصداؤه في نفس الإنسان .

وكانما الشاعر في كل أمة هو هبة الطبيعة التي تُرسل إلى سمعه بأنغامها ، فتنسب في داخله وتسبح كالعطر من حوله فإذا هو يحاكيها في كلامه ، وإذا كلامه أناشيد . إنه ليس الكلام الذي ننطق به ، إنه كلام يرقص . كلام لا تزال فيه بقية الأنغام الأولى التي كنا نتناجى بها في أصل وجودنا ، وحين أخذنا نحول صياحنا إلى ألفاظ ذات حروف ومقاطع وحركات .

ومع نمو حياتنا الإنسانية ونمو سيطرتنا على هذه المواد التي اتخذناها للبيان مواد اللفظ والكلمات أخذ الشعر ينمو ، ولكن لم يفارقه النغم والنشيد ، فهو لبّه وصميمه . وإذا كان الموسيقيون يستطيعون أن يعبروا بأصوات موسيقاهم عن فرحهم

وحزنهم ، بل لقد أخذ تعبير الموسيقى يَرَقَى في أدائه حتى أصبح صوراً وقصصاً يصلون فيها الموسيقيون ويحولون فإن الشعراء هم الآخريين رقيت أنغامهم وألحانهم على طول الزمن .

وأول صورة راقية لأنغام شعرنا العربي وألحانه هي صورة العصر الجاهلي ، وهي خاتمة صور كثيرة سبقتها من فجر الإنسانية الذي انبثق في صحراء العرب إلى أوائل القرن السادس للميلاد ، إذ أخذت صيغتها النهائية في تلك الأوزان والبحور التي اكتشفها الخليل بن أحمد في أوائل العصر العباسي ، فوضع لأول مرة علم العروض ، وأتبعه بعلم القوافي .

وقد سموا المنظومة على وزن من هذه الأوزان باسم قصيدة ، وهي تتألف من وحدات تسمى أبياتاً ، وتشارك جميع الأبيات في وزن واحد وقافية واحدة . وأصبح ذلك تقليداً ثابتاً في العصرين الجاهلي والإسلامي ، فالشاعر إذا افتتح قصيدته بيت ارتبط بوزنه وقافيته إلى خاتمتها .

ويذهب نقاد العرب القدماء إلى أن أول وزن ظهر من تلك الأوزان هو وزن الرجز الذي كانوا ينشدونه في أثناء حُدائهم للإبل وكأنهم يحاكون بما فيه من صلصلة وأصوات وقع أخفاف الإبل على بساط الصحراء الواسع . وإذا أخذنا نتأمل في الأوزان المختلفة التي اكتشفها الخليل بن أحمد وجدنا بعضها يجرأ ، كما هو معروف في وزني الكامل والبسيط . وهي جميعاً يدخل فيها زخافات كثيرة ، وبذلك تتعدد صور الأوزان ، حتى لتبلغ نحو الثمانين . وهو غنى واسع في أوزان الشعر العربي القديم ، لانعرفه لأي شعر من أشعار اللغات الغربية . ولعل وزناً لم تتعدد صورته كما تعدد الرجز ، وكانوا ينظمونه في الحُداء وفي الحرب وحين يَمْتَحِنون من بر أو يقومون بأي عمل من الأعمال . فكانوا يصنعون منه البيتين ، أو الأبيات القليلة ، وفيه نرى الشطرين مصرعين ، فالقافية تتكرر مع كل شطر ، وكأن الوحدة فيه لم تكن البيت وإنما كانت الشطر ، ومَدَّ الإسلاميون أطنا به ، فصنعوا منه منظومات مطوّلة ، تناولوا بها موضوعات القصائد المختلفة ، ولكنهم احتفظوا لها باسم يميزها هو الأرجوزة والأراجيز .

ومهما يكن فإن أوزان الشعر العربي كثيرة الصور ، ولعل هذه الكثرة جاءت

من أن حياتهم لم تعرف الاستقرار ولا المساكن الثابتة ، فقد كانوا ينتقلون وراء الغيث والمراعى تنقلاً دائراً ، ولكن مع ذلك لا تبدأ القصيدة بصورة معينة من صور الوزن حتى تستقر فيها ، وحتى تصبح أساساً لجميع النغم الذي يتاوها . فالشاعر لم يكن يترك لنفسه حرية التنقل في قصيدته من وزن إلى وزن ، فالأبيات تتوالى متشعبة بعضها ببعض ، وكل بيت يُمسك بأخيه في توازن نغمي دقيق ، يطرد إلى نهاية يستقر فيها النغم ، وهي القافية فهي قرار البيت ، وعندها يصل اهتزاز اللحن إلى غايته ، إذ يتم إيقاعه .

وكل هذا يعنى توازناً شديداً في نغم القصيدة الجاهلية ، توازناً في جميع عناصرها الموسيقية ، وهو توازن يطوى ارتباطاً متبادلاً بين الأبيات ، بل لكأنه يطوى قوة جاذبة تجذب بعضها إلى بعض ، حتى تدور في محور واحد ، على نظام محكم في التفاعيل وفي الحركات والسكنات ، نظام كأنما تقيسه آلة من آلات الزمن الدقيقة ، فلكل بيت لحظة في الزمن لا تقل ولا تكثر عن لحظة البيت الذي يسبقه أو يتلوه ، حتى لا يحدث اختلال في انفعالات السامع ، بل حتى لا يحدث أدنى اختلال ، فتموجات النغم متسلسلة ثابتة ، يخفق معها القلب ويتركز السمع تركزاً شديداً ، فليس هناك أى اهتزاز غريب عن النغم ، وليس هناك أى نشاز أو تشويش . إنه نظام دقيق يعبر في استيفاء بالغ عن انفعال الشاعر ، وكأنهم عرفوا معرفة تامة مدى تأثير النغم الكامل في السامع ، فهم يوفرونه في حرص شديد ، وكأننا لا نستمع إلى ألفاظ فحسب ، وإنما نستمع أيضاً إلى موسيقى ، ينتظم فيها الإيقاع إلى أقصى حد ممكن .

فكل إيقاع ينتظر الإيقاع الذي يليه ولا مفاجأة ، إذ تتوالى الاهتزازات والانسجومات الصوتية اللاحقة كأختها السابقة ، ولا يوجد بين ألفاظ وأخرى أدنى احتكاك أو أدنى اصطدام ، بل تتسق وتلتئم محتفظة بنفس الرنين ، رنين تنتقل موجاته إلينا ، وكأنما تعيد تنسيق شيء فينا ، فقد بلغت من كمال الألحان مبلغاً عظيماً ، حتى لكأن الإيقاعات تُعدُّ عدداً ، فهي دائماً عدد منتظم ، لانقص فيه ولا زيادة ، عدد بعينه من الاهتزازات الصوتية والموجات الموسيقية . عدد يأخذ شكل قانون صارم ، ففيه تكمن القوى الخفية الغريبة للشعر العربي ، حتى كانوا لا يميزون بينه وبين

السحر ، وكأنهم شعروا أن فيه شيئاً خارقاً . وليس هذا الشيء إلا ما كان يحمله من إيقاعات منتظمة ، يُحدث انتظامها التام فيهم نفس الانفعال الذي يحدثه السحر ، ويظلُّ هذا الانفعال قائماً ما ظل الشاعر ينشد هذه اللحظات المتساوية وكأنهم يفنون فيها فناء . إنها لحظات تتساوى في جميع إيقاعاتها ، كما تتساوى في أطرافها ونهاياتها عن طريق القافية ، فهي الضربة الأخيرة التي تثبت عندها كل لحظة موسيقية ، وتتوالى اللحظات والضربات وكأنهم لا يستمعون إلى شعر فحسب ، بل يستمعون إلى موسيقى تسبح بهم في آفاق الصحراء أو تطير بهم في الهواء يمينا وشمالا وصعوداً وهبوطاً .

ولم تعرف لغة من اللغات القديمة كل هذا النظام الدقيق للشعر وإيقاعاته واختتام هذه الإيقاعات بالقوافي . ولعل ذلك كان أهم سبب في أن الشعر العربي ظفر بكل شعر لقيه بعد الفتوح الإسلامية ، فلم يثبت له الشعر الفارسي ولا غير الشعر الفارسي مما اصطدم به في طريقه الطويل من الهند والصين إلى جبال البرانس في إسبانيا ، بل كان كل شعر يلتقي له عن يد ، إذ هو بحر متلاطم من النغم ، كل من يقف على شطآنه يأخذه الانبهار والعجب .

وبمجرد أن تعرب الفرس وغيرهم من الأمم الإسلامية أخذوا يخوضون عبابه ، وكل منهم يحمل نفس القيثارة العربية البدوية يلحن عليها خواجه وشجونه ، غائصاً في ذلك التيار الموسيقي البهيج ، شاعراً بروح منه تسرى في أعطافه . وسرعان ما اندمجوا في التيار ، فضبطوا نغمهم على نغمه ، وأدوا به حركات نفوسهم وخواجه أداء رائعاً . وليس معنى ذلك أنهم لم يجددوا في معانيهم ولا في موضوعات شعرهم ، فقد جددوا فيهما كثيراً ، وخرجوا بالشعر من مجاله البدوي القديم إلى مجاهم الحضري الجديد ، فاستحدثوا فنوناً لم تكن معروفة ، وصوّروا حياتهم من جميع أطرافها لاهية وزاهدة ، متمثلين لثقافتهم الحديثة .

فهم قد أضافوا جديداً كثيراً ، وجددوا في القديم نفسه ، إذ استغلوا أوسع استغلال كل عناصر الشعر السابق لهم من أخيلة ومن معان ، فولدوا فيها وشعبوها شعباً وفرعوها فروعاً . وهكذا اقترنت المدنية بالبداءة ، وأنجبت هذه الثمار الشعرية الرائعة ، بل قل هذه الواحات الجميلة ، التي أفاء إليها الشعر العربي بعد

سيره الطويل في الصحراء العربية ، واستراح في ظلها واستروح في رياضها .

وعلى هذا النحو لم يختلف شعر الواحات العباسية عن شعر البدو في صميم تكوينه الموسيقي ، فقد ظلت القصيدة تتحد في أوزانها وقوافيها برغم اختلاف الحياة واختلاف الثقافة ، وكأنما اجتفظوا بنظامها لما فيها من قُوَى رائعة نادرة على اكتمال الأصوات في الشعر ، واستنار هذا النظام بأضواء حضارية وثقافية ، ولكنها لم تغيّر منه ، بل امتزجت به بل قل تحللت فيه إلى ما يشبه ألوان الطيف الزاهية

وحنناً استحدثت العباسيون ضرباً من المقطوعات الخمسة ، استحدثت بشار ، إذ تتوالى القصيدة في وحدات خماسية الشطور هي أصل الشعر المعروف باسم المسقط ، كما استحدثت بشار ومن جاءوا بعده ضرباً من الشعر المزدوج ، تتوالى فيه وحدات القصيدة ثنائية الشطور فكل شطرين فيها يتحدان في قافيتهما . غير أن الشعراء لم يستجيبوا للضربين ، وإن كان قد أخذ يشيع الضرب الثاني معتمداً على قالب الرجز عند أبان بن عبد الحميد وأبي العتاهية ، وقد استخدمه الأول في نظمه لكليلة ودمنة واستخدمه الثاني في أرجوزته « ذات الأمثال » . وكأنهما هما اللذان هتئلا لشيوع هذا الضرب في الشعر التعليمي الذي ينظم بعض جوانب المعرفة . فقد مضى الشعراء التعليميون من بعدهما يتخذون هذا الرجز المزدوج وسيلة في نظم التاريخ والعلوم ، وكأنما اختاروه من بين أوزان الشعر ، لما فيه من حيوية وقدرة على إثارة الانفعال حتى يجذبوا الناس إلى موضوعاتهم التعليمية الجافة التي لا يجدون فيها نظرة الحياة ، فلجأوا إلى أنغامه الغنية .

غير أن هذا كله كان خارج دوائر الشعر الحقيقية ، فقد ظلت القصيدة تحتفظ بنظامها القديم في وحدة أوزانها وقوافيها ، وكأن الشعراء أحسوا في عمق أن هذا النظام أرفع ما يصل إليه الشاعر في تعبيره الموسيقي الذي يؤثر به في العقول والقلوب والأفئدة ، فالألحان تنفرج وتبتعد لتتلاقى في نسق صوتي يأخذ بعضه بتلايب بعض ، نسق ينتهي دائماً بقافية واحدة .

وبلغ من إحساسهم بجمال القافية أن حاول أبو العلاء أن يدخل عليها ضرباً من الغنى والثراء ، فنظم ديواناً ضخماً اشترط فيه على نفسه لا أن يلتزم الحرف الأخير

فى الأبيات فحسب ، فهذا جهد يستطيعه كل الشعراء ، وإنما أن يلتزم حرفاً آخر أو حرفين آخرين قبل الحرف الأخير المسمى بالرّوى . غير أن أبا العلاء ضيق بذلك الأبواب أمام الشعراء ، وأحسوا أن هذا التضييق من شأنه أن يعقد فى الشعر وأن يقيد من حرية الشاعر ، وأن يبعثه على الاهتمام بنغمة القافية اهتماماً يؤدى ما قبلها من نغم فى البيت ، إذ يضطر إلى استخدام ألفاظ غريبة أو نابية من شأنها أن تقف التدفق الموسيقى أو تعطله تعطيلاً .

وعلى هذا النحو لم يُعجب الشعراء بهذه القيود التى أدخلها أبو العلاء على القافية ، فقد أحسوا أنها قيود وأغلال ثقيلة ، لذلك نفروا منها نفوراً شديداً ، وظلوا عند صورة القصيدة القديمة ، فهى الصورة المثلى التى تبتقى للشاعر على حريته إزاء النغم والإيقاع المرسوم تامة كاملة .

وظهر فى أقصى الغرب بالأندلس نظام جديد للقصيدة هو نظام الموشحة ، وهو يختلف عن نظام القصيدة التقليدية من وجهين : الوجه الأول أنه يتألف من صوتين أو لحنين ، والوجه الثانى أن كل صوت تجرى فيه شطور متتابعة . وتتكون أنغام الصوت الأول عادة من شطرين أو من أربعة أو ستة ، وفيها تُلتزم قوافى الشطور كلها فى الموشحة ، فهى المركز الذى تدور عليه أو الفلك الذى تجرى فيه . أما الصوت الثانى فيتألف عادة من شطور ثلاثة وقد يزيد إلى سبعة ، ولا يلتزم فيه سوى الوزن ، أما القوافى فتختلف من دور إلى دور ، أما فى الدور الواحد فتلتزم بنفس الصورة فى جميع الشطور إن تألفت من شطور ، وفى الشطور المتقابلة إن تألفت من أبيات ذات شطرين .

وواضح أن الموشحة تخالف القصيدة ، فالوحدة فيها ليست البيت المفرد وإنما المقطعة المركبة ، وقد تؤلف من وزن واحد ، وقد تؤلف من وزنين ، فكل صوت أو لحن وزنه الخاص . وقد تفتنوا تفتناً واسعاً فى أشكالها وصورها ، واستحدثوا فيها أوزاناً جديدة ، ولندوها من الأوزان القديمة ، لكن لا تظن أنهم حين عددوا الأوزان والقوافى فى الموشحة واصطنعوا هذا النظام الجديد فيها تساهلوا فى النغم الذى تتألف منه . إن كل ما أرادوه هو تنويع النغم ، حتى ينوعوا الانفعال الذى يفقد إلى قلب السامع ، لكنهم قيدوا هذا النغم بقيود شديدة ، حتى لا تفقد الموشحة الجمال

الصوتى القديم فى القصيدة . فقد التزموا فى المركز أو القفل وحدة القوافى فى شطوره المتقابلة . وتظل هذه الوحدة فى جميع المراكز ، وكأن ما نقصهم من توحيد القافية فى جميع أبيات القصيدة أكملوه بهذا التعادل الدقيق فى قوافى الشطور التى تكون منها المراكز أو الأقفال .

فقانون ائتلاف النغم حاد صارم فى الموشحة ، رغم ما يبدو من تنوع فيه ، فهو يتغذى من نفس أشعة النغم القديم فى القصيدة . وبمجرد أن تطرق الأذن بإيقاعاتها الرنانة السريعة والبطيئة نحس بتعادل وتوازن شديد ، وهو توازن يطرّد فى الموشحة جميعها فى كل مراكزها وأدوارها أو فى كل كتائبها الموسيقية ، توازن ضبط أقوى ما يكون الضبط .

ولم يقف وشّاحو الأندلس عند هذه الصورة الدقيقة من ضبط النغم ، فقد عنوا أشد العناية بألفاظهم ، حتى يضيفوا إليها كل ما يمكن من خفة ورشاقة ، وحتى يكون لها فى الآذان أجمل وقع بما تحمل من بريق صوتى ، بل قل من صفاء لا يعدله صفاء . وحلاوة لا تعدلها حلاوة .

وهكذا أصبح جمال الموشحة يقاس بقدرة الوشّاح على أن تكون كل كلمة فى موشحته نغمة حلوة رشيقة ، وكأنما أعطتهم لغتنا من نفسها كل ما تملك من نغمات وإيقاعات ليؤلفوا هذه العقود من الألفاظ ، بل هذه الدُرر من الأصوات التى تهمر على سامعها ألحاناً راقصة ، تُشيع فيه نشوة من الفرح الموسيقى على نحو ما نسمع فى مطلع موشحة لابن هرودّس إذ يقول :

يا ليلةَ الوصل والسعودِ بالله عودى
كم بتُّ فى ليلةِ التمنى
لا أعرف الهَجَرَ والتجنى
ألم تغرِ المنى وأجنى
من فوق رُمّانتى نهودِ زهرَ الحدودِ

وتمضى الموشحة على هذا النمط ، وكأنها بحر من النغم تغرق الأذن فى خضمّه . وعلى غرارها موشحات ابن زُهر والأعمى التّطيلي وابن حرّمون وغيرهم كثير . وبجانب الموشحات ظهرت عندهم الأزجال وهى تنهل من نفس المعين ، إلا أنها تعتمد

على اللغة الشعبية . وهذه وتلك انتقلت إلى المشرق وكان أكبر من أظهر في الموشحات نبوغاً وتفوقاً ابن سناء الملك المصرى . على أنها سرعان ما أصابها في العصور المتأخرة نفس التجمد والتكلف الذى أصاب القصيدة التقليدية ، وكأنما جفت في النفوس حينئذ ينابيع الأصوات التى كان يرشف منها الشعراء ، ويستمدون نغمهم الرائع .

ولابد أن نلاحظ شيئين في وضوح ، هما أولاً أن نغم الموشحة بلغ من الرقة والعدوبة والنعومة ما جعله يتفوق أحياناً على نغم القصيدة التقليدية ، فقد أحيط بكل ما يمكن من ضروب التوازن الموسيقى ، كما أحيط بكل ما يمكن من إيقاع كامل . فالنغم يتوالى متقابلاً تقابلاً دقيقاً ، والألفاظ تُختار وكأنما تختارها أيدي سحرة ، وتجرى عليها تموجات الذبذبات الصوتية جرياناً ليناً سهلاً ، إذ أعدت لتشد ، بل ليوقع عليها المغنون ألحانهم ، فهي ألحان وأنغام خالصة . وإذن فالموشحة لا تنفك من التلونات الصوتية التى نعرفها لنظام القصيدة التقليدى ، بل لعلها في بعض الأحيان تفوقها في التعبير الموسيقى ، ولذلك كان لا يُحسِنها إلا المهرة أصحاب الأذواق الأدبية الرفيعة . فهي ليست عملاً سهلاً ، بل لعلها أكثر صعوبة وتعقيداً من القصيدة فإن ما سقط منها لتعدد الوزن أو تعدد القافية عاد إليها أروع أداءً وأبهج صوتاً .

والشئ الثانى الذى لابد أن نلاحظه أن شيوع الموشحات في الأندلس وغيرها لم يقض على القصيدة التقليدية ، بل ظل لها سلطانها ، وظلت هى التى تسود في عالم الشعر ، حتى عند من برزوا وتفوقوا في صنع الموشحات من الأندلسيين وغيرهم ، فقد كانت أكثر يسراً وسهولة . ومع ذلك فقد فقدت في العصور المتأخرة — كما فقدت الموشحة — بهاءها وروعها .

حتى إذا كان العصر الحديث رأينا البارودى وشوقى وحافظا وغيرهم من شعراء العالم العربى يردُّون إليها من القوة والمتانة وجمال الأداء ودقة الصياغة ما بُعدَ عليه العهد ، فرجعت إليها نُضْرَتها القديمة ورجع إليها زينها المؤثر العميق في تشكيلاته الصوتية البديعة التى تضاعف من الإحساس بجمال الفكر والشعور سواء حين ترقى كالنسيم العليل أو تعنف كالرعد القاصف صاعدة بنا في معارج التأثر الموسيقى ، نغمنا أضواؤها المفرحة .

وكان من أثر اطلاع شعرائنا على الآداب الغريبة أن عرفوا أن شعر لغاته القديمة مثل اليونانية لا يعرف القافية ، ونفس اللغات الأوربية الحديثة فيها شعر مرسل ، لا يرتبط بالقوافي ، وشعر تتعاقب فيه القوافي أو تتقابل متحدة في البيت الأول والثالث وفي البيت الثاني والرابع وهكذا . ولم يلبث أن تنادى غير شاعر في أوائل هذه القرن العشرين بالتححرر من القافية ، فإنها تقف سداً يحول دون نظم القصائد القصصية الطويلة ، وأسرع توفيق البكري ، فصنع قصيدة بدون قافية ، وسماها « ذات القوافي » ثم تلاه الزهاوي وعبد الرحمن شكري ، فألغا غير قصيدة من هذا النمط المرسل .

وكان ذلك شذوذاً على أذواقنا ، لا لأنها لا تألفه فحسب ، بل لأنه فعلاً يصدم الأذن ، إذ تتخالف النغمات في الأبيات ، فتفاجأ في كل بيت بنغمة جديدة تقف انفعالنا ، وتجعل السمع كأنه ينحرف عن طريقه الممهد انحرافاً يلوى به ، بل يؤذيه إيذاء شديداً .

وظنَّ هؤلاء الشعراء ومن جوارهم أن المسألة مسألة إلف وعادة ، وأن الأذن العربية إذا تعودت الاستماع إلى هذا الشعر الجديد لا تلبث أن تعتاده ، غير أن السنوات التالية أثبتت عكس ذلك ، وأن هذه الأذن تعودت اكتمال النغم ، وأن من الصعب أن تخرج على عاداتها القديمة ، مهما قيل إن في هذا تجديداً وإنه قد يتيح لنا صنْع الشعر القصصي والتمثيلي .

وعلى هذا النحو لم تستسغ الأذواق العربية هذا الضرب الجديد من الشعر ، لأنه يفقدها لذة السماع كما يفقدها لذة القراءة ، إذ لا تستطيع أن تقرأ هذا الشعر بصوت مرتفع ، فقد ألغيت الفوارق القوية بينه وبين النثر ، ولم تعد هناك لحظات التوقف التي ترقبها مع كل بيت ، والتي يهبط الصوت عندها ، ثم يعود من جديد مع البيت التالي . لذلك انصرف عنه الناس وانصرف الشعراء أنفسهم ، فقد ثبت فشله فشلاً ذريعاً . وفي هذه الأثناء كان مطران والمازني والعقاد يقومون بمحاولات جديدة ، لا تستمر فيها القافية على طريقة القصيدة التقليدية ولا تلغى كل الإلغاء ، بل تُلْتَزَم في مقطوعات متساوية ، قد تكون بيتين وقد تكون أكثر من بيتين ، مع اتحاد الوزن ، وقد استلهموا في هذا الصنيع القصائد المزدوجة

والمسمطة والموشحات كما استلهموا بعض صور الشعر الغربي التي تعتمد على نظام المقطوعة والتنوع في القافية . وبذلك توسط المجددون بين الشعر المرسل والشعر المقفى ، فأرضوا الأذن من جهة ، وطوّعوا القصيدة من جهة ثانية لأن تطول . وكان هذا تصرفاً أو تجديداً محموداً ، فإن الأذن لا تفقد القافية تماماً ، بل لعلها تجد في تنويعها ما يذهب عنها ملل الاستماع إلى قافية مكررة ، وخاصة إذا طالت القصيدة وامتدت إلى مئات الأبيات ، إذ تنتقل بين مقطوعاتها أو فصولها وكأنها تنتقل في ديوان كامل .

ولذلك نجحت هذه الطريقة نجاحاً كبيراً، ورسخت رسوخاً قوياً ، وشاعت في كل بلد عربي ، وكان للمهاجرين في أمريكا هم الآخرين فضل في هذا النجاح والرسوخ ، وإن كنا نعتقد أن بعض الأسباب في ذلك ترجع إلى نظام الموشحات الأندلسية فإنها هيأت الأذن العربية لأن تستقبل في ارتياح هذه الصور الشعرية الجديدة ، إذ تدور مثلها في أدوار متناسقة ، وإن كانت الموشحات أكثر تقييداً منها في مراكزها أو أقفالها ، إذ تتحد في شطورها القوافي طوال الموشحة ، كما ذكرنا ذلك آنفاً .

وقد تفجرت في السنوات الأخيرة ثورة قوية أو قل عنيفة ضد نظام القصيدة القديم وضد هذه النظم التي تستمد من المسمطات والمزدوجات والموشحات ومن بعض صور الشعر الغربي ، فقد رأت كثرة الشباب من الشعراء في مصر والبلاد العربية أن وحدة القصيدة ينبغي أن تكون التفعيلة لا البيت كما كان الشأن سابقاً . فلم يعد السطر في القصيدة بيتاً كاملاً ، يتوازن الشطران فيه وتتوازن التفاعيل والإيقاعات وما يُطَوَّى فيها من نقرات القوافي ، بل أصبح كلمة وكلمتين وثلاثاً أو أكثر ، حسب حاجة النظم . لقد قالوا إن نظام البيت القديم من شأنه أن يُحدث رتابة مملة في الأصوات ، وأن يخرج بالشاعر عن حدود تجربته الشعرية المركزة وما فيها من انفعال ، إذ يجد نفسه مضطراً أن يصوغ فكرته في ألفاظ أكثر مما تحتاجه ، ألفاظ لا تزال تتعلق بها زوائد حتى يصل إلى نهاية البيت ، وهي زوائد تحدث فيه ترهلاً ، إذ تضعف الحركة الوجدانية ، وتجعل عين الشاعر مصوبة لا إلى نفسه وإنما إلى لفظه وما يتصل به من قافية .

وفى رأيهم أن التجربة الشعرية الصحيحة لا تتم إلا إذا سُحِنَ الكلام سُحْنًا قويًّا ، وانساب بعضه فى بعض انسياباً مترابطاً . وهذا لا يمكن تحقيقه إلا إذا اعتُبرت التفعيلة أساس البيت ، وأصبحت القافية عنصراً عفويًّا بحيث قد تظهر وقد لا تظهر حسب انفعال الشاعر وحسب تعبيره التام عن هذا الانفعال . ومن ثم مضى أصحاب هذا الاتجاه ينادون : حطّموا القوالب القديمة الرتيبة ، حتى تتلاءم الوحدة الموسيقية فى القصيدة مع انفعالات الشاعر ، وحتى تتنوع بتنوع أحاسيسه ومشاعره . فالقصيدة لا تُنظَّمُ لقوافيها وإنما تنظم لذاتها ولما تعبر عنه من وجدان مضطرب ، لا يستقر على حال ، وأولى للقصيدة أن تصوِّر هذا الاضطراب فتغير وحداتها الموسيقية بتغير خوالج النفس ، حتى تكون حية نابضة . إنها لا بد أن تتأرجح ، أما إذا سارت على خطوط مستقيمة فإن ذلك يعنى مخالفة ظاهرة لطبيعة ما تؤديه من خلجات وانفعالات .

وفى رأينا أن هذا النظام الجديد للقصيدة العربية ان يتم له نجاح حقيقى إلا إذا وفّر له أصحابه قيماً صوتية أشق من القيم القديمة ، فقد كان تكافؤ التفاعيل والقوافى فى القصيدة جميعها أو فى مقطوعاتها وأدوارها يؤدى انسجاماً موسيقياً رائعاً فيها . وقد أطلنا فى بيان ما وفّره أصحاب الموشحات فى الأندلس لها من قيم وإيقاعات صوتية ، لنل على أنهم إنما نجحوا بسبب ما وفّروه من هذه القيم . وحرى بأصحاب هذا النظام الجديد فى عصرنا أن يقتدوا بصنيعهم فى هذا الصدد ، فيتيحوا لكلمات السطر من الرشاقة الشعرية ما أتاحه الأندلسيون لكلماتهم فى موشحاتهم . ولا بأس أن يعمدوا إلى التقفية فى بعض سطورهم على أن تكون القافية عفوية من بنية السطر ، وأن لا يلتزم فيما قبلها أن يكون بيتاً كاملاً ، فقد انتهى نظام البيت عندهم ، ولكن ينبغى أن لا ينتهى معه الانسجام الموسيقى التام ولا التماسك الصوتى ، وإلا كان هذا الشعر ضرباً جديداً من النثر ، ولم يكن شعراً بأى شكل من الأشكال .

الصياغة الشعرية

الصياغة في الشعر هي الجسم الذي يعبر عن كل ما تجسّد فيه من روح ومعان وأفكار ، ومنذ وُجد الشاعر الأول والشعراء يسعون إلى أداء ما انطبع في نفوسهم وقلوبهم من إحساسات ومشاعر إزاء الكون والطبيعة والحياة الإنسانية . ولم تكن هذه المهمة في يوم من الأيام يسيرة أو سهلة ، فإن الألفاظ التي تُستخدَم في هذا الأداء يستدير حولها نطاق من الغموض والإبهام . وهي في حقيقتها ليست أكثر من رموز ناقصة تعبر عن حالات وجدانية تعبيراً عاماً ليس فيه تخصيص ولا تحديد دقيق

وتتضح المشكلة إذا رجعنا إلى الكلمات التي نستخدمها في المسميات الحسية ، فكلمات مثل إنسان وشجرة وكرسي لا تدل دلالة محدّدة على مدلولات متعينة ، لأن أنواعها في الواقع الحسي كثيرة ، ومن ثم كانت دلالتها قاصرة . هي دلالة كلية ، ومن شأن الدلالات الكلية ذات المسميات المتعددة أن تشير إلى مجموعة عامة من الصفات دون أن يتحدّد لها مدلول بعينه تُطلق عليه وحده دون سواه ، ولذلك يبدو في ألفاظها القصور ، وأنها ليست أكثر من رموز تشير إلى جنس يحتوي في باطنه أفراداً لا عدد لها ولا حصر ، وهي أفراد تختلف فيما بينها اختلافات كثيرة .

وإذا كان القصور والإبهام يعتريان الأسماء الكلية الحسية على هذا النحو ، بحيث لا تعدو أن تكون رمزاً عاماً لجنس من الأجناس ، فأولى أن تكون الأسماء المعنوية التي يعبر بها الشعراء عن أحوالهم الوجدانية أكثر قصوراً وإبهاماً ، لسبب بسيط ، وهو أنها تفقد المسميات الحقيقية التي تمثلها في الوجود الواقعي ، إذ لا تصور محسوسات نستطيع أن نتيبها أو نتيبن أفرادها بحواسنا ، إنما تصور معنويات غامضة في داخلنا ، لا يحيط بها الحس ، وهي معنويات تُعقّدُ الألسنة من دونها ، فلا يستطيع الإفصاح عنها إلا الشعراء الممتازون الذين أوتوا هبة التعبير . ومع ذلك فهم لا يفصحون عنها إفصاحاً دقيقاً ، إنما يحاولون هذا الإفصاح بواسطة ألفاظ اللغة القاصرة ،

وكل يعرض محاولته ، والمحاولات لا تنفذ ، ولا ينفذ معها محيط الأحاسيس والمشاعر الزاخر ، إنه محيط خضم ، وكل ما يستطيعه الشاعر إزاءه أن يقوم بمحاولة فك جانب من طلائمه برموزه اللغوية القاصرة المبهمة غير المحددة .

وواضح أن قصور هذه الرموز وإيهامها يبلغ في الشعر منتهاه ، وأنه يأتي على درجات خارج الشعر ، ومن أجل ذلك ألح الفلاسفة منذ سقراط على تحديد معاني الكلمات ، مما دفع إلى ظهور علم اللغة ، وهو العلم الذي يدرس العلاقات بين الكلمات ومدلولاتها . وقد حاول أرسطو ومن خلفوه من أصحاب المنطق أن يحددوا هذه العلاقات ، ولكن عملهم انصب على الجهة العقلية المنطقية ، أما الجهة العاطفية فإن الأبحاث فيها لا تزال إلى اليوم ناقصة بسبب ما تلتف فيه الحياة العاطفية من إيهام وغموض .

ولسنا بذلك نريد أن نقلل من قيمة الألفاظ في الشعر ، إنما نريد بيان أهميتها وأنها فيه أكثر إيهاماً منها في النثر ، وخاصة النثر العلمي الذي يصور معارفنا العقلية ، فهي فيه واضحة محدّدة . ومن هنا كان يمكن أن تقسم الألفاظ إلى أدبية وعلمية ، أو إلى ألفاظ غامضة الدلالة وأخرى واضحة ، ألفاظ لا توضح فيها الدلالات إلا توضيحاً رمزياً ، وأخرى توضح توضيحاً تاماً ، فالمعاني فيها تنكشف انكشافاً دقيقاً ، ولا يحول بيننا وبينها أى حائل .

وفي رأينا أن هذا الغموض والإيهام الذي يعتري معاني الشعر هو الذي دفع الشعراء من قديم إلى أن يستعينوا بوسائل تكمل ما في لغتهم من قصور ، أو بعبارة أدق لقد أحسوا أنهم يعيشون في عالم مبهم وأن رموز اللغة الطبيعية لا تستطيع أداء معانيهم أداء حقيقياً ، ومن ثم لجأوا إلى المجاز وما يتصل به من تشبيهات واستعارات وكنائيات يحاولون بذلك أن ينقلوا إلينا أحاسيسهم الغائمة ، وكأنهم يفسرون الرمز بالرمز ، حتى يمثلوا لنا عالمهم وما يتراءى لهم فيه من أحلام .

ودعِ المجاز ورمزيته الواضحة ، فإن الألفاظ التي ترمز إلى معان حقيقية هي الأخرى — كما قدمنا — رمزية لأنها تعبر عن معان عاطفية غير محدودة الدلالة ، إنما المحدود وعاءها الذي تحل فيه وما يشغله من فراغ الحروف والحركات . وقد جعلها ذلك سيّالة ، أو بعبارة أدق جعلها مُشِعة ، أو قل جعلها موعزة ، فإن معناها

لا ينحصر وإيحاءاتها لا تنقطع . وما أشبهها في ذلك بالكلمات التاريخية ، فنحن حين نقول ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ فقد علينا سيول من معاني حركتنا الوطنية وأحداثها منذ ثورة عرابي ، وقد نفكر في حركات وطنية أخرى غير حركتنا . وهذا نفسه نلاحظه في ألفاظ الشعر وكلماته فإنها لا تقف بنا عند حاجز معين من حواجز النفس أو حواجز الكون ، بل تنطلق بنا إلى آفاق واسعة جداً ، وكأنها نافذة نطل منها على مشاهد متتابعة ، أو كأنها قوة نتخطى بها كل الحدود .

ويعرف الشعراء هذه الخاصة في ألفاظهم ، فيستغلونها . على أن من الخطر أن يبالغ الشاعر في هذا الاستغلال ، حتى لا يتحول شعره إلى صور لفظية يعيش فيها ناسياً أن مهمته أن يتغلغل في أعماق النفس والطبيعة من حوله ، وأن يعيش في هذه الأعماق معيشة تأملية ، تتيح له أن يكشف بعض مستغلقاتها ، ويصور بعض مستبهماتنا ، ويستخرج بعض مكنوناتنا ، ويعرض علينا ذلك ، محاولاً أن يحررنا من واقعنا وأغلال علاقاتنا الجامدة فيه ، لا بألفاظه من حيث هي ، بل برصيدها المعنوي وما في باطنه من مشاعره وأحاسيسه .

وكما أن الشاعر ينبغي أن لا يسرف على نفسه في استخدام الكلمات الشعرية الخلابية التي يكثر فيها الإشعاع والإيحاء كذلك ينبغي أن لا يسرف على نفسه في استخدام المجاز والاستعارة ، حتى لا يتحول شعره إلى طلاس مغلقة ، تخنق أفكاره خنقاً . وحقاً إن لغته تقوم على الإيحاء والرمز ، ولكن ينبغي أن يكون كالكيميائي الذي يحسن مزج العناصر بعضها ببعض ليصل إلى تجربة يقرها العلم ، فلا يزيد عنصراً زيادة من شأنها أن تخلخل التجربة أو تحيلها غثاء . وفي رأينا أن الشاعر يُخفق حين يسرف في استخدام الكلمات الشعرية الموحية والأخرى المجازية الرامزة ، أما في الاستخدام الأول فلأنه يقع فريسة الألفاظ ورنينها ، فإذا هو شاعر لفظي ، يقدم أواني لفظية جميلة ولكنها فارغة ، فهي لا تحوى فكراً دقيقاً يؤثر في عقولنا ولا اختلاجاً نفسياً يؤثر في مشاعرنا ، إنما تحوى بريقاً ولعناً وما يشبه السراب يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا . وأما في الاستخدام الثاني المجازي فإنه إن زاد عن حده انقلبت لغة الشاعر لا إلى رموز ، بل إلى ألغاز وأحاج لا تفهم ، ومن ثم كان المذهب الرمزي يحتاج يداً صناعاً بحيث لا ينقلب الظل الهفهاف إلى

غيم مظلم ، بل إلى ليل داج لا يتبين فيه أحد شيئاً ، إذ تراكت فيه الظلمات بعضها فوق بعض .

مهارة الشاعر إذن إنما هي في ملاءمته الدقيقة بين ألفاظه ومعانيه ، بحيث لا يطفئ فيها جانب على جانب ، فلا يصبح لفظياً خالصاً ، ولا يصبح رمزياً خالصاً ، حتى لا يضحى بمعانيه على مذهب الألفاظ ولا على مذهب المجاز . إنه خلق ليكون مبيّناً عن عالم النفس وما يترامى فيه من أصداء داخلية وخارجية ، فإن اعترضت الألفاظ هذا البيان أو اعترضه المجاز فقد الغاية منه ، وأصبح بيانا ناقصاً أو قاصراً لا يسد الحاجة ولا يرتق الحلّة .

ومعنى ذلك أنه على الشاعر أن يستخدم ألفاظه الشعرية الموحية ومجازاته التي تعقد الصلة بين الأشياء في حذر ودقة ، وليعرف أنهما وسيلتان للإبانة عن جوهر المعاني ، لا لضرب نطاق من الضباب الحالم حولها أو الضباب الغائم فإن ذلك قد ينتهي به إلى خلل في إبانته عن الأسرار والخفايا التي لا نهاية لها في النفس والطبيعة ، والتي تكمن فيهما مُنْتَظَرَةٌ الشاعر البارِع ليكشف عنها الستار بكلماته . وهو حقاً يستعين على هذا الكشف بألفاظه الموعزة ومجازاته واستعاراته ، ولكن بشرط أن لا يتحول إلى شاعر لفظي يرصف عقوداً متألثة من الألفاظ أو شاعر رمزي مبهم ، يقفز بنا في سحب المجازات والاستعارات من مجهول إلى مجهول ، حتى لا نكاد نفهم شيئاً .

إن الكلمة الموحية عنصر في صياغته ، ولكن ينبغي أن لا تكون هي كل العناصر ، وكذلك المجاز والاستعارة عنصران وينبغي أن لا يكونا كل العناصر ، فبجانبهما وجانب العنصر اللفظي عناصر المعاني والأفكار . وهناك أيضاً عنصر الصوت ، إذ من أهم ما يميز الصيغة الشعرية أنها صوتية ، فالشاعر لا ينطق شعره فحسب ، وإنما يحاول أن ينغمه ، ينغم ألفاظه وعباراته حتى ينقل سامعيه وقارئينه من اللغة العادية التي يتحدثون بها في حياتهم اليومية إلى لغة موسيقية ترفعهم من عالمهم الحسي إلى عالمه الشعري ، ولا تقصد الموسيقى الظاهرة وحدها : موسيقى الأوزان والعروض والقوافي ، وإنما تقصد أيضاً الموسيقى الخفية التي تفرق بين بيت وبيت في قصيدتين من وزن واحد وقافية واحدة ، وهي أدق من الموسيقى الأولى ،

وإذا فقدت في شعر لم يُسمَّ شعراً ، وإنما يسمى كلاماً عروضياً موزوناً ، أى أنه يشبه الشعر في وزنه وقافيته ولكنه لا يتحد معه في موسيقاه الداخلية الفنية .

وحتى الآن لم نتحدث عن عنصر مهم في الصياغة الأدبية وهو الروابط التي تصل بين أجزاء العبارة كما تصل بين العبارة وبين ما يجاورها من عبارات كأدوات الشرط والصلة وحروف العطف ، وقديماً قال بعض الأدباء إن البلاغة معرفة الفصل بين الحمل من الوصل ، وفتح البلاغيون في بلاغتهم باباً مهماً لدراسة مواضع واو العطف ، ومتى تُذكر ومتى تحذف ويُستأنفُ الكلام استئنافاً ، وكان حريّاً بهم أن يتسعوا بهذا الباب وأن يدرسوا فيه أدوات الربط جميعاً ، ومتى يكون تعلق الصيغ بعضها ببعض مقبولا ، ومتى يكون مرفوضاً .

وكلنا نعرف علم المعاني ، وهو يثير مسائل أساسية في الصياغة ، كمسألة فصاحة الكلمة وخلوها من الغرابة والشذوذ وتنافر الحروف ، ومسألة مطابقة الكلام للسامعين ، ومتى يحتاج إلى تأكيد ، وكيف تتقدم أجزاؤه بعضها على بعض ومتى تتأخر ، ومتى تذكر ومتى تحذف ، ومتى تعرف ومتى تنكر ، ومتى تظهر ومتى تُضمّر ، مضيفاً إلى ذلك أبحاثاً في أساليب الخبر وأساليب الإنشاء .

وكل هذه الجوانب ينبغي أن يعرفها الشاعر ، بل ينبغي أن يحذفها ، إذ يستقر فيها كثير من أسرار الجمال في الصياغة الشعرية ، وإذا ضلّها ولم يتبينها بل لم يهيمن عليها سقط منه البناء الأسلوبى لأثره الأدبى ولم تقم له قائمة ، فهي وسائله الأولى في صنع هذا البناء ، بل هي دعائمه وأركانه ، منها ما يعد ركائز ثابتة كالروابط ، ومنها ما يحدد صورة المعنى كالترقيم والتأخير والتعريف والتنكير والإظهار في موضع الإظهار والإضمار في موضع الإضمار . فكل تلك وسائل تحدد مادة المعنى وتغيراته . ولا بد للشاعر أن يتقنها جميعاً ، يتقن معرفة ثوابتها ومعرفة متغيراتها وما تُدخله على المعانى من ظلال إضافية ، حتى يؤدي ما يريد أداءً مستقيماً ، أداء كُفّلت له كل العناصر الأساسية في الصياغة الفنية .

والذى لا ريب فيه أن الشاعر لا يبرع في استخدام العناصر السابقة جميعاً إلا إذا وقف وقوفاً دقيقاً على صياغة سابقه من الشعراء ، بل إلا إذا أمضى السنوات الطوال في معرفة صياغتهم والتمرن عليها تمرناً كافياً ، حتى إذا برع فيها واستبان نفسه ومقدرته

أمكنه النفوذ إلى صياغته الشخصية الجديدة . ومعنى ذلك أن درس الصياغة القديمة ضرورى للشاعر كى يحذق اللعب بمفاتيح اللغة والعزف على أوتارها .

ونحن لا نتحدث عن المادة المتحجرة فى الصياغة العتيقة ، إنما نتحدث عن المادة الحية التى لا تعوق الإفصاح عند الشاعر عن مكنونات نفسه ، والتى تشكّله له فى صورة تنبض بحيوية دافقة ، أو قل إننا نتحدث عن العناصر التى تؤلف صياغتنا الشعرية الجميلة ، وهى عناصر يشترك فيها المحدثون والقدماء ، فهى ليست لعصر دون عصر ولا لجماعة دون جماعة .

والاتصال بالماضى على هذا الأساس لا يعنى التقيد بصياغة أسلافنا الفنية تقيداً من شأنه أن يُلغى شخصية شاعرنا الحديث فلا يصور نفسه وعصره وعلاقته بالكون فى صدق واستيفاء ، إنما يعنى هذا الحسّ التاريخى بالصياغة الشعرية العربية الجميلة ، بحيث يحوّلها إلى نفسه وشعره وتصبح من ملكه ، فإذا قرأناه أقبلنا عليه ، بل أصغت قلوبنا وأفئدتنا إليه .

ومن المحقق أن شعرنا العربى ظل يحتفظ طوال القرون المتطاولة التى أمضاها بصياغة جميلة تلتقى فيها الأجيال المتعاقبة بالجيل الأول : جيل الجاهليين ، ولم تجمد هذه الصياغة إلا فى عصور الظلام المتأخرة . ولكن هذا لا يعنى أنها ماتت فى يوم من الأيام ، فقد كان يظهر فى أشد الأوقات ظلمة من حين إلى حين شاعر يُعيد لها الحياة . وارجع إلى العصر العباسى فإنك تجد الشعراء يجددون تجديداً حياً فيها ، حتى ليولّدون لأنفسهم صياغة جديدة ، سموها الصياغة المولدة . ومع ذلك فالصلة بين الصياغتين القديمة والمولدة قوية ثابتة ، بحيث ظلت للصياغة الشعرية العربية شخصيتها ومقوماتها وأوضاعها الأساسية ، وبحيث نستطيع أن نقول إن الصياغة القديمة استمرت ، ولكنها تجددت مع مقتضيات العصر وكل ما أصابه من تطور فى الفكر ومن قدرة على الإفصاح عن المشاعر ودقائقها الخفية .

فالعباسيون لم يثوروا على الصياغة الشعرية القديمة ، بل عكفوا عليها دارسين فاحصين ، وسرعان ما حذقوا وسائلها وعناصرها الجمالية ، ومرّثوها على أن تؤدى عالمهم العقلى والشعورى الذى عاشوه . بل لعلنا لا نغلو فى التعبير إذا قلنا إنهم وجدوا فيها ضروباً من الحذق أتاحت لهم أن يزاولوها وأن يحبسوها إحساناً بعيداً ، فقد رأوا

فيها عناصر وأدوات مرنة اختبرها كثيرون . ومن ثمّ تعاونوا على الإبقاء عليها والاحتفاظ بصورها اللفظية التي تقوى أحياناً ويشد بعضها بعضاً كأنها أهرامات مرصوصة ، وأحياناً ترق وتعذب حتى تصبح كالماء الرقاق والنبع الصافي .

وقد توالى أجيال بعد العصر العباسي شددت كلها إلى صياغة شعرنا الباهرة ، وأتاح هذا الجانب لشعرنا العربي ضرباً من الثبات والاستقرار ، فهو مهما اختلفت أقاليمه وأجياله ومهما شَرَّقَ وغَرَّبَ يحتفظ بطابعه في الصياغة حتى في أحلك عصوره وأشدّها ظلمة ، إذ ما يزال أصحابه عاكفين على دراسة هذه الطوابع . وقد يحطمون إطار الوزن القديم في القصيدة ويقيمون مكانه إطاراً آخر ، على نحو ما هو معروف في الموشحات ، إذ يزوج الوشّاحون بين أوزان وأوزان مع المخالفة في القوافي ، وقد يتبدعون أوزاناً جديدة ، ولكن الصياغة تظل كما هي بعناصرها الأساسية .

وحقاً إن هذه الصياغة أصابها غير قليل من الجحود حيناً والضعف والركاكة حيناً في أواخر عصورنا الوسيطة ، حتى بدا كأنها عائق من عوائق الإفصاح عن المعاني والمشاعر ، غير أن ذلك كان شيئاً عارضاً فيها ، لم ينشأ من داخلها ، إنما نشأ من الشعراء حينذاك ، فقد تبلّد حسّهم بعناصر الصياغة وخمدت مشاعرهم وعقولهم ، فبدا الضعف في عباراتهم ، إذ لم تعد أكثر من أوان فارغة ، لا تصور جمالاً ولا معنى من معاني النفس . وانظر بعد ذلك حين تناول البارودي هذه الصياغة ، فأعادها إلى رونقها القديم ، وخسّفه حافظ وشوقي وأضرابهما ، فإذا هي تعود تامة ، وإذا هي لا تستعصى على أداء أى معنى من معانيهم الوطنية والاجتماعية ، وتعاور عليها شعراؤنا المجددون ، فإذا هي تنهض عندهم بكل ما أرادوا من ألوان التجديد .

والذي لا ريب فيه أنها تختلف عند شعرائنا المعاصرين قوة وضعفاً بحسب مراعاة كل منهم على استغلال عناصرها . ومن الواجب أن نشير إلى أن فريقاً منهم لا يُعْنَى بها حق العناية ، ومن ثمّ يدركه فيها غير قليل من الإسفاف وفساد الألفاظ وضعف البناء ، وهو ما ندعو الناشئة إلى تحاشيه ، حتى لا يسقط الشعر من أيديهم ، وحتى لا تُغلق من دونهم أبوابه .

ومعروف أن شعرنا على اختلاف عصوره بل أدبنا جميعه يقدر الصياغة قدرها ، ويقيم لها وزنها ، فلا بد أن يتوفر عليها الشاعر حتى يحسنها إحساناً دقيقاً ،

كى بروق سامعيه وقارئيه ويخالب ألبابهم وقاوبهم . وكم من شاعر يطرف بمعانيه ويتعمقها ويكثر من تأملاته فى عالمى النفس والكون ، ولكنه يفتقد وميض الصياغة ، ومن أجل ذلك لا يحتل مكانته الخليقة به ، لأنه لا يستوفى قيدها المرسومة وأواصرها التى بشها القدماء فيها ، والتى عليه أن يعيدها فى خلق جديد . ولعل ذلك ما يجعل جمهورنا يقبل على شعر شعرائنا المحافظين بأكثر مما يقبل على كثير من شعر شعرائنا المجددين ، لأن الأولين يحتفظون له فى شعرهم بخصائص صياغتنا الفنية ويجيدون له العزف على أوتارها اللغوية . وقد يقول قائل إن التعلق بالصياغة الشعرية الموروثة من شأنه أن يضعف شاعرية الشاعر ، إذ يجعله يعيش فى ماضيه أكثر مما يعيش فى حاضره ، وقد ينسى هذا الحاضر نسياناً تاماً ، ونحن لا نريد ذلك ولا نبتغيه ، إنما نريد له التعلق بالماضى فى صياغتنا على أن لا يذوب فيه . فالذوبان فى الصياغة القديمة معناه التحجر والجمود ، ونحن لا نتحدث عنهما ، إنما نتحدث عن الدوام والاستمرار الحى فى الصياغة ، وبدون هذا الاستمرار يفقد الشعر النمو والازدهار .

فالشاعر لا يرجع إلى الصياغة الفنية الموروثة لتثبت الصلة بينه وبين حاضره ، وإنما يرجع إليها لتصبح فى حسه ولينميتها نمواً جديداً ، أو قل ليحملها معانى وشاعر جديدة ، أما أن تنمحي شخصيته فيها فذلك بوار وفناء لا نريده ، إنما كل ما نريده أن يجرى فى شعره ماؤها وطلاوتها ، فإذا هو شعر عربى أصيل ، فيه الفصاحة والجزالة إن شاء ، وفيه العذوبة والرشاقة إن أراد . ولننظم بعد ذلك شعراً مقفىً أو غير مقفى فإنه لن يضل الطريق ، فقد عرف مسالكه ودروبه . وليتخذ من صنيع الوشاحين فى الأندلس وغير الأندلس إماماً له وقُدوة ، فإنهم حين جددوا فى أوزان موشحاتهم وأشكال قوافيها لم يهملوا صياغتهم فى كثير ولا فى قليل . إذ توفروا على درس صياغتنا الفنية توفراً أتاح لهم الاطلاع على أسرارها ، وبالتالي أتاح لهم التوفيق فى استخدامها توفيقاً استهوى الألباب واستنزل الإعجاب من معاصريهم ومن جاءوا بعدهم . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن هذا هو أكبر الأسباب فى نجاح قلوبهم الجديد ، إذا احتفظوا فيه للصياغة بكل عناصرها الموروثة الجميلة .

وإذن فليجدد شعراؤنا فى مضمون قصائدهم كما يريدون ، ولكن ليصوغوا ذلك

فى صياغة تروقنا ، أو بعبارة أدق ليكن من أهم أهدافهم أن لا يقعوا بعيداً عن صياغتنا الفنية ، بل عن الصياغة التى عاش فيها شعرنا قديماً وحديثاً ، وليعرفوا أن الصياغة عبء وجهد ، وليست لقفى فى الطريق ، وأيضاً ليست عبادة للتقاليد ، إنما هى نمو وتحول مع فهم أسرارها وتجليها بروح جديدة ومعان جديدة ، فالقديم يلتقى مع الجديد، والماضى يلتقى مع الحاضر التقاء مشمراً ، لا تحذل فيه الصياغةُ المعنى ، بل تزيده روعة وبهاء .

نصوص الشعر ودراستها

ليست دراسة نصوص الشعر من الأمور الهينة ، فأنت إذا أردت أن تدرس قصيدة لشاعر كان من الواجب عليك أن تستوثق من صحتها وأنها لم تُضَفْ خطأ إليه . ويتضح ذلك في الشعر القديم ، فقد حصل فيه خلط كثير ، فأضيفت قصيدة بعينها إلى غير شاعر ، واستمر ذلك حتى العصر العباسي كما نرى في رواية الصولي لديواني أبي نواس وابن الرومي ، فإنه بعد أن يروى الشعر المنسوب إليهما في كل باب من أبواب الشعر يعود فيروى لنا المنحول الذي حُمل على كل منهما حتملاً

وكان الشعر يعتمد على الرواية في تلك العصور التي لم تُعَرَفْ فيها المطابع ، وكان رواة الدواوين كثيراً ما يبيحون لأنفسهم إصلاح بعض آياتها وبعض ألفاظها وكلماتها ، فيعدلون فيها تعديلات مختلفة . ولذلك كان ينبغي أن نقابل بين النسخ المخطوطة للديوان فنعرف أوصافها وتاريخها وكل ما يتصل بمادتها من حيث المداد والورق وخصائص الخط وما كُتِبَ عليها من تعليقات لقارئین معروفين أو غير معروفين ، وما كُتِبَ على صفحاتها الأولى أو الأخيرة من توقيعات للملأك ومن نسخوها إن كانت قد ذُكرت أسماؤهم . كل ذلك نجعله موضعاً لمقارنة علمية دقيقة بين النسخ المختلفة للديوان ، حتى نستخلص لأنفسنا نصاً صحيحاً له أو يقرب من الصحة . وحتى بعد ظهور المطبعة عندنا منذ القرن الماضي يحسن أن نعود إلى الأصول المخطوطة لشعر الشاعر لنرى إصلاحاته هو وتعديلاته ، إلى أن خرجت القصائد في شكلها الأخير

وعلى هذا النحو نحتاج في دراسة النصوص الشعرية أولاً إلى التوثق من صحتها والتأكد من نسبتها إلى صاحبها ، حتى إذا تم لنا ذلك أخذنا نقرأها ونحاول فهمها ، مستعينين بطائفة من العلوم التي تتيح لنا القراءة الصحيحة والفهم الصحيح . ومعروف أننا نستعين بعلوم اللغة والنحو والعروض والقوافي ، ولا بد من إتقان هذه العلوم ، حتى نحسن الفهم والقراءة ، وكذلك لا بد من إتقان علوم البيان والبلاغة ،

لنعرف دلالة الألفاظ المجازية وما ترمز إليه من معان .

وفي أثناء ذلك نحاول أن نستخلص خصائص الشاعر اللغوية والنحوية والعروضية والبيانية . ولا بد أن يكون لنا علم بالتاريخ ، حتى نكون على بصيرة بالزمن الذى ألّف فيه النص الشعرى ، وبصاحبه وظروفه التى اضطرب فيها ، فإن فى ذلك ما يلقي أضواء كثيرة على النص ، فنفهمه فهماً حسناً ، أو قل نستكشفه استكشافاً حسناً ، إذ نطلع على خصائصه وما يميزه .

وإذا فرغنا من هذا الاستكشاف أخذنا نبحت فيه وننقّب ونحلل ، ولنا فى هذا البحث والتنقيب والتحليل مواقف ثلاثة ، موقف نبحت فيه عن أثر المحيط أو الوسط الذى ظهر فيه مكاناً وزماناً ، فقصيدة المتنبي فى سيف الدولة الذى كان يناهض الروم وينزل بهم هزائم ساحقة نقف عند الأحوال السياسية والاجتماعية التى أنشئت فيها كما نقف عند البيئة الإقليمية ، فإن المتنبي يصف أمكنة تلك المعارك الطاحنة أو يشير إليها . ولا بد أن نعرف شيئاً كثيراً عن بلاط سيف الدولة فى «حلب» وأن نعرف تاريخ تلك الحصومة الشديدة بين الروم والعرب منذ الفتوح الإسلامية وكيف كان سيف الدولة يمثل القومية العربية فى ذلك الحين ، حتى أصبح بطل العرب غير منازع فى تلك الفترة من تاريخهم .

وأثر هذا كله يتضح فى قصيدة المتنبي ، فهو يشيد ببطولة سيف الدولة وبالعروبة ويتسع إحساسه بذلك ، حتى لا يراه منقذاً للعرب أمام الروم فحسب ، بل منقذاً لهم من خصوماتهم ومن حكماتهم الشعوبيين الذين انقسموا على أنفسهم انقساماً أطمع فيهم أعداءهم ، وأورث البلاد العربية كثيراً من الفوضى والاضطراب فى جميع الشؤون الاجتماعية والاقتصادية . فهو الأمير المأمول للعرب فى جمع شملهم الممزق ، وتلك كتائب جيشه تقف سداً منيعاً أمام البيزنطيين فى الشمال ، وإنه لخرى به أن يكافح فى الميدانين ، ميدان الشمال المستعر ، وميدان الجنوب فى الجزيرة العربية وغيرها ، ذلك الميدان الذى أصبحت فيه الدول العربية بأيدي مستعجمين يستذلون الناس ويثقلون كواهلهم وظهورهم بالضرائب الفادحة . وليس هناك من أمل فى الإصلاح إلا أن تسلم الأمم العربية مقاليدها إلى سيف الدولة كى يعيد لها صلاحها ونظامها ووحدتها التى أصبحت أنكاثاً من بعد قوة .

وليس هذا كل ما في محيط المتنبي ، ففيه بجانب الحرب وهذه المعاني السياسية معان اجتماعية وثقافية كثيرة تتغلغل في قصيدته أو قصائده لسيف الدولة ، فقد كان بلاطه يمجع بعلماء اللغة والنحو من أمثال ابن جنى وابن خالويه ، كما كان يمجع بالمتفلسفة أمثال الفارابي وبالشعراء أمثال أبي فراس . وتأثيرات كثيرة تدخل إلى قصيدة المتنبي من هذا الوسط الثقافي الممتاز ، إذ كان يريد أن يستحوذ على إعجاب هؤلاء المثقفين المختلفين ، وأدته هذه الغاية إلى أن يدخل كثيراً من الشواذ اللغوية والنحوية في شعره ، حتى ينال استحسان اللغويين والنحويين ، وأظهر في ذلك مهارة نادرة .

ومن الممكن أن تؤلف أبحاث مستقلة في شعره ، لتصور لنا هذه العناية اللغوية والنحوية وإلى أي حد أثر علماء اللغة والنحو في قصائده ، حتى جعلوه يعيش في شواذ بعينها ، هي شواذ المدرسة الكوفية التي كانت لا ترفض الشذوذ اللغوي والنحوي ، بل تعتد به . وقد وجد المتنبي فيما سجلته مستودعاً أميناً يستمد منه في هذه الغاية ما بهر اللغويين والنحويين من حوله .

وعلى نحو ما أرضى هؤلاء العلماء أرضى كذلك أصحاب الفلسفة ، ولعله كان يحضر محاضرات الفارابي التي كان يلقيها هناك ، وأكبر الظن أنه قرأ مؤلفاته ومؤلفات غيره من المتفلسفة ، وأثر ذلك واضح في شعره ، أشار إليه معاصروه ومن جاءوا بعدهم مراراً ، وقد ألف «الحاتمي» معاصره رسالة مشهورة في المقارنة بين بعض أبياته الحكمية وحكم أرسطو ، وكشف عن الصلة بينها وبين تلك الحكم ، حتى لتصبح أحياناً كأنها نظم لها ، وإن أعطاها المتنبي من نفسه وخياله وصيغته الشعرية ما جعلها تبدو كأنها له خالصة ومن بنات فكره .

ويأتى تأثير الشعراء وقد كان يريد أن يروعههم ، ولم يكن من سبيل إلى ذلك إلا أن تتسع خبرته بالشعر الذي سبقه من العصر الجاهلي إلى عصره ، وخاصة عند كبار الشعراء العباسيين ومبرزهم من مثل بشار وأبي نواس ومسلم والبحتري وأبي تمام وابن الرومي . وتستطيع أن ترى تأثير كل هؤلاء في أبواب السرقات التي عقدها القدماء بين شعره وشعر سابقيه ، وقد ألف بعض النقاد في سرقاته بحثاً مستقلة . وكان يتأثر في عمق أيا تمام وابن الرومي ، وكأنهما مهتداً لوجوده وبراعته ، ومن الممكن أن

تُعقّد أبحاث فيما بينه وبينهما من صلة ومدى تأثيرهما في مزاجه الفنى .

فتأثير المحيط الذى أثر في الشاعر متشعب ، ودائماً تنعكس منه ظلال وتأثيرات في شعره وقصائده ، لا من حيث هذه المؤثرات الثقافية المختلفة فحسب ، بل أيضاً من حيث خصوماته مع من كانوا يلوذون بالأمر من العلماء والشعراء . وهنا نتقل إلى موقفنا الثانى من البحث والتنقيب والتحليل في قصيدة المتنبي لسيف الدولة ، وخاصة تلك التى أخذ يعاتبه فيها حين اشتدت سطوة خصومه ، وأحس أن حواجز أخذت تقوم بينه وبين الأمير الذى كان يخلّهُ ويحبه من كل قلبه ، وفى هذا الموقف إنما نُعنى بالمتنبي نفسه . ومن أهم ما يميزه أنه لا يخفى مشاعره الداخلية ولا ما ينطبع في نفسه من إحساسات ، فكل ما يحسه ويشعر به ينقله إلينا فى دقة وأمانة بالغة . لذلك كان شعره وكانت قصائده مرآة صافية لنفسه وللمجتمع من حوله وأخلاق الناس فيه . وأنت لن تجد وثيقة تاريخية تكشف هذا المجتمع بكل عيوبه ونقائصه على نحو ما تجد ذلك فى شعره ، فقد كان صريحاً منتهى الصراحة ، يؤمن بالحرية الفنية فى التعبير عن النفس وانطباعاتها ، ولم يكن يعرف المراوغة ولا المداهنة .

وتصادف أن كان واسع الآمال شديد الاعتداد بمواهبه ، فاصطدم بالناس من حوله ، واصطدم بمجتمعه وأصبح هدفاً لاضطهاد مسموم . فتحول يصف الأخلاق ودخائل النفوس فى ألم مرير ، وخاصة حين أحس انصراف سيف الدولة عنه ، فقد مضى يعلنها ثورة عارمة على المجتمع والحياة . ويخيّل إلى الإنسان أنه لم تكن تمرّ عليه لحظة واحدة من لحظات حياته دون أن يحسّ بوخزة شديدة من كاره أو حاسد متقيت .

وهو يصوّر لنا ذلك فى قصائده ، وكأنه كان يتجرع الناس تجرعاً مريراً ، وتحول به هذا التجرع إلى حُنْكة وخبرة واسعة بهم وبالحياة ، استحال إلى هذه الحكيم الكثيرة التى اشتهر بها واتى تجرى على كل لسان . وهى خبرة لا تنتهى بنا إلى رفض الحياة . فهى ليست خبرة يائسة ، إنما هى خبرة قوية مليئة بالاعتداد بالنفس والاستعلاء إلى غير حد .

ولعل هذا الاستعلاء هو الذى أشعل الخصومة بينه وبين كثيرين وجعلهم يقاومونه بكل وسيلة مع ما يعرفون من فضله ونبوغه ، ولكن أى نبوغ ؟ إنه

لم يجد مكافأته المأمولة لهذا النبوغ ، بل وجد العقوق وخيبة الآمال العريضة ، سواء عند سيف الدولة أو عند كافور الذى لجأ إليه بمصر بعد مغادرته لبلاط سيف الدولة منتظراً أن يكافئه بولاية من ولايات إمارته ، فلم يظفر منه إلا بالخيبة والإخفاق الذريع .

لكن ذلك لم يوهن نفسه ، فتنفسه كانت أقوى من كل ما مرَّ بها من عواصف خيبة أو إخفاق ، وكانت تعينه دائماً على الصمود ، إذ كان يستشعر شجاعة حقيقية واعتزازاً لا حصر له بنفسه ، اعتزازاً تبدو فيه الاستطالة والتفخم وأنه لا يُقهر .

ولعل هذه الصفات هي أهم ما حببه إلى معاصريه ومن جاءوا بعدهم إلى عصرنا الحاضر ، إذ نراه يتغلغل إلى خفايا النفوس ، ونرى آماله مهيضة ، قد صوبت إليها وإليه السهام من كل جانب وهو مع ذلك صامد للأحداث وللناس كالجبل الراسخ ، لا يهتز ولا يلين ولا يضعف .

إنه شاعر الحياة ، شاعر يعلمنا كيف نثبت للشدائد ، بل كيف نحطمها تحطيماً ، وكأنما بيده خنجر لا يزال يطعن به يميناً وشمالاً مخاطر مغامراً ، أو كأنه من هؤلاء الغزاة العظام الذين غزوا الحياة الإنسانية ونقشوا أسماءهم على جبهة الزمن . وهل نستطيع أن نقرأ شعراً للمتنبي دون أن نعرف هذه الشخصية الفذة ، بل قل إننا لا نقرأه حتى يصدمنا بخصائصه وحقائقه التي تكمن فيه ككون النار في جذوتها . إن شعره يحمل شخصيته وأحاسيسه ومشاعره إزاء مجتمعه وإزاء ناسه وكل شيء في الوجود من حوله . إنه شاعر نفسه ، تنطبع فيه آلامه وضعائمه وأحقادهم وصراعه مع الناس حين يخفق وحين يستشعر استعلاءه على الإخفاق وكل ما يتصل بالإخفاق .

وواضح أننا في الموقفين السابقين موقفنا إزاء الوسط المكاني والزمانى الذى أثر في قصيدة المتنبي أو قصيدة غيره من الشعراء وموقفنا إزاء الشاعر ومشاعره وأحاسيسه النفسية الباطنة إنما نريد أن نعرف مادة الحياة التي تدخلت في قصيدته وجعلته يصوغها شعراً .

وبعد أن نفرغ من التنقيب والتحليل في هذين الموقفين تنتقل إلى موقف ثالث نبحث فيه القصيدة نفسها ، لنعرف ما عبر عنه الشاعر من تجربته الوجدانية الخاصة ،

ولنميز هذه التجربة ، ولنرى قدرته الفنية في تعبيراته وتشكيلاته اللفظية . ونحن هنا ننقب ونحلل ونفحص من جميع الوجوه ، وأول ما نفحصه اللحظة الوجدانية الخاصة ، التي جعلت الشاعر ينطق بقصيدته ، فيعبر بها عن مشاعر بعينها . ومهمة الناقد أن يقفنا على هذه المشاعر ، أو بعبارة أدق على ما تثيره القصيدة فينا من مشاعر ذات ميزات خاصة . وفي شاعر كالمثني أو قل في إحدى قصائده نقف لنعرف ما يستخلصه من الحياة ومن نفوس الناس من خبرات يعطيها من قوة التعبير ومن حدة الشعور ما يجعلها في نفوسنا أكثر قوة مما قد يستقر في قلوبنا من معاني الحياة وإدراكاتها الغامضة .

فنحن في الشعر نستقبل طاقات قوية من الإحساسات والخبرات . وكأن الشاعر ينظمها فينا تنظيماً ، أو كأنه يعبر لنا عنها تعبيراً لا نستطيعه . وانظر إلينا مثلاً حين نستقبل الصباح في يوم من أيام الربيع ، وقد أخذ قرص الشمس يبرز قليلاً في الأفق والنسيم العليل يمر بوجوهنا والعصافير تغرد من حولنا ، فإننا نشعر بجمال لا يقدر ، ولكن لا نستطيع التعبير عنه ، وتطوف بنا أحاسيس شتى لا نستطيع الإفصاح عنها ، حتى يوجد شاعر يرى نفس المنظر ، فيتعمقه ، ويشعر بما فيه من جمال وجلال كالأبدية التي بزغ منها ، ويصف شعوره بعبارات تدب فيها الحياة . وقد يأخذ في التأمل الواسع في حقائق الكون والوجود . ونستمع إلى قصيدته التي صور فيها أحاسيسه وأفكاره ، فنشعر كأنه التقط منها جميع أحاسيسنا وأفكارنا ، حتى لكأن صوته صوتنا ، بل صوت الإنسان في كل زمان ومكان إزاء الصباح الجديد الذي تنسل فيه الأضواء لتغمر الكون وتعيد إليه الحياة العاملة كرة أخرى .

وأى راحة شعورية نجدها حين نقرأ هذه القصيدة ؟ إن واجبنا أن نشرح هذه الراحة وأن نميز ما استطاع أن يثيره الشاعر فينا من أحاسيس ، كأنها تحقق وجودنا ، أو قل تجعله وجوداً كاملاً ، فإن تلك الأحاسيس لم تكن نحسُّ بها إلا إحساساً غامضاً ، حتى جاء الشاعر فأبرزها وأدّاها أجمل ما يكون الأداء . وكأننا نَعْجَبُ به لأنه يرضى فينا دوافع ومشاعر كامنة في نفوسنا ، لم تكن تتآلف في داخلنا هذا التآلف الذي أتاح له القدرة على التعبير عنها ، بل لكأنها كانت تتعارض في داخلنا ، حتى مَسَّها الشاعر فإذا هو يُلغى منها كل تعارض إلغاءً ،

وينسّقها تنسيقاً من شأنه أن نحس إزاءه بمتعة ولذة بالغة .

وعلى نحو ما ينسق الشاعر بقصيدته مشاعرنا وأحاسيسنا الداخلية ينسق خبراتنا وتجاربنا في الحياة ، فشاعر كالمُتنبي حين نقرأ حِكْمه نحس كأننا كنا نعرفها ، ولكن لم نكن نملك التعبير عنها ، لأننا كنا لا نعرفها معرفة تامة ، إنما كنا نعرفها معرفة ناقصة ، حتى جاء فأبرزها لنا في أضواء قوية باهرة .

والشعراء يختلفون ، منهم من يقدم لنا عواطف ومشاعر خالصة ، ومنهم من يقدم لنا أفكاراً وحِكماً وخبرات خالصة . وربما كان شعراء الحب مثل جميل وعمر بن أبي ربيعة خير من يمثل الضرب الأول ، بينما المتنبي هو خير من يمثل الضرب الثاني . والخبرة أو الفكرة عنده لا تنفصل عن مشاعر نفسه ، وكأنه ينسج فيها أحاسيسه ، أو قل كأن نفسيته قد اشتملت على كل أحاسيس عصره ، فهو شاعر قومه وشاعر نفسه ، وكل بيت عنده خلية حسية من خلايا هذا الجسم الكبير للشعوب العربية ، ولذلك كانت تتعلق به تعلقاً لا يلحقه فيه أى شاعر .

ومهمة من يحلّل قصيدة للمتنبي أو لغيره أن يوضح كل ذلك من خلالها ، يوضح ما تثيره فينا من أحاسيس أو ماتعطيه لنا من خبرة ومعرفة ، وهو في الطرفين يوضح كيف نجد فيها ما يكمل شخصياتنا ويجعلنا نحس الحياة إحساساً كاملاً . ولا بد أن يتسم بسِمة العالم الموضوعي الذي يشرح ويفسر دون أن يعنى بنفسه عناية من شأنها أن تُبعد عنا القصيدة التي يفسرها ويشرحها أو يحللها ويفحصها ، فهو يصور أحاسيس الشاعر وأفكاره ، لا أحاسيسه هو وأفكاره . ولنتقدم خطوة أمام العلم ، لنجعل له الحق في أن يصور أحاسيسه وآراءه ولكن لا هذا التصوير الذي يفسد علينا القصيدة ، بحيث نضلّ في غابات ذهنية أو خلقية نخرج فيها عن القصيدة ومعانيها .

وليس معنى ذلك أننا نُلغى طريقة التأثيرين الذين يخضعون تحليلهم الشعر لأذواقهم ، إنما نريد أن نخفف من غلواء هذه الطريقة ، بحيث لا تصبح القصيدة مجالا يتحركون هم فيه بآرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم ، فنحن نريد أن يتحرك فيها الشاعر نفسه . وليكن مفسر القصيدة أو محللها تأثرياً ، ولكن ليضبط نفسه وأحاسيسه وآراءه في إطارها ، وليرجع إلى ذوقه ، ولكن أى ذوق ؟ إنه ينبغي أن

يحذر الذوق العام الذى يتألف من عاداته ومعتقداته وأهوائه حتى لا يكون تحليله ونقده خاضعاً لآراء شخصية . فهذا الذوق من أخطر ما يكون على تحليل أى قصيدة والحكم عليها بالجودة والرداءة

ليرجع إلى ذوقه إذن ، ولكن الذوق الخاص الذى كوَّنه من قراءاته ومن دراساته للشعر ونصوصه فى عصوره وأطواره المختلفة ، حتى يكون تحليله وحكمه سليمين ، وليحذر التعميم فى هذا التحليل وذلك الحكم ، فهو مقيد بقصيدة معينة ، وكل ما فيها من أحاسيس وآراء إنما هو لحظة وقتية مرت بالشاعر فى أثناء صنعه لها مبتغياً لإثارتنا لإزاء موضوع معين .

فتحليلنا ونقدنا يجب أن ينصبَّ على تصوير الحالة الوجدانية التى طافت بالشاعر وأنطقته شعره أو قصيدته . نصور هذه الحالة ، وقد ندخل فيها أنفسنا ، ولكن من أجل استكمال التصوير ، لا من أجل إحداث هزات وذبذبات فيه ، تفسد هذا الاستكمال وتعوق دون تمامه . ومعنى ذلك أنه لا بد أن نخفف من أثر أذواقنا وشخصياتنا وآرائنا فى نقد الشعر وتفسيره ، لا نلغى ذلك إلغاءً وإنما نحتاط فيه حتى نعيش فى حدود النصوص ، وفى الوقت نفسه نجعلها تتخلل مشاعرنا ونلأثم بينها وبين عواطفنا وأهوائنا ومزاجنا ، حتى نتأثر بها تأثراً واضحاً يمكننا من التعبير عن الإحساس بروعتها وما فيها من جمال .

وإذا فرغنا من تحليلنا لمحتويات القصيدة الشعرية والفكرية حاولنا أن نوضحها بالمقارنة بين الشاعر وغيره من الشعراء المعاصرين و السابقين و اللاحقين . ويتطلب هذا منا ثقافة أدبية واسعة ، حتى نحيط بقصائد الشعراء المماثلة ، وحتى تكون مقارنتنا صحيحة ، فهى ليست عفو الخاطر ، وإنما هى نتيجة الدرس الطويل

ثم نأخذ فى بيان خصائص المادة الشكلية التى يصوغ منها الشاعر قصيدته ، ومن أهم ما يميز الشعر أنه لا يعبر عن معان فقط ، بل يعبر أيضاً عن أصوات ، فالقصيدة لا يهمنى فيها المعانى وحدها ، وإنما تهمنى موسيقاها وألفاظها وطريقة الشاعر فى تشكيل مادتها الحسية أو الصوتية ، فكل ذلك يحاول به أن ينقل إلينا عواطفه ومشاعره نقلاً مثيراً عن طريق النغم والألحان . فهو لا يقول شعره على طريقتنا فى الكلام العادى وإنما يغنِّيه ويلهجنه ، وألفاظه لا تؤدي معانى ذهنية فقط بل تؤدي

أيضاً معاني صوتية ، وهى معان يقاس بعضها بمقاييس علمى العروض والقوافى ، وبعضها يستعصى على هذه المقاييس ، لأنه أخفى وأدق من أن تقيسه ، ونقصد الإيقاعات الصوتية الداخلية التى تجعل بيتين من الشعر من وزن واحد مختلفين اختلافاً واضحاً فى جمال الموسيقى التى يؤديها كل منهما . والشعراء يختلفون فى إدراك هذه الموسيقى الخفية ، منهم من يبلغ به إدراكها أن تصبح ألفاظه كلها أنغاماً رشيقة أو قل أنغاماً حلوة ، على نحو ما نجد عند البحرى الذى اشتهر بين القدماء بروعته فى استخدام الأصوات ، وقدرته على صهر المعانى فيها . فليس عنده لفظة نابية وإنما عنده الضبط والإحكام والملاءمة التامة بين الألفاظ والحركات والحروف فى الأبيات ، حتى تصبح ضرباً من النظم أو النظام الرشيق

وعلى محل الشعر وناقده أن يشرح جمال هذه الموسيقى الخفية وأن يحاول تحليلها بتصوير ما للألفاظ من جمال وما بينها من توافق فى الحروف والحركات وانسجام . ولا بد أن يقف عند علاقات الكلمات بالمعانى وعلاقاتها بعضها ببعض ، ليدرك حسن تركيبها وتأليفها من حيث التنكير والتعريف والحذف والتطويل والتقديم والتأخير .

وليس معنى ذلك كله أنه لا يقف عند الموسيقى الظاهرة موسيقى العروض والقوافى ، بل من حقه أن يقف عندها ليرى هل وفق الشاعر فى الوزن الذى اختاره لقصيدته أو لم يوفق . وإذا كان الشاعر ممن يستخدمون شكلاً جديداً من أشكال الشعر كالמושحات أو كالشعر المرسل أو كان ممن لا يعتدُّون بعدد التفاعيل فى البيت ولا بالقوافى فإنه ينبغى أن يطيل الوقوف عند هذه الجوانب ليرى مقدار توفيقه فى التعبير الموسيقى عن معانيه .

والشاعر لا يثير عاطفته فينا عن طريق معانيه والموسيقى وحدهما ، بل هو يستعين بخياله وبلغته التصويرية ، كى يستم التأثير فينا ، فلا بد أن نقف بإزاء هذا الجانب عنده ، ونحاول أن نعرف مدى تجديده وابتكاره فيه . والشعراء يختلفون فى ذلك اختلافاً واسعاً كما يختلفون فى موسيقاهم ومعانيهم ، فمنهم من يعتمد على خياله وتصويره ومنهم من يعتمد على إحساسه وأصواته ومنهم من يعتمد على أفكاره وآرائه . ويمكن أن نضرب مثالا لذلك أبا تمام والبحرى والمتنبى فإننا

إذا أنعمنا النظر في قصائدهم وجدنا فروقاً واضحة بينهم في استخدام الألفاظ وما يصحبها من إحساسات وخيالات ومعان . وليس من شك في أن الشعر الجيد ينبغي أن يحتوي إما على خيال حى أو صوت فخم أو فكرة عميقة فإذا اجتمع ذلك كله في قصيدة كانت مثلاً أعلى للشعر وجودته وجماله .

ومن كل هذه المواد السابقة يؤلف شارح القصيدة ومحللها وناقدها مواد عمله ، ولا بد أن تكون له شخصيته في هذا العمل بحيث لا يسوق ما يسوقه من ذلك في شكل بطاقات متراصة، إنما يسوقه عملاً أدبياً متكاملًا فيه القوة والدقة والوضوح وفيه الإحساس المتدفق والعاطفة الحارة التي لا تخمد ، بحيث يثير فينا الشوق إلى متابعته ، ويمتتنا متعة عقلية وفنية بخالصة .

وفرة التأويلات في الشعر

أول ما يلقانا في نصوص الشعر ألفاظه ، وهي ليست ألفاظاً محددة الدلالة ، يدل بها الشعراء على أشياء حسية من واقعهم الخارجى ، فإنهم لا يعبرون عن هذا الواقع ومسمياته الحقيقية ، إنما يعبرون عن واقعهم النفسى وما تختلج به نفوسهم من مشاعر وأحاسيس .

واللغة إنما تحددت ألفاظها بالقياس إلى عالم الأشياء الحسى ، أما عالم النفس المعنوى فلا تزال ألفاظ اللغة قاصرة عن أن تحدد معانيه ، ولا تزال تضرب في تيه من ماهيات ، وهي ماهيات غير متناهية ، وما لا تناهى له لا يدرك إدراكاً دقيقاً بحيث يوضع لفظ محدد بإزائه .

وحقاً إننا نرجع إلى المعاجم في تفسير الشعر ، ولكن لا لى تعطينا المعنى الدقيق الذى أراده الشاعر ، وإنما لتعطينا النواة التى يدور حولها المعنى . ونفس المعاجم اللغوية تشهد لفكرتنا ، فنحن نجد للفظه معانى كثيرة ، تقترب وتبتعد من أصل المعنى ، كأنه ليس للفظه معنى محدد تماماً . وليست فكرة الترادف بالمعنى الدقيق صحيحة ، لأن لكل لفظة صوتها ، ويشير كل صوت إحساساً خاصاً فينا . حتى حروف الجر لاحظ قدماؤنا أن الحرف الواحد منها يخرج إلى معانى كثيرة .

وكل ذلك ناشئ من استخدام الشعراء لأدوات اللغة وألفاظها ، بل ناشئ من معانى الاحساس والمشاعر التى يؤدونها ، وأنه لم يوضع لها أسماء دالة دلالة حتمية ، كدلالة الألفاظ التى تشير إلى الأسماء والأماكن . وحتى هذه الألفاظ ليست دائماً محددة ، فالأعلام محددة ولكن أسماء الجنس غير محددة على نحو ما نعرف فى كلمتى وردة وشجرة ونحوهما فإنها لا تتحدد تماماً إلا حين تتعين بالإشارة .

فما بالناس بكلمات الحس والشعور وهى إنما تدل دلالة عامة على الجنس ، وقلما دلت على النوع أو الدرجة . إنها تدل دلالة غير محصورة ، دلالة لا تقف على تفصيلها . وحتى الآن لم تستطع اللغة أن تحدد هذه الدلالة ، لسبب بسيط ، وهى أنها تدل على العواطف ، والعواطف غامضة ، هى شئىء نحسه فى داخلنا ، فى القدر الأدبى

ولكن لا نستطيع تحديده ولا بيان نوعه ودرجته ، إنما نشير إليه بالألفاظ إشارة فمثلا كلمة الحزن نجد لها عند شعراء مختلفين ، وهي عند كل منهم تمثل حالا مخالفة لها عند الآخرين . فدرجات الحزن لم توضع لها ألفاظ تحددها إلا تحديداً قاصراً ، ومثلها كلمات الفرح والحب والكراهية والكلمات العاطفية الأخرى ، فالفرح على درجات وكذلك الحب والكراهية ، ولم توضع لكل درجة لفظة تؤدّيها أداء دقيقاً بل دائماً تلتف في ضباب أو في ضرب من الغموض .

وبجانب ذلك نجد الشعراء يخرجون بألفاظهم إلى مدلولات جديدة ، لا تعرفها المعاجم اللغوية ، إذ يسمّون أشياء بأسماء أخرى ، حتى أسماء الأشياء المألوفة في العالم الخارجى تتبدل وتتغير في أشعارهم حسب مخيلاتهم . وكل ذلك ناشئ من قصور اللغة عن تأدية معانيهم ، ولعلهم من أجل ذلك يفرعون إلى المجاز والاستعارة والكناية ، ليتلافوا شيئاً من هذا القصور وليدلّوا بعض الدلالة على هذا الخضم من الأحاسيس التى تجيش في نفوسهم .

والألفاظ عند الشعراء لا تؤدّي معانى لغوية واضحة أو غامضة فحسب ، بل هي تؤدى كذلك معانى بيانية ، لا نعرفها إلا إذا درسنا علوم البيان والبلاغة . وهي كذلك تؤدى معانى صوتية ، إذ هم لا يتحدثون بالألفاظ كما نتحدث في حياتنا اليومية وإنما يغنونها ويوفّرون لها من القيم الموسيقية ما يجعلها ألحاناً . وكل ذلك لينقلوا إلينا أحاسيسهم ومشاعرهم التى لا تستطيع الألفاظ اللغة القاصرة أداءها ، ومن ثمّ يلجأون إلى الموسيقى وإلى الخيال كى يؤدوا عن طريقهما ما لا تستطيع اللغة تصويره ، إذ ننغم أنفسنا وينطلق مع تنغيمنها أو قل مع تنغم الشعر لها نغمات عاطفية تؤثر في داخلنا ، وكذلك يُطلق الخيال لأنفسنا العنان في التخيل والتصور .

فنحن في الشعر إذن لسنا إزاء ألفاظ دقيقة ، لها دلالات دقيقة ، وإنما نحن إزاء رموز تعبّر عما تختلج به نفوس الشعراء من مشاعر ، وهي رموز قاصرة يستعينون على قصورها بالخيال والموسيقى ، ولكن قصورها لا يغادرها مغادرة تامة ، بل تظلّ تسبح في ضباب قليل أو كثير . وهذا ما يجعلها واسعة الدلالة ، حتى الألفاظ الحسية عند الشعراء نحس فيها نفس الاتساع فإذا قال شاعر إن لون البحر أزرق كانت الزرقة شيئاً غير محدود ، إذ الزرقة تختلف درجاتها اختلافات

كثيرة . وإذا كان لا يستطيع أن يجد الكلمة الدقيقة التي يعبر بها عن المحسوسات التي يبصرها فأولى أن يضلَّ الكلمة الدقيقة للمعنى العاطفي الذي يجيش بنفسه وفي داخله .

ولا نبالغ إذا قلنا إن دلالة الألفاظ في الشعر على مدلولاتها الشعورية ليست حقيقية وأنها تتغير حسب الأمكنة والأزمنة وحسب استخدام الشعراء لها ، ولذلك كان من الممكن أن تؤلَّف لكل كلمة تاريخاً ، تخضع فيه لسنة النشوء والارتقاء ، فهي تتطور من حال إلى حال ، وكأنها كائن عضوي . وتلعب إرادة الشعراء ورغباتهم الفنية دوراً واسعاً في هذا الصدد، إذ ما يزالون يعدُّون في الكلمات ويحوِّرون لتدل على معانيهم التي يريدون الدلالة عليها . وهي تهض لهم بهذه الدلالة ، ولكن يعوزها دائماً الدقة الدقيقة ، لأنها ليست في حقيقتها إلا رموزاً وحيلاً يعبر بها الشعراء عن أحوالهم الوجدانية . ولعل من أهم ما يدل على ذلك كثرة الشروح والتفاسير في الشعر ، فإنها اعتراف واضح بأن معانيه وضعت في رموز وأنها في حاجة إلى الشرح والتفسير والتوضيح .

وليس معنى ذلك أننا ننكر ما للألفاظ من قيمة كبيرة ، فهي كل ما نملك من الشعر والأدب والحضارة والعلم ، اعتمدَ عليها الإنسان منذ نشأته الأولى واختارها دون أنواع البيان الأخرى من إشارات وعلامات لتفصح عن شعوره ومعرفته ، ولكن هذه الأداة التي اختارها واتخذها لمعرفته وشعوره لا تزال قاصرة في التعبير عن عالم النفس ولا يزال يكتنفها الغموض .

وحقاً إن الإنسان في ميدان المعرفة والعلم استطاع أن يزيل عن الألفاظ كل غموض كان يلابسها أو يسترها ، غير أن ذلك يرجع إلى مسمياتها ومدلولاتها ، فهي في العلم تدل على أشياء محسوسة في الواقع الخارجي ، أشياء محدَّدة الأشكال والأبعاد الزمانية والمكانية ، تنطبع على حواسنا جميعاً انطباعاً واحداً ، لأننا نشاهدها بالعين ونلمسها بالحواس . أما في الشعر فلا مشاهدة بالعيان ولا حواس ولا أبعاد محدَّدة ، وإنما عالم نفسي غامض لم توضع فيه حدود ولا أبعاد ولا نسب للمشاعر والعواطف ، وكل ما هناك أن الشعراء يعبرون بكلمات ليثيروا بها في أنفسنا عواطف ومشاعر يريدون إثارتها .

وهى لذلك كلمات غير مضبوطة ، كلمات تنساب منها إشعاعات خيالية وموسيقية ، إشعاعات لا تزال تغمرنا من كل جانب حتى تؤثر في نفوسنا التأثير المنشود ، تؤثر بالإيجاء والإيعاز مستعينة بالنغم وبخور الصور ، وكأن بها بقية من السحر القديم ، حين كان الناس يعيشون معيشة رمزية خالصة وكان السحرة يلقون في آذانهم كلمات مبهمه ، لها سحرها العجيب .

ففي كلمات الشعر سحر ، وفيها خفاء وفيها إيعاز وإيجاء ، وهذا كله يجعلها غير محددة الدلالة ، بل يجعل دلالتها تقبل احتمالات كثيرة ، فكلُّ يتصورها حسب حالته الوجدانية ، وحسب ما يستطيع أن يستنبط منها ، وحسب ما تثيره أصدائها في نفسه ، وحسب ما تبعثه فيه من عواطف ومشاعر ، وكأنها نافذة يطلُّ منها على أفق واسع من عالمه الداخلي ، أو كأنها أداة من أدوات الإثارة .

والشعراء يختلفون في مقدار هذه الإثارة ، ولكن من غير شك من لا يثيرون خيالنا وعواطفنا منهم بالفاظهم وكلماتهم تكون مقدرتهم الشعرية محدودة ، إذ يتحدثون بلغة لا تختلف عن لغة النثر ، وهم بذلك لا يحدثون فينا أثراً ما ، إذ يدعوننا كما كنا نعيش على أرض حقائقنا الصلبة ، فلا صور مثيرة ولا موسيقى ممتعة ولا جو جديد . إن شعرهم نثرى ، أو هو شعر الفراغ الشعري ، شعر لا نقرؤه حتى نهمله ، لأن صاحبه لم يؤت لغة الشعر المؤثرة التي تنشر حولها ضباباً رقيقاً يشفُّ عنها في جمال شفوفاً تنبعث في أطوائه أطياف لا تحصى من المعاني .

وإذا كانت ألفاظ الشعر يُسَدَّلُ عليها هذا الضباب الذي يتيح لها وفرة واسعة من الاحتمالات في الدلالة فإن أبياته وعباراته مثلها يُسَدَّلُ عليها نفس الضباب ، إذ الشاعر يؤدي بها نفس الغاية التي يؤديها بالفاظه ، غاية إثارة المشاعر التي يريد لها في نفس السامع وهو لا يؤدي حقائق كحقائق العلم الطبيعي أو الرياضي ، وإنما يؤدي أحاسيس ويطلق أبياته وعباراته لتثير بمعانيها وأخيلتها وأنغامها الصوتية مشاعرنا ، وكأنها لمعة من الضوء تسقط على عالمنا النفسي ، فتستيقظ معها أصداء شعورية لا تحصى ، أصداء تختلف باختلاف كلِّ منا واختلاف استعداداته لتقبُّله لها واستجابته .

ومن هنا كان معنى البيت من الشعر لا ينضبط انضباطاً محدوداً كما ينضبط

معنى العبارة في العلم ، فأنت لا تجد اثنين يختلفان في معنى عبارة علمية ، لأنها محددة الدلالة ، ولأنها ترتبط بالواقع الخارجي ، فإذا وافقته كانت صادقة ، وإلا كانت كاذبة ، ولم يكن لها معنى . فإذا قلنا مثلاً الأرض كروية كان هذا التعبير دالاً بحسب معناه على كروية الأرض ، وينبغي أن يكون هذا المعنى مطابقاً للواقع الخارجي ، حتى يكون صادقاً ، فإن لم يطابقه كان لغواً من القول وهذراً .

أما في الشعر فليس هناك واقع خارجي يلتبس منه الشعراء تصحيح أقوالهم ، وبالتالي نلتبس منه نحن هذا التصحيح ، فهم لا يرتبطون بشيء في العالم المحسوس ، وهم لذلك لا توصف أبياتهم بصدق ولا بكذب ، وقد يما قال نقاد العرب : « أعذب الشعر أكذبه » لا يريدون الكذب بالمعنى الواقعي ، وإنما يريدونه بالمعنى الخيالي الذي لا يخضع للمنطق ولا للواقع الحسي ، فللشعراء واقعهم ، وهو واقع نفسي ، بخلاف العلم وعباراته فلا بد أن يجري فيها المنطق ولا بد أن تكون صادقة فإذا قال قائل $2 + 2 = 4$ كان هذا تعبيراً رياضياً صادقاً ، فإن قال $2 + 2 = 5$ أو $2 + 2 = 3$ هب في وجهه الناس وقالوا كذب وبهتان ، وفقد تعبيره قيمته ، لأن قيمته يستمدّها من صدقه ، وقد فقد الصدق فقد قيمته . وهذا لا يحدث في الشعر ، فالشاعر يتخيل كما يشاء ، يتخيل إلى حد الأسطورة والخرافة ، ولا يقول له أحد كذبت أو صدقت ، لأن من حقه أن يعبر عن خياله وشعوره بحسب مشيئته الفنية .

نحن إذن في الشعر وعباراته لا نهتدي بمصاييح المنطق الدقيق ولا بمصاييح الواقع الخارجي ، فليس هناك مرشد يرشدنا في طريقنا ولا هاد يهديننا سوى الألفاظ نفسها وما تشعّه من معان في نفوسنا ، وهي معان عاطفية ، لم يوضع لها منطق كمنطق العقل ، وانظر إلى هذا البيت الواضح للمتنبّي :

لا تَعْذِلِ المشتاقَ في أشواقِهِ حتى يكون حَشَاكَ في أحشائهِ

فقد يبدو لك أن معناه يغمره ضوء من كل جانب ، وأنه معنى بيّن مكشوف ، غير أنك إذا دقت النظر وجدته يُفَضَّى إلى معنى غير محدود ، ولهذا تردده ولا تملّه ، وكأنما ينساب منه في كل مرة دقائق جديدة من المعنى . وما ذلك إلا لأنك تقرأ معنى وجدانياً واسعاً يثير معاني وجدانية واسعة في نفسك ، لا تنضبط ولا تنحصر . وراقب نفسك حين تقرأ هذا البيت في يومين مختلفين ، يوم تبدو فيه متفائلاً ،

ويوم تكون فيه متشائماً ، وانظر ما يتسلل إليك من المعاني الوجدانية خلاله فسترى صورها تختلف باختلاف حالتك الوجدانية

ومن أجل ذلك نرى أن نطلق على معاني الشعر وصفاً يميزها ، هو أنها سيالة ، وهو وصف يلزمها مهما اتضحت دلالتها ومهما بدا أنها قريبة من عقولنا وإدراكنا ، ففيها هذه السيوالة التي تنطلق خلالها مشاعرنا من عقالها ، وكأنها مرآة ذات وجوه مختلفة لا تنقطع عن الاختلاج ، أو كأنها ألوان الطيف لا تثبت قط على قرار . ودع أشخاصاً مختلفين يكتبون لك معنى بيت المتنبي ، فستصلك إجابات مختلفة بعدد من طلبت إليهم ذلك ، لأن كلامهم يفسر البيت في ضوء حالته العاطفية التي يكون فيها ، فكل شخص يفهم منه معنى يتفق وحالته تلك ، بحيث يمكن أن نقول إن تفسير كل منهم يحمل عنصرين : عنصر البيت نفسه وعنصر ما أثاره فيه من عواطف ومشاعر .

وكان المتنبي يعرف معرفة دقيقة هذا الاتساع في دلالات الشعر ، فاستغله استغلالاً رائعاً في قصائده التي مدح بها كافوراً في أخريات أيامه بمصر ، فقد أمّل عنده أن يظفر بولاية ، جزاء وفاقاً لمدحه ، وما زال يطلب ذلك منه في مداامحه تصرّيحاً وتلويحاً ، غير أن كافوراً لم يستجب إليه . فلما يش منه وكان مضطراً إلى مدحه عمد إلى إحداث توجيه غريب في قصائده وأبياته ، بحيث يمكن أن تفهم فهمين متضادين ، فهي تفهم تارة مدحاً وتارة هجاء وذمّاً على نحو ما نجد في قوله :

فإن بليت ما أمّلتُ منك فربّما شربتُ بماءٍ يُعجزُ الطيرَ ورْدُهُ
فالبيت مدحٌ إن فسرناه بأنه يريد أن يقول لكافور : إن بلغت أُملى فيك ، فليس ذلك عجيباً لأنني قد أبلغ الممتنع من الأمور التي لا تدرك ، وكأنه جعل الماء الذي لا يَرْدُهُ الطير مثلاً لأمله فيه وبعد طريقه إليه . والبيت هجاء وذم إن فسرناه بأنه يريد أن يقول لصاحبه : إنني إن أخذت منك عطاء على بخلك وشحك فكم وصلت إلى المستصعبات من الأمور واستخرجت الأشياء الممتنعة . ومن ذلك قوله أيضاً في كافور من قصيدة طويلة :

وأظلمُ أهلِ الظلم من بات حاسداً لمن بات في نغمائه يتقلبُ

فهذا البيت يحتمل معنيين مدحاً وذمّاً ، أما المعنى الأول فهو أن أشد الظلم وأقبحه من بات في نعمة شخص أكرمه حاسداً له ، يريد أن الحاسدين لكافور يحسدونه وهو ولي نعمتهم . وأما المعنى الثاني فهو أن أقبح الظلم وأشنعه أن يبيت المُنْعِمُ على شخص حاسداً له ، يريد أن كافوراً يحسد من ينعم عليهم ويتفضل بعطائه من أمثال المتنبي . وهو منتهى ما يمكن من الذم ووصف البخل وشح النفس .

ويمكن توجيه كثير من أبيات القصيدة التي تضمنت هذا البيت على هذه الشاكلة من المدح والذم . ومن غير شك كان المتنبي يكثر بكافور ، ولم يكن يريد إلى مدحه ، فقد كان في صدره منه جروح لا ترقأ ، فتحول يطعنه بتلك السهام المسمومة من أبياته . لذلك يكون من الواجب أن نحملها على ما أرادها لها من معنى الهجاء والقدح في كافور .

وليس هذا شائعاً في الشعر العربي ، فوقف المتنبي من كافور هو الذي جعله يلتفت إلى هذه الدلالة المتعارضة أو المتناقضة في الأبيات ، فإذا هي تُحْمَلُ على وجهين متضادين . ومن غير شك أتاح له ذلك اتساع الدلالات المعنوية في الشعر ، فإذا هو ينهض لا بمعان متقاربة إنما بمعان متباعدة يعارض ويناقض بعضها بعضاً .

وهناك طائفة من أبيات المتنبي تؤوّل تأويلات مختلفة ، ولكنها لا تتناقض ولا تتعارض هذا التعارض ، تأويلات تؤكد بدورها وفرة الاحتمالات في أبيات الشعر ، وهي وفرة نلقاها عند كثير من الشعراء إذ يمكن أن تُفْهَمَ أبياتهم أفهاماً مختلفة ، على نحو ما نرى في قوله يمدح عضد الدولة :

لو قَطَنْتُ خَيْلَهُ لَنَائِلِهِ لَمْ يُرْضَها أَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا

فهذا البيت يحتمل معنيين : المعنى الأول أن خيل عضد الدولة لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بأن تكون من جملة عطاياه ، لأن عطاياه أنفس منها . والمعنى الثاني أنها لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك إذ تكره خروجها عن ملكه .

ومثل هذه الاحتمالات للمعاني كثير في الشعر ، وخاصة عند الشعراء الذين

يتعمقون في الأفكار والأخيلة ، مثل أبي تمام ، فكثير من أبياته يمكن أن يؤوّل تأويلات مختلفة . وقد جمع المرزوقي وهو لغوي قديم طائفة منها ، باسم « المشكل من شعر أبي تمام » عني بشرحها وتخريجها وبيان ما تحتمله من معان أدبية ، فمن ذلك قوله يصف امرأة جميلة حين وداعه لها :

ولت فأظلم كل شيء دونها وأنارَ منها كل شيءٍ مظلمٍ
وقد علق المرزوقي على البيت بقوله : « يقول أبو تمام : لما جزعت لفراقها اشتد جزعها عليّ ، فأظلم كل شيء في عيني سواها ومن دونها ، وبان لي ووضح من مكتوم أمرها ومكنون ودّها ما كان مغيباً عني ومظلماً عليّ . ويجوز أن يكون المعنى : ارتاعث لما أحسست بالفراق وتولّته ، فألقت قناعها ، فأظلم كل شيء دونها لسواد شعرها ، فأنار كل شيء مظلم من بياض وجهها ، والأول أوضح وأجود » .

وحقاً إن المعنى الثاني بالصورة التي تكلفها المرزوقي لفكرة الظلام وأنه ناشئ من سواد الشعر يتأخر عن المعنى الأول الواضح البين ، غير أن التبريزي شارح ديوان أبي تمام حين ألمّ بهذا البيت فسّره تفسيراً يزيل منه هذا التكلف إذ قال : « وقد يؤدي لفظ أبي تمام معنى آخر ، وهو أن الأشياء أظلمت دونها أي غيرها ، وقوله : وأنار منها كل شيء مظلم أي من حسناتها تضيء الأشياء المظلمة » . وفي رأينا ، وهو امتداد لهذا المعنى الذي ساقه التبريزي ، أن أبا تمام يريد أن يقول إنه حين رأى محيّاها وهي والهة به وهو بها جدهً واله أحس كأنها شمس منيرة ، تخرج على الوجود المظلم ، فتنير كل شيء فيه ، أو لعله أحس أن الوجود المضيء من حوله قد أصبح ظلاماً بالقياس إلى ما تنشره هي حولها من أضواء باهرة ، فهو مظلم مضيء في الوقت نفسه ، أظلم حين هلت طلعتها ، وسرعان ما انتشرت عليه أضواؤها وأنوارها الزاهية .

أرأيت إلى هذه المعاني المختلفة التي يجلوها علينا بيت من أبيات أبي تمام في إحدى قصائده ؟ وهكذا الشعر دائماً لانزال كلما تدبرنا فيه أدركنا منه معاني متنوعة . وقد يكون البيت واضحاً ، ولكن كلما أنعمنا النظر فيه دبّت في نواحي أنفسنا معان جديدة كمعاني الجمال في الطبيعة ، فإنك لو لاحظت نفسك أمام منظر جميل وجدت معاني وخواج تتولّد فيك كلما رددت فيه النظر أو أعدته .

ومرجع ذلك إلى أن حركات النفس الباطنة ومشاعرها وظلالها لا حصر لها ،
وإذا كان الشعر تعبيراً عن وقّع الحياة والكون على نفس الشاعر وكان هذا الوقع
يثير فيه ما لا يحصى من الأحاسيس والمشاعر والذكريات والآمال والآلام والخاوف
والرؤى والأحلام ويسجل ذلك في شعره فإننا حين نأخذ بدورنا في قراءة هذا الشعر
نجدنا وقد اختلجت فينا هذه الخلجات ، وترادفت عليها أشتات من داخلنا ،
وكأنه يُطلق علينا من ألفاظه ومعانيه ما يحرك الخلجات الكامنة فينا .

فنحن لا نقرأ الشعر منفصلاً عنا ، وإنما نقرأه من خلال خلجاتنا ومشاعرنا ،
ومن أجل ذلك يكثر فيه التأويل لأن كلا منا يحكي صدهاء في نفسه وما أثاره فيه من
هواجس وخواطر ، ومن ثمّ كان يتسع فيه الاحتمال لأنه يرمز إلى المعاني النفسية
بوسائل ، لا توضّح ، وإنما تثير وتبعث الأحاسيس والمشاعر في نفس السامع .
وكان من آثار الإحساس بهذه الوظيفة للشعر أن ظهر المذهب الرمزي في فرنسا
أواخر القرن الماضي وأن دعا أصحابه إلى أن الشعر لا ينقل معاني محددة ، إنما ينقل
حالات وجدانية ، وهي حالات تعجز اللغة عن أدائها ، إنما كل ما تستطيعه
الإيحاء بالموسيقى والخيال لا في وضوح ولكن في إبهام شديد ، بل إن الإبهام جزء
من الإيحاء ، حتى ينشر حول الشعر كل ما يمكن من ضباب خيالي وشعوري
وموسيقى . وتأثر هذا المذهب غير قليل من شعراء العرب المعاصرين . وقلما نجد
وضوحاً في شعرهم ، وكيف يتضح وهو شعر رمزي أساسه الغموض والإيحاء البعيد ،
ولذلك كان بعضه يتحول إلى ما يشبه ألغازاً عسيرة الحل . وطبيعي أن يتسع الاحتمال
والتأويل في هذا الشعر وقلما وجدت اثنين يتفقان على معاني أبيات قصيدة فيه ،
ومثله الشعر السريالي الذي يعلو على الواقعية في الوعي ويفسح المجال لمكبوتات
اللاشعور ، والذي يتحول في أكثر أحواله إلى ما يشبه أحلام النائمين وأضغاثها
المختلطة .

فهذا الشعر وسابقه الرمزي يفسحان المجال لوفرة الاحتمالات في الشعر وفرة تفوق
مانعرفه لسواهما من المذاهب الأخرى مثل الرومانسية والكلاسيكية ، فإن أصحابهما لم
يعملوا إلى شيء من هذا الإبهام والإبهام الشديد . كانوا يخلقون في السماء ، ولكن لم
يختفوا وراء سحب الرمزية ولا في كهوف السريالية المظلمة .

التجربة الشعرية

ليس كل ما ينظمه الشعراء من شعر يُعدُّ تجربة شعرية كاملة ، إذ لابد للتجربة من مواد كثيرة تستوفيها ، حتى تصبح عملاً شعرياً تاماً ، وهي مواد مردّها إلى أنها حدثٌ له بدء ونهاية ، حدث قائم بذاته له تميّزه وله طوابعه وصفاته التي تشيع فيه والتي تشخصه ، بحيث إذا قرأه أو سمعه أحد تراءى له في صورة بيّنة وعلى شاكلة لم يسبق له أن قرأها أو سمع بها . وهو حدث وجداني أو عاطفي ، محدّث ينبع من نفس صاحبه ومن عقله ومن كل حواسه ودخائله النفسية والفكرية الظاهرة والباطنة . حدث عاشه أوضح ما تكون المعيشة ، عاشه في تريث وبطء يتأمل فيه متنقلاً من جزء إلى جزء متمهلاً كمن يصعد إلى قمة جبل شامخ ، فهو لا يجري مسرعاً نحو غايته ، بل يسير بطيئاً ويرتاح قليلاً من حين إلى حين ، حتى يأخذ الفرصة كاملة كي يقطع الطريق الصاعد الطويل ، ولو أنه أسرع لأخذه التعب دون غايته ، وعاد مُجهداً مكثوداً دون أن يظفر ببيئته

فالتجربة الشعرية التامة صعود إلى قمة بعيدة ، صعود له أول يبتدئ منه وآخر ينتهي عنده ، وهو صعود على طريق ممدود ، كل جزء فيه يُسلم إلى جزء آخر ، وكل جزء يحتاج إلى قدر من السكون والراحة ، حتى يستطيع الشاعر أن يتمّ رحلته ، وحتى يأخذ الوقت الكافي لإعادة نشاطه وقوته على النهوض والصعود من جزء إلى جزء ، وكأنه لا يسير بقدميه فقط بل هو يستكشف ويتأمل فيما حوله ويرصده من جميع جوانبه . فإذا وصل إلى الذروة البعيدة أحسّ أنه فعلاً قام برحلة لا سابقة لها ، رحلة لها كل ما يميزها ، بحيث إذا انتهى منها شعر أنه نهض بعمل جديد كامل ، لم تتنازع فيه أعمال أخرى ولا عاقته دون تمامه عقبات أو عثرات .

وهذه التجربة الحسية في الجبل ومحاولة الصعود إلى قمته التي سقناها توضح أتم توضيح ما يقصد النقاد بالتجربة الشعرية ، فالمنظومة من الشعر لا تعد تجربة حقاً إلا إذا كانت على هذه الشاكلة ، بمعنى أنه يكون لها موضوع محدّد تأخذ منه اسمها ، ولابد أن تكون واضحة المعالم متميزة الأجزاء في نفس الشاعر ، وكلُّ جزء

يقود إلى أخيه ، ولا يمكن أن يقوم جزء تال بدون سابقه ، لأنه هو الذى يفضى إليه ، وليس بين جزء وجزء ثغرات ولا وهاد ولا عوائق بأى شكل من الأشكال ، بل الأجزاء تتعاقب متسلسلة ، وكل جزء يغير صاحبه ، ولكن لا المغايرة التى تفصله منه وتجعله نائياً عنه ، فبينهما أوبين الأجزاء جميعها وحدة تجعل منها كلاً واحداً أو تجربة واحدة ، وهى وحدة ليست عاطفية فقط ولا عقلية فقط ، بل هى عاطفية عقلية معاً ، تعمل فيها النفس ويعمل فيها العقل ، وتعمل فيها خبرة الشاعر بوسائله اللغوية والخيالية والموسيقية . ويمتزج هذا العمل كله وينصهر ويتوحد فى قصيدة ، لا تصور شيئاً سواه.

ليست التجربة الشعرية إذن كل قصيدة جُمعت أبياتها فى إطار موسيقى ، بل هى قصيدة من طراز خاص ، فن القصائد ما يشبه حياتنا اليومية وتجاربها المحدودة ، بل قل تجاربها القاصرة التى لم تأخذ فرصة كاملة كى تم وتتكون ، فلننا إذا راقبنا أنفسنا فى يوم من الأيام التى نعيشها لاحظنا أننا نقوم بأعمال كثيرة ، ولكن هذه الأعمال يزحم بعضها بعضاً ، وقد يصدم بعضها بعضاً . وبمجرد أن نبدأ فى يوم تال لا نكاد نذكر شيئاً مما عملناه بالأمس ، لسبب بسيط ، وهو أنه ليس بين هذه الأعمال ما يمكن أن يسمى تجربة حقيقية ، إذ لم نعش فى شىء منها معيشة كاملة ، فقد زحف بعضها على بعض ، أو قل ألغى بعضها بعضاً ، فما فكرنا فيه وما أردناه وما حققناه ، كل ذلك طغى بعضه على بعض ، أو قل ستر بعضه بعضاً ومحاه أو كاد يمحوه محواً من ذاكرتنا . فقد كنا نتقل من شىء إلى شىء بدون توقف أو تمهل ، بحيث لم يُتَحْ لأى شىء من أشياء اليوم السالف أن يأخذ وقتاً كافياً كى يصبح تجربة نامة ، تجربة تُحْفَرُ حفراً فى ذاكرتنا ، ولا ننساها لمدد طويلة ، وقد لا ننساها أبداً .

ونحن لا تصادفنا هذه التجارب النامة فى حياتنا إلا نادراً كأن نصعد - كما قلنا - فى جبل شامخ إلى قمته التى لم يصعد إليها إلا قليلون ، ولم يحدث أن صعدنا إليها من قبل ، وكأن نركب طائرة لأول مرة فى رحلة طويلة أمضينا فيها الساعات تلو الساعات ، وكأن نمرض بحمى خطيرة وننجو منها . فهذه كلها تجارب كاملة ، وهى تجارب أخذت زمناً طويلاً حدثت فيه ، وتألفت فى أثنائه من عناصر عملية صحبتها مشاعر

وأحاسيس وتأملات فكرية مختلفة ، ولكل تجربة منها بدء واضح ونهاية واضحة ، ولم يحدث توقف في أثناءها حال دون تمامها ، بل ظللنا نمضي فيها من جزء إلى جزء حتى بلغنا نهايتها .

وفي حياة الإنسان كثير من هذه التجارب الكاملة التي لا ينساها وتجارب أخرى ليس لها مثل هذه الأهمية ، بعضها لم يتم ، وبعضها تَمَّ ولكنه سرعان ما نُسِيَ كأنه لم يكن شيئاً مذكوراً . وتلك التجارب الكاملة في حياتنا هي التي تلتقي مع التجربة الشعرية ، فهي ليست عملاً شعرياً فحسب ولا قصيدة منظومة فحسب ، بل هي حدثٌ نفسي عقلي مارسه شاعر لأول مرة ، ولم يسقط من ذاكرته ولا ذاكرة الناس من حوله ومن بعده ، لأنه حدث تام ، حدث يشبه بناء ضخم ، إلا أنه بناء فكري عاطفي ، بناء له أجزاءه التي تكوِّنه وتقيمه سامقاً بحيث يظل بارزاً بروزاً واضحاً بخصائص تجرّى في كل جوانبه ، خصائص تؤلف وحدة عامة فيه .

وإذا لم تكن القصيدة بناء متكامل على هذا النحو فإنها لا تُعدُّ تجربة شعرية صحيحة ، إذ لا تشتمل على حدث فكري نفسي ، يعنى موقفاً معيناً للشاعر ، عاشه أو عاش فيه من فاتحته إلى خاتمته لأول مرة بحيث أبرزه عملاً قائماً بنفسه ، عملاً له كيانه وله صفاته ، وله وضوح التجارب الكبرى التي تمر بنا في حياتنا ، فهو يتكون من جزئيات كثيرة ركز فيها الشاعر تأملاته ، وقد أشرفت عليها جميعاً خطة ، تجعله ينتقل تنقلاً طبيعياً من جزء إلى جزء ، وكأنه بإزاء بناء كبير يريد أن يقيمه أو كأنه بإزاء مشكلة يريد أن يجد لها حلاً .

والقصيدة بذلك ينبغي أن تكون ذات مضمون واضح لا تعدوه ، فإن هي اشتملت على مضامين وموضوعات متعددة لم تكن تجربة كاملة ، فقد عاقت التجربة تجارب أخرى وعاق الموضوع الواحد موضوعات تجاوزه وتزحّمه ، شأن الموضوعات والتجارب المتعددة التي يزحم بعضها بعضاً في حياتنا اليومية كما قدمنا . فهي تجربة لم تترك لها وجزئياتها حريتها ، وهي وما يزحّمها جميعاً تجارب ناقصة ، لم تأخذ الزمن الكامل للتخلق والتشكل . ومن خير ما يصور ذلك القصيدة العربية القديمة التي كانت تتألف من موضوعات متباينة مثل الغزل ووصف الطبيعة والمديح والحكم ، فإن موضوعاً واحداً من هذه الموضوعات لم يستوعبه الشاعر

ولم يقف عنده وقفة واسعة يتأمل ويفكر ، بل زحمت الموضوعات بعضها بعضاً أو قل صدم بعضها بعضاً ، فلم تتقدم ، بل وقفت وانقطعت دون التمام والكمال .

ولا يكفي أن يكون للقصيدة موضوع واحد لنعدها تجربة شعرية نامة ، لأن التجربة كما قلنا بناء كبير يتألف من جزئيات ، يعقب بعضها بعضاً في حرية موفورة ، وكل جزء يسلم إلى أخيه ، كالأجزاء في الطريق الصاعد إلى قمة جبل ، فكل جزء يؤدي إلى ما بعده ، ولكل جزء وضوحه ووظيفته في تماسك البناء الكلي وتناسقه ، حتى نصل إلى نهايته ، فنحس إحساساً بيناً أن الشاعر قام بتجربة متكاملة أدتها القصيدة كلها من فاتحتها إلى خاتمتها ، فهي تسعى بجميع أبياتها لبيانها وتصويرها بجميع مراحلها وأطرافها تصويراً يجعلنا نقول ما أروع الشاعر وما أروع تجربته ! إنها تجربة تجلب لنا متعة حقيقية ، تجربة لم نقرأها من قبل ، فقد انبثقت من نفسه ، وعاش في أثنائها يتأمل فاسحاً لخياله وللكثافة الشعرية في التعبير والإيقاعات الموسيقية حتى أخذت خلتها وصورتها التركيبية الدقيقة .

ولم يكن العرب يتصورون القصيدة تجربة شعرية على هذا النحو ، حتى إن هم لم يضمّنوها موضوعات مختلفة وجعلوها لها موضوعاً معيناً واحداً ، فإنهم كانوا يكتفون بأن تدور معاني الأبيات حول الموضوع ، ولكن دون أن يركزوا أنفسهم فيه ، ودون أن يحسوا إحساساً عميقاً بأنهم يخلقون حدثاً عاطفياً وعقلياً من شأنه أن يصبح تجربة مخلقة كاملة التكوين ، تجربة تمهّل صاحبها في خلق أجزائها ، تمهّل ليفكر ويتأمل ويضئق من نفسه أو يسكب كل ما يستطيع من مشاعر ومعان ، حتى إذا استوفى خلق الجزء خلقاً تاماً مستوياً انتقل إلى الجزء الذي يليه ، ليفيض عليه من نفسه وعقله ، وما يزال ينتقل إلى الأمام دون معوق يعوق طريقه ، حتى يُلقي عصاه في النهاية ، فقد أوفت التجربة على غايتها المنتظرة .

وما هكذا كان يصنع أسلافنا قصائدهم ، فقد كانوا لا يشغلون أنفسهم بفكرة التجربة الشعرية كما نتصورها الآن ، وكان حسب الشاعر منهم أن يطوف بأبياته حول الموضوع الذي ينظم فيه ، وحسبه أن يؤلف قصيدته دون أن يُعنى بنظامها ودون أن يعنى بالوقوف الطويل في أثنائها يتأمل ويفحص أحاسيسه وأفكاره ، بل كان الإحساس يعرض له أو تعرض له الفكرة ، فيوجز ما يعرض له من ذلك ويجمله

إجمالاً يفقده كل انبساط وكل اتساع . وبذلك أصبحت القصائد — في أغلب أمرها — أشبه ما تكون بخطر عابرة وقطرات منعقدة لا تتسع دائرتها ولا تشكّل ما يمكن أن نسميه حدثاً شعرياً أو تجربة شعرية كاملة . وقد يكون مرجع ذلك إلى أن شعراءنا غرقوا في أحاسيس ومشاعر وأفكار جزئية ، وكأنما ألهام هذا الفُتات عن الاستغراق في الأحداث الوجدانية التي ألما بها استغراقاً من شأنه أن يحيلها إلى تجارب كبيرة يعيشون فيها أمداً طويلاً . وقد يكون مرجعه أيضاً إلى أن أفراد جمهورهم لم يحسوا الوجود الإنساني والكوني إحساساً تفتّح فيه بصائرهم على الأسرار الكامنة في نفوسهم والتي لا يحيط بها حدٌّ أو وصف ، فعاشت كثرتهم في ظروف حياتها اليومية ، ولم تصنع سوى تحويلها إلى شعر منظوم ، شعر لا نحس فيه التجربة العميقة وما يتغلغل فيها من الحقائق المطلقة . ولعله من أجل ذلك كان لا يوجد في كثير من الأحيان فرق بين طبيعة الشخص العادي وطبيعة الشاعر ، فهو من عالمه يلتصق بأرضه وبكثير من الغناء اليومي ، وقلما نفذ إلى انطباعات قوية إزاء النفس والوجود .

ولو أن شعراءنا القدماء استقرّ هذا المعنى في نفوسهم لنفذوا إلى فكرة التجربة الشعرية التي نفهمها اليوم ولأتاح لنا ذلك عندهم ثروة من التجارب الشعرية الحية ، فكان لكل شاعر تجاربه التي تهزُّ مشاعرنا حين نقرأها ، وكان لكل شاعر انطباعاته ولساته وتأملاته في الإنسان وفي الكون من حوله وما يزخران به من معان ومن ألغاز وأسرار ، ولكنهم انصرفوا عن ذلك إلا في بعض قصائد قليلة جداً لا تعد شيئاً بالقياس إلى الكثرة الغامرة التي وصلتنا من قصائدهم وأشعارهم ، فقد كان همُّ الشاعر أن يثبت قدرته على نظم المعاني والأحاسيس الجزئية ، وقلما تنبه إلى أن القصيدة وحدة سوى وحدتها الموسيقية وأنها ينبغي أن تكون كتجاربنا الكبرى في الحياة تعالج حدثاً وجدانياً واضحاً من البداية إلى النهاية ، في مسافة من الآيات يتشكل فيها هذا الحدث في صور متلاحقة من المشاعر والأفكار ، ولكل صورة مكانها لا تتقدم ولا تتأخر عنه ، فهناك رابطة بينها وبين ما يسبقها ويلحقها ، رابطة من الاتساق المنطقي ، تنمو فيها أجزاء الحدث ، ويتنقل بينها الشاعر من جزء إلى جزء في شيء من التدرج ، بل في تدرج تام ، فهي تتسلسل في

درجات ، درجة من وراء درجة ، وتتعدد الدرجات في الأجزاء ولكنها جميعاً تخلص إلى نهاية ، بها تتم التجربة ، أو يتم الكل وقد انبسطت فيه معالم هذه الوحدة التي تأخذ التجربة منها خصائصها وانبسط فيها هذا السياق الذي يحدث انسجاماً في مفرداتها ، والذي يجعل لكل مفرد منها أهميته في خلق التجربة وتسويتها على شاكلة الكائنات الحية التي نراها في الطبيعة سواء بسواء .

ليست التجربة الشعرية إذن عملاً سهلاً ، بل هي عمل صعب ، لأنها خلق وإيجاد لحدث شعري وجداني ، حدث يتدرج فيه الشاعر خطوة خطوة ، وهو لذلك يرجع فيه إلى ما عمله قبله ، بل يرجع إلى ما عمله الشعراء السابقون ، ليستوحى ويستضيء في أثناء عمله . وقد يبدو له بعد أن بدأ فيه أن ينصرف عنه ، لأنه لا يستطيع أن يسوى الحدث كما يريد ، وقد يمضي فيه ، لأنه يراه أهلاً للخلق والوجود ، فهو نبع يفيض في نفسه بالمشاعر وفي عقله بالأفكار . ومع ذلك فهو يُصلح فيه ويحذف ويضيف ، وقد يهدمه ويعود إلى بنائه ، وقد يهدم جزءاً فيه ويعيد بناءه من جديد ، وقد ينتزع بيتاً من مكانه ، ليضعه في مكان آخر . وما يزال يُجهد نفسه في تصحيحه وتعديل أجزائه ، حتى يرتسم كاللوحة الباهرة بجميع خطوطه وظلاله وأضوائه وألوانه .

ولابد للشاعر في أثناء ذلك كله من أن يضغظ على نفسه وعقله حتى يستخرج منهما الأحاسيس والأفكار الحبيسة ، وحتى تنبض تجربته بالحياة . إنه خالق تجربته ، ولا بد له أن يعاني فيها من حين تَخَلَّقَهَا في قلبه إلى حين اكتمالها ، يعاني في معانيها وفي لغتها وإيقاعاتها ، يدفعه إلى ذلك في أول الأمر انفعال مبهم إزاء حقيقة من حقائق النفس أو حقائق الوجود ، ويأخذ هذا الانفعال في التخلق والتولد عن طريق ما يحرك فيه من أحاسيس ويشير من أفكار وعواطف ، وينقل إلينا ذلك في كلمات موسيقية لها دلالات مختلفة عبر التاريخ ، وكل ذلك يَبْهَظُهُ ويثقل عليه . ولعل ذلك ما جعل شعراءنا الأقدمين يظنون أن الشعر يبعثه في صاحبه شيطان ينفث فيه ، وكأنه لا حول له ولا قوة إزاء هذا الشيطان المرِيد ، فلا بد له من نظم قصيدة بعينها ، وكأنها أو كأن شيطانها عبء ثَقِيل على صدره لا بد له أن يتخلص منه ، وهو لا يستطيع أن يتخلص منه إلا إذا أتم صياغة قصيدته صياغة جميلة .

فالتجربة الشعرية عبء ومشقة وجهد ، غير أن هذا الجهد انصبَّ عند الجاهليين على الصياغة وصقل العبارات وتنقيحها كما حدثونا عن زهير وحوليائه المشهورة . وأصبح ذلك تقليداً بين شعرائنا أو على الأقل بين كثيرهم ، وليتهم التفتوا إلى أنها جهد في المعاني والمضمون أيضاً وأن الشاعر لا يصوغ أبياتاً تتحد في الوزن والقافية فحسب ، وإنما يصوغ تجربة تكشف عن حدث وجداني عقلي إزاء حقائق الكون والحياة . حدث يتأمل خلاله في الوجود وأسراره ، ويلتصق به وبنفسه ، فيه تنشأ مشاعره ومعانيه وتتولد ألفاظه وصيغته وإيقاعاتها وتتوالى تأملاته وأفكاره وعواطفه ، وكأنما هي اكتشافات يتبع بعضها بعضاً . وهو لا يقبل كل ما يكتشف من دقائق العواطف والأفكار ، فكثير منها يُلقي به ويتخلص منه ، خوفاً من أنه لو سجله قضى على تطور التجربة وخطواتها المتدرجة ، وهو لذلك لا يسجل إلا ما يحتلُّ موضعاً متمكناً فيها وما يجعلها في النهاية تجربة حقيقية تامة الأجزاء مكتملة الخلق والتكوين .

ولا تتم التجربة الكبرى للشاعر ولا تكمل إلا إذا كان ممن يتعمقون الحياة ويسبرون أغوارها ويتغلغلون في بواطنها ويحاولون النفوذ إلى دخائلها وأسرارها المستغلقة لا في مظاهرها الكبرى فحسب ، بل في كل مظهر مهما كان صغيراً أو زهيداً . وفي التجربة دائماً ليس الموضوع هو المهم ، وإنما المهم وقعه في نفس الشاعر وتشبع وجدانه به ، وليكن حباً أو طبيعة أو سياسة أو اجتماعاً أو شيئاً يومياً أو آلة صناعية ، فذلك كله لا يهم ، إنما المهم ما يتجلى في نفسه من أصدائه وما يفيض على عقله من تأملاته فيه . وله كل الحق في أن يختاره من أحداث الحاضر أو أحداث الماضي في التاريخ أو من الأساطير والحرفات والأقاصيص الشعبية .

فليس في الحياة شيء يستعصى على التجربة الشعرية ، حتى أتفه الأشياء يستطيع الشاعر أن يصعد به إلى تجربة تفيض بتأملاته وأفكاره وعواطفه وخيالاته . فالمهم أن ينطلق عقله من خلاله وأن تنفتح إزاءه مغاليق نفسه ، فإذا نحن إزاء حدث وجداني عقلي لا يعنينا ما يحمله من موضوع ، إنما يعنينا ما يحمله من معان وأحاسيس وإشعاعات نفسية وعقلية تضيء على أجزاء القصيدة من بدايتها إلى نهايتها ، وقد تألفت أجزاؤها وأبياتها فلا تنابد ولا خصام بين معنى ومعنى ولا بين

شعور وشعور ، بل الكل يتسق مترابطاً بدون أى عائق ، فليس فى القصيدة تخلخل ولا تفكك ولا ثغرات ، وإنما فيها الالتحام التام ، التحام ليس فيه انقطاع ولا ما يشبه الانقطاع .

وعلى هذا النحو تصبح القصيدة قطاعاً من حياة الشاعر النفسية والعقلية ، قطاعاً يشبه أتم الشبه دوامة منعزلة على سطح النهر الكبير للحياة ، قد تركزت فيها وتجمعت طاقته الشعورية والذهنية ، ليعبر عن تجربة له ، لا يشركه فيها غيره ، لا فى مضمونها ومحتواها ولا فى صورتها وشكلها . وبذلك لا تكون القصيدة جَمْعَ كلام فى أوزان وقواف يسترسل فيه الشاعر ويكلمسه تكديساً ، وإنما تكون حدثاً أحسّه خلال نفسه ، حدثاً يعصر فيه قلبه وعواطفه ، فألفاظه وأبياته لا تهيم فى فراغ أو فى طنين خدّاع ، وإنما تتضامن لتعبر عن حالة وجدانية استقصاها الشاعر أو استقصى معانيها ورتب بعضها على بعض ترتيباً لا سبيل إلى التبديل فيه أو التغير إلا أن يُنْقَضَ كيائها نقضاً .

وأكبر الظن أنه قد اتضح أن التجربة الشعرية ليست مجموعة من المعانى المتناثرة يُفَرِّغها الشاعر فى قوالب من الشعر كما يشاء ، وإنما هى كلٌّ وجدانى متماسك متناسق تتبادل أجزاؤه التعاونَ فى التعبير عنه ، فلكل جزء دلالة ، وهى دلالة ترتبط بالكل ارتباطاً عضوياً ، دلالة لا تُقَصِّدُ لذاتها ، وإنما ليتم بها وبدلالات أخرى تصوير حالة وجدانية بجميع عناصرها وشُعَبِها ، وهى حالة أحسّها الشاعر بل عاشها معيشة عميقة حتى استبانَت له بجميع دقائقها وتفاريحها . فالمشاعر والمعانى والألفاظ والإيقاعات الموسيقية تتولّد فى نفسه ، وتنبثق فيها وحدة تعمها من فاتحة التجربة إلى خاتمتها فى توازن دقيق وسياق محكم ، ولكل بيت مكانه المرقوم ، فلا فوضى ولا تشويش ، إنما بناء كله نظام والثّام ، وكله ضبط وإحكام .

عناصر التجربة الشعرية

الأحاسيس والمشاعر هي أهم العناصر في القصيدة أو في التجربة الشعرية ، إذ هي المفتاح الذي يسقط منه النغم ، ولا بد أن يكون النغم له صفة الدوام ، حتى يبقى ويخلد ، وهو لا يأخذ هذه الصفة إلا عن طريق الصبر الطويل ، وعن طريق تنمية الحياة الداخلية النفسية عند الشاعر ، حتى يتبين ضرباً من التبين روح الحياة التي تكن في وجود .

وليست هذه الروح مما يمكن الوصول أو النفوذ إليه عفواً ، بل لابد لها من التعمق وأن يحس الشاعر بشوق شديد إلى اكتناهاها ، إنها أمنيته وسعادته ، وهو لا يستطيع تحقيقها بالمرور العابر ولا بالنظرة الطائرة ، بل لابد من المكث لإزاءها مكثاً لا يعتد فيه بالزمن ، حتى يحل نفسه ويحل مشاعرها التي تحيا في أعماقه ، وهي مشاعر معقدة غزيرة في وقت معاً .

إن عالم النفس ومشاعرها محيط لا حدود له ، ولا يزال الشعراء من قديم يغرفون من هذا المحيط ، كل يغرف حسب ما هبَّئ له من قدرة . وكم شاعر يظن أنه يغرف منه وهو لا يغرف شيئاً ، وهؤلاء هم الشعراء المغمورون الذين لانحسبهم ، لأنهم لا يأتوننا بجديد ، إنما يبدئون ويعيدون فيما أتانا به غيرهم من تجارب شعرية ، أما الشعراء الممتازون فلأنهم يأتوننا بالجديد المبتكر متدفقاً في هذه الجداول أو الينابيع الخاصة بهم التي نسميها تجارب أو قصائد بالمعنى الكامل للقصيدة .

ولا تظن أن الشاعر يحتاج إلى موضوع عظيم ، حتى يستثير نفسه ، فتفيض بالإحساسات ، فليس المدار على الموضوع ، إنما المدار على الشاعر الذي يستطيع أن يستنبط من الموضوع الصغير معيناً لا ينضب من إحساساته ومشاعره . وليكن الموضوع من موضوعات الحياة اليومية فإن الشاعر الحق يستطيع أن يجد فيه من كنوز الأحاسيس ما يجده في حدث كبير من أحداث الكون ، إذ تتدافع عليه نفس الأحلام ونفس الذكريات والتأملات ، ومن هنا كان كل ما في الحياة صالحاً لأن يكون موضوعاً لتجربته ، موضوعاً يعيش في داخله ، مستغرقاً فيه منصرفاً عن كل ما حوله من ضوضاء عالماً ، تلك الضوضاء التي تحجب عنا حقائق حياتنا الداخلية ، والشاعر

الصحيح لا يسمعها ، إنما يسمع ضوضاء نفسه ومشاعرها ، ويظل الساعات الطوال غارقاً فيها ، لا يحس شيئاً مما حوله ، مما يشغل الناس . وقد يكون حدث تجربته مما يشغلهم فعلاً ، ولكنه يحوِّله ببصيرته العميقة وما يتسكب عليه من أحاسيسه إلى شيء باق خالد ، لأنه ينتقله فعلاً من علاقاته الوقتية الزائلة إلى عالم مشاعره الخاص الذى يعيش فيه ويُنصتُ عليه من العلاقات الشعورية ما يحفظه ويبقيه . وبذلك يتحول الحدث الصغير فى دنيانا عنده إلى حدث كبير ، بما يعطيه من الحياة الإنسانية وما يُجْرى فيه من عواطف ومشاعر .

وعلى الشاعر أن يلاحظ نفسه ملاحظة دقيقة ، يلاحظ كل ما يثور فى أعماقها ، غير مستصغر لأى حس أو شعور . إنه يعيش فى عالم لجيبٍ من الحياة الوجدانية النابضة ، وعليه أن يسجل كل ما تراه بصيرته فى هذا العالم من وجدانات وعواطف . وربما رأى فيه ما لم يره أحد قبله ، إنه عالم مليء بالأسرار الدقيقة التى يحس الناس بها ، وقلما استطاعوا الإبانة عنها ، ويستطيع ذلك الشعراء ، ولكن متى؟ حين يُكبِّسون عليها بكل كيانهم وبكل قواهم ، فإنها كثيراً ما تومض ثم تختفى ، وكثيراً ما تدنو ثم تبتعد ، بل تفرّ ، إلا أنها بطول ممارستهم ومعاناتهم تُسلس قيادها لهم فى تجاربهم الحية الخالدة .

ومهمة الشاعر لذلك ليست سهلة ، فالحياة الشعورية الإنسانية ليست طريقاً معبداً ، بل هى طريق ملتو شديد الالتواء ، والشاعر فى تجربته إنما يصور جانباً من هذا الطريق ، جانباً لم يسلكه أحد من قبله ، فيه جمال ، هو نفس الجمال الذى نشعر به حين نلم بركن هادئ من أركان الطبيعة لم نره من قبل . وقد وصفنا الركن بالهدوء ، لأن الشاعر ينبغي أن يهدأ عند الموضوع الذى اختاره لقصيدته والمشاعر المختلفة التى يثيرها فى نفسه ، حتى تتم رؤيته له من جميع أطرافه . أما الشعراء الذين لا يهدئون ولا يتأنّون فى تجاربهم ، ويظنون أنها شيء سهل لا يحتاج أناة ولا هدوءاً ولا تدرُّعاً بالصبر ولا تغلغلاً فى أعماق النفس فإنهم لا يأتوننا بتجارب فنية تامة ، تعالج الغامض فىنا أو فى الحياة ، بل يأتوننا بتجارب ناقصة ، قد نجد فيها متعة ، ولكنها متعة وقتية غير باقية .

على أن كثيراً من مثل هذه التجارب ليس أكثر من عبث طائش ، وليس غريباً

من أجل ذلك أن يكثر الشعراء الذين يسقطون من حساب الزمن ، فلا يأبه بهم التاريخ ولا يأبه بهم النقاد ، لأنهم ليسوا من القمم التي تنشدها الإنسانية ، إذ هم يعيشون في سفح الحياة مثل مَنْ حوّلهم من الناس ، حتى إذا ماتوا لم يبق لهم أثر ولم يذكرهم أحد . إنما يذكر التاريخ والنقاد الشعراء الممتازين الذين صبروا وصابروا وجاهدوا في التغلغل إلى أعماق النفس البشرية ، واستخرجوا ما فيها من أحاسيس ومشاعر ، كل حسب بصيرته وحسب نبوغه وحسب ما رأى في عالم النفس وأطيافه .

ولا نريد من الشاعر التغلغل في سراديب النفس المعتمنة على نحو ما يفعل الرمزيون والسرياليون من الشعراء ، إنما نريد أن تكون التجربة الفنية حديثاً نفس ، بحيث تميّز شاعرها ، وبحيث تتضح لنا شخصيته فيما ينظم ، فنقول حين نقرأ قصيدته إنها له وليست لغيره ، لأن له فيها أو في نسجها خيوطاً من المشاعر والأحاسيس تميزه وتميز تجربته ، فهو ليس نسخة من غيره ، بل له شخصيته وله تفرد بين الشعراء .

وليست كل عناصر التجربة الفنية أحاسيس ونفساً ، ففيها أيضاً العقل والفكر ، وهو من أهم عناصرها ، إذ هو الذي يشرف على الأحاسيس وينظمها ، ولولاه لكانت خليطاً مضطرباً لا تسوده وحدة ولا يسوده نظام ، فهو الذي يؤلف بين شتيتها ، ويجمع بين منشورها ويكون بناءها . وحقاً إن عالم العقل يختلط بعالم النفس في التجربة الفنية ، حتى لا يمكن التمييز بينهما ، ولكن مما لاشك فيه أن للعالم الأول فضل التأليف والتنسيق العام بين خواطر الشاعر ، بحيث تغدو وحدة حسنة الترتيب والتركيب ، وحدة عاشها صاحبها بكل ما يملك من قوى عقلية ونفسية .

وينبغي أن لا يخضع الشاعر للقوى العقلية وحدها ، فإن قصيدته حينئذ تفقد الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه ، أساس العاطفة والمشاعر الوجدانية ، إنه ليس بصدد عمل عقلي ، وإنما هو بصدد عمل نفسي لغته الشعر ، أما العقل الخالص فلغته النثر ، وهي لغة تتميز بالمنطق والوضوح الخالص ، لأنها تعالج معارفنا المحدودة ، بخلاف لغة الشعر فإنها تعالج مشكلة غاية في التعقيد ، مشكلة معرفتنا بالكون والحياة النفسية

وإذا خرج الشعر عن حدود هذه المشكلة لم يعد شعراً ، مهما وُضع في أوزان وقواف . فالعقل عنصر في التجربة الفنية ، ولكن ينبغي أن يحترس منه الشاعر ، حتى لا يغلبه على شعره ، فيُخرجه من دوائر الشعر إلى دوائر النثر . ويتضح ذلك حين تسود التجربة الفنية نزعة التجريد ، فإننا نرى الشاعر تتحول إلى فكر مجرد ، فتبدو القصيدة في شكل حكم وأمثال ، على نحو ما نعرف في كثير من جوانب الشعر العربي ، إذ يعتمد الشاعر إلى التعبير بحكم وأقوال مجردة عن أحاسيسه .

ولا يُخشى على التجربة الفنية من شيء كما يُخشى عليها من هذا المصير ، فإنها تفقد تأثيرها ، وتصبح كأنها منا ، من أرضنا وعالمنا ، وبذلك لا تصعد بنا في مراقب الشعور ، بل نظل كما نحن ، فالشاعر معنا ، وهو لا يستطيع التحليق بنا في أجواء الشعر البعيدة .

إنما يحتاج محيط النفس إلى العقل كي ينظمه ، ينظم ما فيه من أحاسيس ، أما إذا سيطر عليها وجردتها من غموضها وأحاطها حكمة مركزة أو قل مجردة فإنه يُخرجها من طبيعتها ، إذ يجعلها عقلية جافة ، وبدلاً من أن ينمّيها ويساعد صاحبه على الغوص فيها يجمدها ، ويفصلها عن الحياة النفسية بحواجز التركيز والمنطق الشديد .

ومعنى ذلك أن التجربة الفنية ينبغي دائماً أن تكون تجربة نفسية ، للعقل عمل فيها ولكن بشرط أن لا يخرجها من عالمها : عالم الرؤى والأحلام والصور الطريفة . ولعله من أجل ذلك كان الخيال عنصراً مهماً في التجربة الشعرية ، لأنه يساعد على تمام الحلم واكتماله ، وبمقدار ما يجعلنا الشاعر نحلم تكون قيمة قصيدته ، إذ نخرجنا من عالمنا الحقيقي إلى عالمه النفسي ، وهو عالم من الصعب التعبير عنه ، عالم لا بد لمن يدخل فيه من أن يحلم حتى يحس أنه قد فارق عالمه المألوف بالأشياء الوقتية العارضة .

وإذا كانت التجربة الفنية حلماً حقاً فإنها تكون خيالاً تركيبياً تاماً . خيالاً ننسى فيه عالمنا ، إذ يحملنا على أجنحته إلى عالم جديد ، نشعر فيه بلذة غير مألوفة . وما هذه الأجنحة إلا المجازات والاستعارات التي ينمو فيها الحلم أو الرؤية الشعرية نمواً عضوياً . حقاً من الاستعارات والمجازات ما لا يبدو فيه هذا النمو

العضوى ، لأنه لا يتولد من خلال التجربة وأحاسيسها ، ولكن ليست هذه هي أجنحة الخيال الجيد المتداخل في التجربة ، إنما هي وميض لامع يضاف عن طريق تداعى الألفاظ وتداعى الأفكار والمشاعر .

ومن غير شك يفوق الخيال العضوى في التجربة الفنية الخيال الثانى ، إذ يتداخل فى أحاسيس الشاعر التى يبنى منها تجربته ، فأحاسيسه تنطلق من خلاله ، ولا يظهر فيه أى اصطناع ولا تصنع ، بخلاف الخيال الناشئ عن التداعى فإنه يظهر فيه التكلف وأنه مجلوب لا ليضيف معنى ، وإنما ليضيف تألقاً ولعناً وزخرفة . والأصل الأصيل فى الخيال أن الشعراء لا يستخدمونه زينة أو حلية كما قد يُظَنُّ ، وإنما يستخدمونه ليستتموا تعبيرهم إزاء عالم النفس والوجود الملموز ، فإنهم مهما عبروا عن هذا العالم أحسوا قصوراً فى تعبيرهم ، ومن ثمَّ يستكملون بخيالهم — أو يتلافون به — نقص لغتهم . وإذا كانوا يشخصون الطبيعة ويملاؤها أو يملأون عناصرها من الشمس والقمر والسماء والأرض والبحار والأنهار والأشجار بالعواطف والوجدانات والمشاعر فلأنهم يريدون أن ينقلوا إلى الروح الداخلية للكون كله ، تلك الروح التى تتشكل أشكالاً مختلفة تحت بصائرهم .

اللغة الخيالية أو التصويرية إذن عند الشعراء مردُّها من جهة إلى إحساس بالكون وروحه يغيّر إحساس الشخص العادى ، ومن جهة ثانية إلى قصور الألفاظ ومدلولاتها الحقيقية عن التعبير عما يشاهدونه فى حياتهم النفسية الداخلية من مشاعر . ومهما يكن أصل الخيال ومبعثه فى الشعر فإنه يضاعف المتعة به ، إذ يتحول الشاعر بوساطته من نجاز إلى مجاز ومن استعارة إلى استعارة وكأننا نقفز معه فى سمائه من أفق إلى أفق ، فنشعر بغير قليل من البهجة أو قل كأننا معه فى دار خيالة تعرض علينا صوراً متتابعة ، نفصل بها عن حياتنا الواقعية ، فنسكن إليها ونحس بغير قليل من المتعة ، إذ نشعر كأننا تخلصنا من أعباء الحياة وانزاحت عنا إلى حين .

والشعر لا يزيح عنا هذه الأعباء بما فيه من أحاسيس ومشاعر وفكر جديد وخيال رشيق فحسب ، فهناك عنصر رابع لا يقل عن العناصر السابقة فى هذا المجال أثراً وتأثيراً ، وهو الموسيقى ، إذ الناس لا يتكلمون فى أحاديثهم اليومية كلاماً موسيقياً

منغماً ، إنما يصنع ذلك الشعراء ، فهم ينغمون كلامهم ويغنونه الناس فيطربون ويمرحون كالأطفال

والشعراء لا يستخدمون الموسيقى في قصائدهم لغرض الطرب فحسب ، وإنما لتلافي النقص في تعبيرهم ، فثلها في ذلك مثل الخيال ، بل إنهم إن استغنوا عن الخيال في بعض أبياتهم أو في بعض المقاطع من قصائدهم فإنهم لا يستغنون عن الموسيقى ألبتة ، وكأنها التعبير الذي عثرت عليه الإنسانية من أول الزمان للإفصاح عن عالمي النفس والكون وما يُطَوَّى فيهما من حقائق وأسرار ، فهي الشعر صِنْوَان لا يفرقان مهما تقدم الزمان وارتقى الإنسان .

وهو إنما يرتقى في عالم العقل والمعرفة ، أما في عالم النفس والطبيعة الإنسانية فإنه باق على حاله ، لم يتغير في الماضي ولن يتغير في المستقبل ، فالرجال والنساء والشباب والشيب الذين يغدون ويروحون تحت أبصارنا بأزياء جديدة لم يعرفها أسلافهم تحركهم نفس الغرائز والنوازع والماشاعر التي كانت تحرك أجدادهم ، بل التي كانت تحرك الإنسان الأول في كهفه ، وكل ما هنالك من فرق أن الديانات والمدنيات التي توالى على الإنسان جعلته أقدر على السيطرة على غرائزه ، ولكن لا يزال ، كما كان ، في مشاعره وفي طبيعته البشرية . ولعل ذلك ما يتيح للشعر الخلود ، لأن الطبيعة الإنسانية التي ترفده خالدة فينا ببواعثها ودوافعها النفسية .

ومبني يدرسون هذه الطبيعة في علوم الحياة والنفس يجدون أنفسهم في أدغال ملتفة متشابكة ، بل قل إنهم يجدون أنفسهم في عالم مسحور ، كل ما فيه يتغير تغيراً مستمراً لا ينقطع ، وكأنما في كل جانب تيار متدفق بالغيبى المجهول . وهذا ما جعل الشعراء دائماً يتعلقون بالموسيقى في شعرهم ، كأنما يريدون بها أن يستكملوا ما لا تستطيع اللغة بيانه . ومن المحقق أن الشعر يؤثر بها في نفوسنا تأثيراً قوياً ، وهو تأثير لا يُردُّ إلى إدراكنا لنغمات خارجية تؤثر في أجسادنا تأثيراً مادياً ، إنما يرد إلى أن نفوسنا هي التي يحدث فيها التنعيم ، فكل نغمة في تجربة فنية تؤثر في إدراكنا وترتفع معها نغمات عاطفية في قلوبنا . وآية ذلك أننا نتأثر بالشعر حين نقرؤه صامتين كما نتأثر به حين نقرؤه منشدين ، ولو أن تأثرنا به يرجع إلى موجات صوتية منتظمة تنتشر على أجسادنا لبطل تأثرنا به حين نقرؤه في صمت وهدوء .

وقد كانت موسيقى الشعر في أول نشأتها مرتبطة بالرقص والغناء ، واستمرت متحدة بهما مدة طويلة ، ولهذا مظهر واضح في رنيها وألحانها . ومهما تكن نشأتها فإنها تزيد في قابلية وجداننا ومشاعرنا للتأثر بما يقول الشاعر ، ويتضح ذلك في أننا نستعدُّ بمجرد سماع أصواته ونبراته إلى سماع ما يتحد معها في اللحن ، فإذا انزلت إلينا صور موسيقية لا تأتلف معها نفرتنا منها نفوراً شديداً .

ولا بد أن نشير هنا إلى أننا لا نؤمن بما ذهب إليه بعض المعاصرين من محاولة الربط بين موضوع القصيدة والوزن الذي تُنظَّمُ فيه ، فحقائق شعرنا تنقض ذلك نقضاً تاماً ، إذ القصيدة تشتمل على موضوعات عدة ، ولم يحاول الشعراء أن يخصصوا الموضوعات بأوزان لها ، لا تُنظَّمُ إلا فيها ، فكل موضوع نُظِّمَ في أوزان مختلفة ، وكل وزن نُظِّمَ فيه موضوعات مختلفة .

ومهما يكن فالموسيقى عنصر أساسي في القصيدة أو في التجربة الشعرية ، وليست هي التي تثير فينا كل تأثيرها ، إنما تثيره معها العناصر السابقة من الأحاسيس والمشاعر النفسية والتأملات العقلية والخيال . ولا بد أن تلتحم هذه العناصر التحاماً تاماً ، بحيث تنمو القصيدة من خلالها نمواً عضوياً دقيقاً .

الوحدة العضوية للقصيدة

يقصد النقاد بالوحدة العضوية للقصيدة أن تكون بنية حية تامة الخلق والتكوين ، فليست القصيدة ضرباً من المهارة في صياغة أبيات من الشعر ، وإنما هي بناء بكل ما تحمله كلمة بناء من معنى ، لأنها عمل تام كامل ينقسم إلى وحدات تسمى أبياتاً ، ولكن كل بيت خاضع لما قبله ، لا تحجزه عنه خنادق ولا ممرات ، فهو خيط في النسيج ، يدخل في تكوينه ، ويساعد على تشكيله .

ليست القصيدة خواطر مبعثرة ، تتجمع في إطار موسيقى ، إنما هي بنية نابضة بالحياة ، بنية تتجمع فيها إحساسات الشاعر وذكرياته لتكون مزيجاً لم يسبق إليه من الفكر والشعور . وهو مزيج مركب من حقائق كثيرة وجدانية وعقلية . ومهما تكن الحقائق التي تكوّنهُ ، فإنها لا تتباين ، بل تتآلف وتتحد في تيار مغناطيسي يجذبها بعضها إلى بعض .

إن القصيدة مجموعة من عناصر مترابطة متداخلة ، تصوغها بصيرة الشاعر ، لتصور خبرته ومعرفته إزاء حدث نفسي أو كوني أو يومي ، حدث لا تزال نفسه تنفعل به ، وتهتز إزاءه في خطوط واتجاهات مختلفة ، حتى تندفق عليه الإحساسات ، وقد أخذ بعضها برقاب بعض ، إحساسات تصور صلة الشاعر بالحدث في حقيقته الجزئية ، وصلته به من خلال حقائق الكون الشاملة .

وبذلك تصبح القصيدة عملاً شعرياً تاماً ، فهي ليست مجرد أفكار تُجمَعُ من هنا وهناك ، وإنما هي خبرة تامة للشاعر بمجموعة من المشاعر والأفكار والأحاسيس من خلال موضوع معين من موضوعات الحياة . ونحن لا نقرأها حتى نزيد فهماً لحقيقتنا وحقائق الوجود من حولنا ، إذ تكمل معرفتنا ، ولا نقصد المعرفة الفكرية أو العلمية ، وإنما نقصد المعرفة التي تنبع من الفكر والعقل من جهة ومن العاطفة والنفس من جهة ثانية .

إنها المعرفة الشعورية التي لا يمكن للعقل ولا للعلم أن يؤدّيها ، إنما يؤديها الشعر وتؤديها القصيدة التي تصاغ من العقل والنفس معاً . وهي لذلك ينبغي أن تكون كلاً حياً ، وهل يمكن لمعرفة أن تقوم بغير كل يصورها ، إنها كلٌّ يتكون من

أجزاء . وكل جزء فيه يكون عاملاً في نموه ، حتى يتشخص لنا كاملاً ، فترداد معرفتنا ، وتزداد خبرتنا وتكتمل صورتها في نفوسنا اكتمالاً ، لا يؤديه سوى قصيدة بعينها ، قصيدة سَوَّاهَا الشاعر . كما يُسَوِّي الكائن الحيُّ تسوية عضوية تامة وهل يمكن أن نرى هذه الخبرة أو هذه التجربة رؤية دقيقة إلا إذا كانت مستوية الخلققة ، وإلا إذا تجمعت فيها حياة شعورية نابضة ، وإلا إذا تركز على جميع أبياتها من أولها إلى نهايتها نور يشف عنها إشفاقاً كاملاً . إن الشاعر إن لم يعيش في أثنائها جميعاً أو قل في وحداتها معيشة تستغرقه بداً نَقْصه وعجزه وأنه مشتبك موزع لا يستطيع أن يسوي خلقة تامة أو وحدة عضوية كاملة ، فما بالنا إن هو حوّل قصيدته إلى أحداث مختلفة وموضوعات متباينة ، إنها لا تكون خلقاً سوياً ، بل تكون مجموعة من المخلوقات الناقصة المشوهة .

ومن الحق أن القصيدة العربية لم تكن تعرف هذه الوحدة العضوية معرفة واضحة قبل عصرنا الحديث إلا نادراً ، وربما كان مرجع ذلك إلى تقيد شعرائنا في العصور الوسطى بنموذجها الذي وضعه لها شعراء العصر الجاهلي ، حيث نجد القصيدة متحفاً لموضوعات مختلفة ، لا تربط بينها أي رابطة قريبة ، فالشاعر يبدؤها بوصف الأطلال والديار والنسيب ، ثم يستطرد إلى وصف الصحراء وحيوانها الأليف والوحشي ، حتى إذا فرغ من هذا الوصف خرج إلى الغرض الأساسي لقصيدته من الفخر أو المدح أو المهجاء أو الاعتذار أو الرثاء ، وربما ختمها بالحكم والأمثال .

وما أشبه القصيدة الجاهلية في هذا النمط بالفضاء الواسع الذي كان يترامى تحت عَيْنِ الشاعر الجاهلي ، فإنها تجمع مثله أشياء متناثرة غير متلاصقة ولا ملتحمة . وليس ذلك فحسب ، فإن الشاعر لا يثبت عند معنى بعينه من معاني هذه الموضوعات التي يؤلف منها قصيدته ، بحيث يخرج من حقيقته الحسية الجزئية إلى حقائق الكون الكلية . فهو لا يتعمق في الوجود ، لا في الوجود النفسي ولا في الوجود الكوني . إنه شاعر حسي يركز حسّه في معنى أو بيت ، ثم ينتقل عنه سريعاً ويثب وثباً أو قل يقفز قفزاً هنا وهناك ، فلا استقرار . وقد يكون ذلك أثراً من آثار حياته الراحلة الدائرة وراء مساقط الغيث والكأ ، تلك الحياة البدوية التي لم تكن تستقر في موضع

من المواضع . وهو كذلك في معانيه لا يستقر عند معنى من المعاني ولا يطيل المكث فيه ، بل يمرُّ به عادة مروراً خاطفاً .

وعلى هذا النحو تألفت القصيدة الجاهلية من أبيات متجاورة متناثرة كأبيات الحى وخيامه ، فكل بيت له حياته واستقلاله ، وكل بيت وحدة قائمة بنفسها ، وقلمها ظهرت صلة وثيقة بين بيت سابق ولاحق . وبذلك فقدت تلك القصيدة وحدتها لا من حيث الموضوعات المتباينة التى تنتظم فيها فحسب ، بل أيضاً من حيث الأبيات فى الموضوع الواحد ، فهى تتجاوز مستقلاً بعضها عن بعض .

ونمضى مع الزمن فإذا المحدثون العباسيون يحتكمون غالباً إلى هذا النموذج القديم فى صنع القصيدة ، فهم يعددون موضوعاتها ، وهم لا يُعَنَّون بالربط النفسى بين أبيات الموضوع الواحد ، بل يستمر لكل بيت استقلاله وانفصاله ، حتى أصبحت مقدرة الشاعر تقاس ببيت واحد جميل يصوغه فى قصيدته ، وكانوا يسمونه بيت القصيد ، فهو كل غايتهم وغاية النقاد من حولهم

وهكذا دار النقد والشعر على وحدة البيت ، فلم تُعرَف وحدة القصيدة إلا فى الندرة ، وقد عدوا اتصال بيت بما قبله أو بما بعده عيباً يُزرى بالشعروصاحبه ، وسمّوه التضمين ، وربما كان الشيء الوحيد الذى عُنوا به هو حسنُ التخلص من موضوع إلى موضوع ، ولم يكن الجاهليون يراعون ذلك ، أما العباسيون وخاصة أبا تمام وابن الرومى والمتنبى فقد جاءوا فيه بمحاسن حازت رضا الشعراء والنقاد واستحسانهم .

ومهما يكن فإن القصيدة الجاهلية ظلت تسيطر على فكرة تأليف القصيدة العربية فى أوج ازدهارها أيام العباسيين ، حقاً هناك موضوعات خرجت بطبيعتها عن أن تجاورها فى القصيدة موضوعات أخرى كالغزل وبعض قصائد الرثاء ، ولكنها احتفظت فى معانيها برواسب تقليدية ، أو قل إنها اتخذت شكلاً تقليدياً ، فالشعراء يكررون أنفسهم فيها . ولنرجعُ بذاتنا إلى قصيدة الغزل العربية وما نظمها الشعراء فى هذا الموضوع الذاتى بطبيعته فإننا سنجدهم يتقيدون بالأفكار الجاهلية فيه من مثل الرّحيل والبَين والإشفاق منه والتشوق بلسع البروق ومرّ النسيم ، وقد تداولوا معانى الصدود والمهجران والواشين والرقباء ومَنعة الحراس والأبواب ، كما تداولوا ذكر القدود

والنهود ورقة الحَصْر وثقل الرَّدْف ، وقلما تجد شاعراً يصدر في هذا الموضوع الوجداني عن تجربته هو وعن حبه هو الذي عاش فيه وأحسه في أعماقه .

ومردُّ ذلك إلى أن شعرائنا الماضين لم يتصوروا في الكثير الأكثر من أشعارهم أن القصيدة تجربة ذاتية نفسية ، تربطها وحدة شعورية وفكرية ، تجعل منها بنية عضوية متماسكة ، إنما كل ما تصوره عنها أنها طائفة من الأبيات يجمعها إطار موسيقي واحد ، وهي أبيات يُردُّ كثير من معانيها وأخيلتها إلى القدماء . ولذلك لا نعجب إذا وجدنا باب السرقات أهم أبواب النقد العربي الوسيط ، لأنها كانت فعلاً عماد الشعر وأساسه ، إذ كان الشاعر يرجع في قصائده إلى من سبقوه ، فشعره ليس تعبيره وحده ، بل هو تعبير العصور السابقة أيضاً ، بل قد يعبر عند بعض الشعراء عن هذه العصور بأكثر مما يعبر عن عصرهم وتجاربهم الخاصة التي مرت بهم .

ومن ثم لم تتضح فكرة التجربة الشعرية في نفوس شعرائنا السالفين ، وحقاً قد يظهر أفذاذ مثل أبي تمام وابن الرومي والمتنبي وأبي العلاء ، ولكن القصيدة عندهم لا تنفصل انفصالاً تاماً عن القديم . وكانت شدة الإحساس عند ابن الرومي وقوة شعوره بمعاني الحياة والطبيعة من حوله مما يهيئُه لأن يعيش معيشة طويلة في معاني قصائده ، ولكنه صرف هذه المعيشة غالباً إلى محاجة عقلية ، يورد في أثناءها البراهين الفكرية على طريقة المجادل المناظر اللّجوج . وشُغف المتنبي بنظرات عميقة في النفس والحياة ، ولكنه ركّزها في حِكْمه الماثورة ، ولم يعطها فسحة من الإطناب والبَسْط تتحول فيها إلى تجارب شعرية تامة بانفعالاتها وما تصور من دخائل وجدانه تصويراً واسعاً . ولم يكن ينقصه شيء من الفطنة ودقة الحس ، ولكنه عمد إلى ضرب من التركيز والتجريد لمعانيه حال بينه وبين صنع التجربة الشعرية الحقة . وكان أبو العلاء يتعمق في فهم النفس والوجود وأسرارهما ولكنه شُغل هو الآخر بالتجريد والتعميم ، فقلما وقف عند حقيقة نفسية أو كونية يصوّر فيها شعوره وفكره تصويراً مفصلاً يعيش فيه طويلاً . وربما كانت قصيدته المشهورة التي يرثي بها صديقه الفقيه الحنفي ، والتي يستهلها بقوله :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي تَوَحُّ بِاِكِّ وَلَا تَرْنُمُ شَادِي
وَشَبِيهُ صَوْتِ النَّعِيِّ إِذَا قِي سَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِي

من خير ما أدّى للشعر العربى من تجارب شعرية نابضة بالحياة ، وهو يفتتحها كما نرى فى هذين البيتين بموقف فريد لم يقفه شاعر فى العربية من قبله ، فالبكاء الحزين كالغناء الفرح ، دلالتهما واحدة ، وهما لا يفيدان الميت ولا الباكي عليه شيئاً . فننظر إلى الدنيا وسرعة زوالها وتعمق فى نظره استوى عنده الحزن والفرح أو بعبارة أخرى استوى عنده النعي بالموت والبشارة بالمولود ، إذ سرعان ما تصبح البشارة — مهما طاللت الحياة بالمولود — نعيّاً ، فصوتا الحزن والفرح متشابهان . واسترسل أبو العلاء يعرض شعوره وفكره عن الحياة والموت فى صورة فريدة لم يسبق إليها ، صورة تتخذ من العاطفة والعقل مادتها ، وتكشف لنا فى وضوح عن جانب من علاقتنا بالوجود ، جانب يكتمل إحساسنا به ، وكأنما تكتمل شخصيتنا ، فقد اتسعت معرفتنا لحقيقة كلية من حقائق حياتنا . ومن أجل ذلك نقول إن هذه القصيدة تجربة شعرية حية ، لأن أبا العلاء لا يعتمد فيها على عادته إلى خطاب عقولنا كما هو شأنه فى ديوانه المسمى بالزوميات ، إنما يعتمد إلى خطاب مشاعرنا ونفوسنا ، أو قل هو يعتمد إلى خطاب عقولنا ونفوسنا جميعاً .

ومثل هذه القصيدة العلائية نادرة فى العربية ، فقلما نجد من حوله من الشعراء أو من جاءوا بعده يصورون خبرات خاصة فى حياتهم النفسية العقلية أو خبرات عامة فى حياة الكون وحقائقه وأسراره . وما زال هذا شأن شعرائنا حتى اتصلوا بالغرب وآدابه وما أنتج شعراؤه من شعر وقصيد ، فوجدوهم يخوضون خوضاً فى غمار النفس والطبيعة . وقد يستوحون القديم اليونانى والرومانى ، ولكنه لا يجمد شعرهم فى صور ثابتة ، فقصاصاتهم صورة عصورهم وأنفسهم ، وكل منها صورة فردية لصاحبها ، صورة سيالة ، تعبّر عن خبرة له هو ، لم يشركه أحد فيها ، خبرة نبعت من قلبه ، وصاغ فيها أحاسيسه وأفكاره صوغاً تترابط فيه عناصرها برباط وثيق من وحدة شعورية وذهنية أو قل من وحدة عضوية نامية ، فغانيها لا تزال تنمو مكونة لها ، كما تنمو الشجرة الكبيرة من بذرة صغيرة ، فتخرج من التربة ، ولا تلبث أن تنشأ ساقها ، وتستمر فى النمو فتنبثق فروعها وأغصانها ، وتتولد الأوراق على الفروع والأغصان ورقة بجانب ورقة .

وكان من أوائل شعرائنا الذين لحظوا فى عصرنا الحديث هذا النمو العضوى

في القصيدة الغربية خليل مطران ، فعمل جاداً على أن يتحول بكثير من قصائده إلى هذه الصورة الجديدة وأن تكون قصيدته تعبيراً تاماً عن نفسه وأحاسيسها الداخلية ، تعبيراً متكاملًا ، لا يُنظرُ فيه إلى البيت المنفصل ، وإنما ينظرُ إلى التعبير كله أو القصيدة كلها ، فهي بناء ترابط عمده وأركانه وتتلاحم معانيه وأجزاؤه ، لا يعبر عن الموضوعات القديمة أو الأفكار والصور القديمة ، وإنما يعبر عن الشاعر وعالمه النفسى والذهنى . وصور هذه الوجهة الجديدة في عمل الشعر بمقدمة الجزء الأول من ديوانه الذى نشره في سنة ١٩٠٨ فقال :

« هذا شعر عصريّ ، وفخره أنه عصريّ ، وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر . هذا شعر ليس ناظمه بعبّده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصّده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الصحيح ، ولا يُنظرُ قائله إلى جمال البيت المفرد ، ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها ، مع تلور التصوير وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحريّ دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر »

وواضح أن كلام خليل مطران صدى لفكرة الوحدة العضوية النامية في القصيدة الغربية ، وإن لم يصرح بذلك تماماً ، فشعره عصري يخضع لمقاييس جديدة ، لا تتحكم فيها موضوعات شعرنا القديم ولا معانيه ولا صوره وأخيلته وصياغاته التي تجمدت . وهو أيضاً شعر عصري في تصميم بنائه ، فبنائه وطيد ، قد اتسقت فيه أجزاؤه بحيث لا يُنظرُ فيها إلى جزء دون جزء ولا إلى بيت دون بيت ، كما كان الشأن في القصيدة القديمة التي كانوا يطلبون فيها بيت القصيد والتي لم تكن تتشابه لتعبر عن معنى كُلى ، إنما هي وحدات مبعثرة لا نسق لها ولا نظام .

ونقرأ في هذا الجزء الأول من ديوان خليل مطران ، فنجد أنه قد فطن حقاً إلى ما تعالجه القصيدة الغربية من موضوعات أكثر سعة وعمقاً من موضوعات الشعر العربى ، كما نجده يحسُّ في عمق فكرة الوحدة العضوية للقصيدة ، فهي ليست حشداً لأفكار من هنا وهناك ، أفكار قد يدخلها التباين والتنابد ، وإنما هي حالة

وجدانية على طريقة أصحاب المترع الرومانسى الغربى ، لا يزال الشاعر يوضحها بدقائقها من الأحاسيس والمشاعر . ونضرب مثلاً لذلك ؛ قصيدته : «المساء» التى يفتتحها بقوله :

داءٌ أَلَمٌ فخلتُ فيه شَفائى من صَبَوْتى فتضاعفتُ بُرَحائى

وقد نظمها وهو عليل يستشفى بالإسكندرية ، ونراه يتحدث من فاتحتها إلى خاتمتها عن داء أضنى جسده وآخر أضنى قلبه هما داء المرض والحب . وتلك هى حالة الوجدانية التى نبعت منها أحاسيسه فى القصيدة ، وهى أحاسيس ظلت تضغط على نفسه فى تلك اللحظة الخالدة فى شعره ، لحظة المساء ، فإذا هو يشكو وحشته وكآبته وصبابته ، وإذا كل ما حوله من عناصر الطبيعة يشكو شكواه ، فالبحر يُنُّ أنينه ، بل الصخر الأصم يُحسُّ إحساسه ، حتى الأفق فإنه معتكر قريح الجفن ، أما الشمس فتموت بين جنازة الأضواء ، وكأنها آخر دمعة للكون تخرج بدموعه .

والقصيدة بذلك كله تجربة شعرية تامة تنمو فيها وحدة عضوية كاملة ، فقد جعلها الشاعر فى مقاطع : مقطع يتحدث فيه عن عذابه بالمرض والحب ، ومقطع يناجى فيه معشوقته ، ومقطع يتحدث فيه عن يأسه من شفائه ، وقد تراءت له الطبيعة بالإسكندرية ذات مساء ، يغشاها الألم والكدر مثله ، ثم مقطع أخير تترج فيه دموع حزنه وألمه بدموع الكون . وليس من الممكن أن ينتقل مقطع من موضعه ، أو ينتقل بيت من مكانه ، فإن القصيدة وحدة تامة ، أو نسيج تام ، لا يمكن جذب خيط منه دون أن يختل نظامه ، بل هى بنية عضوية نامية ، فأجزاؤها تتتابع متسلسلة متلاحقة ، قد تركب بعضها فوق بعض .

وقد نشأ عندنا فى فاتحة هذا القرن بجانب الخليل جيل من الشعراء المجددين ، على رأسه عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى وعباس العقاد ، وكان هذا الجيل يقيم تجديده غالباً على ما استقرَّ فى نفسه من فكرة القصيدة الغربية ووحدة العضوية . والعقاد أكثر الثلاثة حديثاً عن هذه الوحدة فى كتاباته ، وقد جعلها المحور الذى دار عليه نقده لشوقي فى كتابه الذى ألفه مع المازنى باسم « الديوان » وهو ليس ديوان شعر ، إنما هو مقالات نقدية . ومن قوله فيه « إن القصيدة ينبغى أن تكون

عملاً فنياً تاماً ، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأوزانه بحيث لو اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . وانبرى يستقد شوقي على هذا الأساس ، وعرض لطائفة من قصائده في الرثاء ، ولاحظ عليها التفكك والتخلخل وأن من الممكن أن تغير مواضع الأبيات فيها ، فلا يخل بناؤها ، بل من المبالغة أن يقال إن لها بناء ، فهي ليست أكثر من كومة مهوشة من الأبيات ، ولذلك يمكن أن ترتب ترتيباً جديداً ، بل ترتيبات مختلفة ، يقول : « وكأنما القريحة التي تنظم هذا النظم ومضات نور متقطعة لا كوكب صامد متصل الأشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة » . وهو نقد يردُّ إلى اختلاف المهجين عند شوقي والعقاد في تأليف القصيدة ، فشوقي يؤلف قصائده على النهج القديم القائم على وحدة البيت ، وما يصدق عليه في هذا الصدد يصدق على شعراء العربية من قبله . والعقاد يرى أن تؤلف القصيدة على نهج جديد ، هو نهج الوحدة العضوية النامية . وألح على تأكيد هذا المعنى في الأذهان تارة بما يكتبه من نقد ، وتارة بما ينظمه من شعر .

وثبتت الفكرة في شعرنا الحديث شعراء المهاجر الأمريكي وكثير من شعرائنا وشعراء البلاد العربية ، ولكنها لا تزال تحتاج تثبيتاً وتأكيداً ودعوة إلى التعمق في فهمها ، فليست الوحدة العضوية - كما قد يتبادر إلى بعض الشعراء - أن تتوالى أبيات في موضوع بعينه ، ولكنها أبعد من ذلك عمقاً ، إذ لابد أن تصور الأبيات في قصيدتها حدثاً وجدانياً تاماً تدرج فيه ، بل قل تتخلق تخليقاً نامياً على نحو ما يتخلق الجنين تخلفاً كاملاً .

الصورة والمضمون

من المشاكل التي أثارها النقاد قديماً وحديثاً مشكلة الصورة والمضمون في الأدب أو مشكلة الشكل والمحتوى أو بعبارة أوضح مشكلة اللفظ والمعنى . ولعل الجاحظ هو أقدم من أثارها بين نقاد العرب إثارة واسعة ، فقد تحدث عنها كثيراً في كتبه ، وهو في كل جانب من أحاديثه يرفع من شأن اللفظ ويغضُّ من شأن المعنى ، بل إنه يسقطه إسقاطاً ، فليس له فضل ولا مزية ولا قيمة فنية ، ومن قوله : « المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتحبير اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك » .

ولعل من الغريب أن الجاحظ الذي آمن بقيمة اللفظ على هذا النحو كان في طليعة من عرفوا في أدبهم قيمة المعاني وطرافتها وأهميتها ، بل ربما كان أهم كاتب في عصره عني بمعانيه ، إذ كان يوفر لها كل ما يمكن من جدة وبراعة . وهو حقاً يُعنى بالفاظه ، ولكنها عناية تابعة لمعانيه ، إذ نراه يحدث فيها ضروراً من البسط والتكرار والازدواج حتى يؤدي أفكاره أداءً دقيقاً

ليس الجاحظ من الكتاب اللفظيين ، هو يُعنى بالفاظه ، ولكنها عناية محدودة ، فهي لا تنسيه معانيه ، بل لعله يُعنى بمعانيه وما تتشعب إليه من شعب وما تتفرع إليه من فروع أكثر مما يعنى بأساليبه وأن تظهر في صور ومعارض أنيقة . لذلك كنا ننتظر منه أن يشيد بالمعنى أكثر مما يشيد باللفظ ، ولكن لعله ذهب هذا المذهب ليرد على ما يدعيه الأعاجم والأجانب من كثرة معانيهم بالقياس إلى معاني العرب القدماء ، وكأنه في ذلك يتعصب للعرب ولغتهم وأدبهم . ومن ثم أخذ يرفع في كتبه من شأن اللفظ ويحتجُّ له احتجاجاً قوياً تارة بما يعرضه من آرائه ، وتارة بما يعرض من آراء غيره من الأدباء أصحاب البيان والتحبير ، كقول بعضهم : « أنذرکم حُسْنَ الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً ومنحه المتكلم قولاً متعشّقاً صار في قلبك أحلى ولصدرك أملاً ، والمعاني إذا كُست الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت عن مقادير صورها وأرُبّت على حقائق أقدارها بمقدار ما زُيّنّت وعلى حسب

في النقد الأدبي

ما زُخرفت . فاللفظ الرشيق الأنيق يؤثر في القلوب والعقول تأثيراً شديداً ، وكأنه يزيد في حقائق المعاني وأقدارها ، وبمقدار جماله وروعته الفنية تكون هذه الحقائق والأقدار .

وعلى هذا النمط أخذ الجاحظ يوثق دعوته إلى اللفظ والعناية به في الأدب بما يحكى من آرائه وآراء الأدباء والنقاد . وتعقبه ابن قتيبة خصمه اللدود ، فذهب في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » إلى أن البلاغة لا تقتصر على اللفظ ، فهي قد تكون فيه فقط وقد تكون في المعنى فقط وقد تكون فيهما جميعاً وقد تنقصهما جميعاً ، فليس اللفظ وحده هو الذي يعطى النماذج الأدبية قيمتها من فن وجمال ، فالمعنى يشركه في ذلك ، إذ يوصف بالرداءة والقبح كما يوصف بالجودة والجمال .

وانتشرت بين نقاد العرب فكرة ابن قتيبة وتأثر بها كثير من النقاد مثل قدامة ، فقد تكلم في كتابه « نقد الشعر » عن جودة اللفظ ورداءته وجودة المعنى ورداءته ، كما تكلم عن ائتلافهما وما قد يعتور هذا الائتلاف من ضعف . وصنع صنيعة أبو هلال العسكري في كتابه « الصناعتين » فقد احتفل بالمعنى واللفظ جميعاً ، أما المعنى فعقد له فصلاً بين فيه متى يكون حسناً مستقيماً يقبله النقاد ومتى لا يكون كذلك ، ولكي يدل على قيمته ذكر أن من عرف لغة أجنبية غير لغته مكنته من التنويع في أفكاره ومعانيه . وأما اللفظ فعقد له فصلاً آخر ، نقل فيه بعض عبارات للجاحظ مبيناً قيمته وما يضيفه على النموذج الأدبي من روعة وبيان وبلاغة .

وواضح أن جميع هؤلاء النقاد السابقين فصلوا بين اللفظ والمعنى ، إذ تحدثوا عنهما شيئين منفصلين ، وكأن ذلك لم يقع من نفس ابن رشيق موقفاً حسناً ، فرأيناه في كتابه : « العمدة في صناعة الشعر ونقده » يقول في فصل فتحه لبحث مشكلة اللفظ والمعنى : إن اللفظ جسم وروحه المعنى ، وكما لا يمكن الفصل بين الجسم والروح كذلك لا يمكن الفصل بين اللفظ والمعنى . وقد شبه ضعف اللفظ بضعف الجسم وما يعتريه من الشلل أو نقص الحلقة كما شبه ضعف المعنى بمرض الروح وتأثيره في الجسم .

فابن رشيق لم يعترف بالفصل بين اللفظ والمعنى كما صنعت جمهرة نقاد

العرب ، إذ كان يرى أنهما متلازمان وأن ما يُصيب أحدهما من آفة يصيب الآخر . وهى — لاشك — نظرة دقيقة ، فاللفظ والمعنى أو الصورة والمضمون ليسا شيئين منفصلين كالأكاس وما يكون فيها من شراب ، بل هما مترابطان ترابط الثوب بمادته . وكلما تقدمنا مع الزمن وجدنا نقاداً يدخلون فى المناقشة ولكن كثرتهم كانت تؤمن بتقديم اللفظ على المعنى ، إذ المعنى المجرد كالمادة التى تتخذ منها صور المصنوعات ، كالفضة أو الذهب مثلاً ، وكما أنك لا تفكر فى الذهب حين تفكر فى صنعة خاتم وإنما تفكر فى الصنعة نفسها فكذلك أنت إزاء المعنى المجرد الذى يشبه ماءً يُعرضُ فى آنية مختلفة فضية وذهبية وخزفية ، وسيعجبك الإثناء وإن تفكر حين يعجبك فى الماء أو ما يحويه ! ومن حين إلى حين يرتفع صوت يشيد بالمعنى ولكنه لا يلبث أن يضيع فى ضوضاء النقاد وما لا كوه عن الألفاظ وقيمها ، وكان ذلك من أهم ما جنى على أدبنا فى العصر الوسيط إذ جعله فى بعض الحقب أدباً لفظياً لا يحوى معنى أو يكاد .

وإذا كان العرب قد أثاروا هذه المشكلة وجعلوها من أهم مشاكل الأدب فإننا نجد لها فى النقد الغربى منذ أرسطو ، حقاً هو لم يصرح بالانفصال بين الجانبين ، بل هو على العكس أشار إلى الصلة بينهما ، كما أشار إلى وحدة العمل الأدبى وأن بين المعنى واللفظ تلازماً دقيقاً ، ولكنه أضنى على الألفاظ من الصفات ما لعله كان أحد الأسباب فى هذا التفاصيل الذى استقر فى نفوس العرب عن اللفظ والمعنى جميعاً كما استقر من قبلهم فى نفوس الرومان ومدرسة الإسكندرية .

ولعبت هذه المشكلة دوراً كبيراً فى الفلسفة الجمالية ، فتساءل كثيراً أصحاب هذه الفلسفة هل الجمال فى المعنى أو المضمون وحده أو هو فى اللفظ والصورة أو الشكل وحده . والأكثر على أن الفصل بين الجانبين غير ممكن ، فهما وجهان للنموذج الأدبى ، كالتقيد له وجهان ، وهو لا يكون بدونهما ، أو هو يقدر بهما جميعاً . فليس هناك محتوى وصورة ، بل هما شىء واحد ووحدة واحدة ، إذ تتجمع فى نفس الأديب الفنان مجموعة من الأحاسيس ويأخذ فى تصويرها بعبارات يتم بها عمل نموذج أدبى . وأنت لا تستطيع أن تتصور مضمون هذا النموذج أو معناه بدون قراءته ، وكذلك لا تستطيع أن تتصور صورته أو شكله ولفظه دون أن تقرأه ،

فهو يعبر عن الجانبين جميعاً مرة واحدة، وليساً هما جانبيين، بل هما شيء واحد، أو جوهر واحد ممتزج متلاحم، لا يتم نموذج فني بأحدهما دون الآخر. ولتصور شاعراً يصنع قصيدة في المساء أو في الحصاد فإذا يحدث؟ أولاً هو يفكر في القصيدة وتتجمع لديه أحاسيس مختلفة، ثم يأخذ في النظم، ينظم الإحساس الذي يلمُّ به ولا يختلج في نفسه أولاً معنى مستقلاً عن صورته، بل هو بمجرد أن يتم تصويره في نفس الشاعر تتم صورته في بيت أو أبيات.

ولا تقل إن شاعراً يفضل شاعراً في مقدرة اللفظية أو في قوالبه الشكلية، فالفضل لا يرجع إلى القالب أو اللفظ كما يبدو في الظاهر، وإنما يرجع إلى القدرة الفنية العامة التي تتبع من الأحاسيس أو المعاني نفسها، فأحدهما فنان بارع، تلمُّ به المعاني والأحاسيس المتنوعة في شكل صياغات متعددة من الشعر، والثاني فنان متوسط أو متخلف، لا يلمُّ به من المشاعر والأحاسيس ما يصوغه شعراً جميلاً. والكتاب كالشعراء يختلفون، منهم النابغ الذي تحتشد في نفسه معان وصور لا حصر لها، ومنهم الفارغ الذي لا يحوى قلبه وفكره إلا معاني وصوراً محدودة.

وإذن فلا فارق بين المعنى والصورة أو اللفظ في نموذج أدبي، إلا إذا جعلنا المعنى أو المضمون هو الأحاسيس الأولى عند الشاعر أو الكاتب قبل أن تستوى في الصورة الأدبية. وهذه لا شأن لنا بها، إنما الشأن في المعاني التي يحتويها النموذج، وهي لا توجد قبل وجوده إلا وجوداً غامضاً، إنما يتم وجودها حين تصاغ وحين تأخذ شكل قالبها المعيّن وتبرز واضحة فيه، بكل خصائصها الفكرية من جهة، وخصائصها اللفظية من جهة ثانية.

ومعنى ذلك أن مادة النموذج الأدبي وصورته لا تفرقان، فهما كلٌّ واحد، وهو كل يتألف من خصائص جمالية مختلفة، قد يردُّها النظر السريع إلى الخارج أو الشكل، ولكننا إن أنعمنا النظر وجدناها تُردُّ إلى الداخل والمضمون، فهي تنطوي فيه، أو قل تنمو فيه، كما تنمو الشجرة من ساق ضئيلة وتتشعب إلى فروع وأغصان كثيرة.

وإذن فكل ما نلقاه في كتب البلاغة من وصف للفظ إن تأملنا فيه وجدناه

في حقيقته يُرَدُّ إلى المعنى ، حتى الجناس وجرس الألفاظ ، فضلاً عما توصف به الكلمات من ابتذال أو غرابة ، فكل ذلك مردُّه إلى المعنى في نفس الشاعر أو الكاتب ، فهو معنى تم له موسيقيته أو لا تم ، وهو معنى مبتذل أو غريب . والمضمون بهذا المعنى يتحد مع الشكل ، فهو البناء الأدبي كله وهو الحقائق والأحاسيس النفسية الكامنة فيه . ويزعم بعض أصحاب الفلسفة الجمالية أن لا عبرة بالأحاسيس والمشاعر التي يتضمنها النموذج الأدبي وما يعبر عنه من معان اجتماعية أو عقلية ، إنما العبرة بحقائقه الجمالية التي يعرضها الشكل عن طريق العلاقات بين الأصوات والأفكار ، ومدار الإحساس بهذه الحقائق على الذوق ، فهو الذي يميزها ويحكم عليها بالجمال والقبح ، وهي شيء خارج عن قيم الفن النفسية والاجتماعية أو عن مضامينه المعنوية .

وتنبه عبد القاهر الجرجاني في كتابه « دلائل الإعجاز » إلى هذه العلاقات بين الألفاظ والمعاني في الأدب ، ففرض أن يكون مدار البلاغة أو الجمال الفني على اللفظ أو على المعنى ورأى أنها جاثمة في العلاقة بين الألفاظ في العبارات وبينها وبين المعاني . وسمى هذه العلاقات « النظم » وقال : « ليس النظم سوى تعاقب الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض » وشرح ذلك فقال : ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل ، وكيف يُتَصَوَّر أن يُقْصَدَ به إلى توالى الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يُعْتَبَرُ فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وأنه نظير الصياغة والتحرير والتفويف والنقش وكل ما يُقْصَدُ به التصوير . . ولو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حدودها لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بالنظم الحسن وغير الحسن لأنهما يحسَّان بتوالى الألفاظ في النطق إحساساً واحداً ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهله الآخر . وقال أيضاً : إنه ينبغي للقارئ إذا رأى النقاد يقابلون بين جودة الكلام وبين النسج والوشى والنقش أن لا يظن أنهم أرادوا بذلك الألفاظ ، بل هو تمثيل وتشبيه يرجع إلى أمور وأوصاف تتعلق بالمعاني .

فعبد القاهر أحسن في وضوح فكرة العلاقات التي يقول بها بعض أصحاب

الفلسفة الجمالية وأنها مدار الجمال في النموذج الأدبي ، إلا أنه عاد ، ففسرها بعلم النحو ، وكأنه رأى أن التركيب النحوي للعبارة يشرح تلك العلاقات ، وظل يحاول إثبات ذلك في كتابه ، فخرج إليه من محاولته هذا العلم المعروف بين علوم البلاغة عندنا باسم علم المعاني ، غير أن قواعد هذا العلم لا تزال قاصرة عن شرح هذه العلاقات أو ما سماه بالنظم ، وأحس ذلك هو نفسه ، فأنهى من كتابه إلى أن المقياس الحقيقي لهذا النظم الذي ألح على تفسيره وشرحه إنما هو النوق ، وبذلك يلتقي ثانية مع أصحاب الفلسفة الجمالية .

وإذا تركنا عبد القاهر وأصحاب الفلسفة الجمالية إلى أصحاب المذاهب الأدبية وجدنا الكلاسيكيين يُعلنون من شأن الصورة أو الشكل ، فهم يعتدُّون اعتداداً شديداً بالصياغة والكمال التام في العبارة ، بينما يتحرر الرومانسيون من هذا الاعتداد ، إذ يقدِّمون المعنى على اللفظ والمادة على الصورة ، بل هم لا يعترفون بأن هناك صورة معينة للتعبير الأدبي ، فكل عبارة صالحة لهذا التعبير ما دامت تؤديه أداء سليماً .

ونشأت كرد فعلٍ للرومانسية جماعةٌ نادت بمذهب الفن للفن ، فالشعر فن جميل وجماله ينبغي أن يكون غاية في ذاته بغض النظر عن محتوياته أو مضامينه ، فالقصيدة مثلاً ليس موضوعها هو الشيء المهم فيها وكذلك ليست معانيها وأفكارها ، إنما المهم أن تغدِّي حاسة الجمال فينا بما يؤدي الشاعر فيها من إحساسات وأخيلة جميلة . وخطا الرمزيون خطوة نحو العناية بالشكل أو الصورة ، فقد اعتمدوا على ما تؤديه الألفاظ من رمز وتلميح وإيحاء عن طريق مجازاتها وأصواتها وقيمها الموسيقية بينما مكن الواقعيون للعناية بالمضمون ، وإن كانوا لا ينسون الشكل ولا ينكرونه .

ولابد أن نلاحظ هنا أن أسلافنا استودعوا لغتنا الفصحى قيماً جمالية باهرة ، وبعض هذه القيم تؤديه علاقات كميّة تتضح في جزالة أساليبها وقوتها وبعضه تؤديه علاقات كيفية تتضح في صفاء أساليبها ونقاها وما بين كلمها من انسجام والتّمام مما تُعنى كتب البيان والبلاغة بشرحه وتوضيحه .

الخيال

الخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم ، وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لاحتصرها ، تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم ، حتى يحين الوقت ، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها ، صورة تصبح لهم ، لأنها من عملهم وخلقهم . والخيال عند الأدباء يقوم على شيئين : دعوة المحسّات والمدرّكات ، ثم بناؤها من جديد، ومن هنا كان الخيال يفرق عن التفكير ، وإن كان كل منهما يستعير مواده من الواقع ، وذلك لأن التفكير يقوده غرض محدود هو محاولة معرفة الحقيقة فهو استكشافي محض ، لا يفترض شيئاً ولا يخلق علاقات جديدة بين الأشياء، ولا يغير في أشكالها وعناصرها . أما الخيال فلا يقف عند ذلك ، بل يعتمد إلى التغيير في هذه العناصر غير مقتنع بعلاقاتها ، بل يضيف إليها علاقات جديدة ، تنزعها من واقعها نزعاً في كثير من الأحيان .

وثانية وهي أنه التفكير موضوعي ، لا يبدّل في الحقائق الواقعة ، إنما يحاول فهمها وبيانها، أما الخيال فذاتي يبدّل في هذه الحقائق ويغير حسب تصور الأديب ، إذ يشكّلها أشكالا جديدة ، أشكالا يبعث فيها من روحه ما يعيدها خلقاً نابضاً بالحياة . وفرق بعيد بين الأديب والعالم، فالعالم قد يوصف بسعة التفكير ، ولكنه لا يستطيع أن ينظم بيتاً من الشعر ، مع ما أوتي من علم واسع بالحقائق . وقد يستطيع — كما هو الشأن في علماء النفس — أن يحلل الطبيعة الإنسانية ، ولكن تحليله ليس من الأدب في شيء ، لأن الأدب وظيفته أن يصور لا أن يشرح كما يشرح العلم . بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن التفكير ورقه يعوق الخيال ، فقد كانت الأمم في أول نشأتها أكثر خيالاً ، ولذلك كانت أكثر أساطير ، إذ كانت تنبث الآلهة والأرواح حولها في كل مظهر من مظاهر الطبيعة ، فكانت تعيش معيشة خيالية أسطورية صرفة . ورقى التفكير هو الذي حطم هذه المعيشة ، ولكن كأن نداءً عميقاً في قلب الأدباء يتناديهم أن يعيدوا لنا هذه الحياة ، حتى نشعر بجمالها الذي يغذى القلوب والأفئدة ، والذي طالما أفاء إليه الإنسان ليستريح في ظلاله من وهج التفكير المضني

ولو تتبعنا حياة الفرد العادى من طفولته إلى كهولته لوجدناه يمر بنفس الأدوار التى مرت بها الحياة البشرية ، فهو فى طفولته وصباه واسع الخيال ، فإذا سمع أسطورة ظنها حقيقة واقعة ، وإذا تعب فى سيره روى قصة حيوان هائل كان يتبعه ، أو تحدث عن أشياء غريبة حدثت لرفقائه ، مما قد نراه نحن الكبار فى الحلم . وهو فى هذه الدورة من حياته يكون واسع الخيال ضعيف التفكير ، فإذا شب رأينا تفكيره يشب معه ، ويخبو الخيال فى عقله شيئاً فشيئاً ، حتى تخمد جذوته . وحينئذ يفرع إلى الأدب وغيره من الفنون ، ليجد هذه الخيالات التى فقدتها ، وليعيش فى عالمها المسحور ، وكأنه يعيش فى عالم من الأحلام .

وصور الخيال تنوع ، منها بصرى كتمثل الفضيلة فى صورة فتاة جميلة ذات ملابس أنيقة تستهوى القلوب ، ومنها سمعى كالصور التى يؤلفها الموسيقيون ، فإنهم يسمعون فى باطنهم ووراء آذانهم صوراً موسيقية بديعة يعبرون عنها فى ألحانهم الرائعة . وكثير من الأدباء سمعيون ، ويظهر ذلك فى أسلوبهم ودقة صياغتهم وبراعة أدائهم . ويحس كثير من القصاصين الصور الشمسية والذوقية واللمسية إحساساً قوياً .

وتستعمل كلمة الخيال فى الأدب استعمالات مختلفة ، فهى قد تطلق إطلاقاً واسعاً على القوة التأليفية عند الأديب فى عمل كبير من أعماله ، بحيث تشمل العمل كله ، فإذا كان رواية مسرحية كان الخيال هيكلها العام وشخصها وأفعالهم وأقوالهم وما يجرى فى أثناء ذلك من حركة وصراع ودوافع بشرية مختلفة . وللروائيين قدرة بارعة على رصد ما يقرءونه ويسمعونه ويشهدونه ، وكأنما لا يغيب عنهم شىء مما يحدث فى الحياة ، مهما قل أو صغر ، فإذا ألفوا رواية ترامت إليهم من كل صوب جزئيات الحياة وذراتها التى رصدوها واحتفظوا بها فى ذاكرتهم ، فكونوا منها عملهم .

وهو عمل قيمته فى أنه يمثل حياة الناس فعلاً وعواطفهم ونحوالج نفوسهم ومكنونات قلوبهم ، بحيث يرون صورهم فيه وصور من حولهم . عمل يملك فيه الروائى قوة خيالية كبيرة ، حتى يستطيع أن يصنف شخصه تصنيفاً دقيقاً ، لكل منها طرازه الخاص فى جسمه وروحه وصفاته ، طراز يشاكل الواقع مشاكلة يغدو بها كأنه لا يمثل إنساناً واحداً ، بل يمثل جميع الناس .

ولسنا نريد بذلك أن لا تُشَخَّصَ صفات الشخصية الروائية تشخيصاً فردياً يستمد من واقع المجتمع بل إننا نريد أن يبلغ هذا التشخيص من الشمول ما نحس إزاءه كأن هذه الشخصية اكتنفها من أضواء الأحاسيس والمشاعر ما جعلها بمثابة نموذج إنساني حي . وهذا لا يتاح إلا لكبار الروائيين الذين يستطيعون خلق شخصيات نموذجية ، بل الذين تكون لهم هذه الموهبة الخيالية الكبيرة التي تحول شخصيات الرواية إلى شخصيات إنسانية ، تنبض بالحياة ، شخصيات لها طوابعها وصفاتها المتميزة ، بحيث يظلُّ صداها قوياً في نفوسنا ، بل في نفوس الأجيال التالية . ومن الخطأ أن يزعم بعض الناس أن محيط الأدب واسع عريض وأنه يتقبل كل ما يؤلف من روايات ، هو حقاً واسع عريض ولكنه لا يتقبل إلا ما يمثل — من خلال فرديته وواقعه الخاص — الحياة الإنسانية ، فإذا فقدت الشخصيات الروائية في مسرحية من المسرحيات هذا التمثيل غدت شاحبة ضعيفة .

والضعف في الشخصية يحمل معه ضعف العمل الروائي كله في المسرحية ، فإنها بناء ينبغي أن يسكنه أناس أو شخصيات واضحة القسمات الإنسانية ، فإن لم تتضح هذه القسمات كان العمل الروائي كله فاسداً فساداً يشمل كل نظامه وكل محتوياته من أحاسيس وأفكار .

ولا تتضح قيمة هذا الخيال الواسع في المسرحية وحدها ، فهو صميم كل عمل أدبي كبير أو صغر ، مسرحية كان أو قصة أو أقصوصة ، أو قصيدة أو أنشودة . فلا بد في الأدب ونماذجه وصوره من خبرة تامة بالحياة ، خبرة يربط الخيال المؤلف بين عناصرها وموادها ، حتى في الأساطير والخرافات ، فإنه لا بد أن يبت الحياة الإنسانية فيها خيالاً واسعاً ، يجمع من هنا وهناك ما يؤلف عملاً أدبياً بديعاً .

وكل شيء من أشياء الطبيعة والحياة لا يمسه هذا الخيال حتى يلهبه ، فإذا فيه قوًى للمعاني والأحاسيس لا تنفذ ، قوى يخلق منها عملاً قصصياً ، وقد يركزها في قصيدة أو في تجربة شعرية . وخذ مثلاً منظرًا من مناظر الطبيعة كالصباح أو المساء فإن الشخص العادي يلقاها ببرود ، ولا يكادان يثيران فيه شيئاً ، أما الشاعر فتنهال عليه طائفة من المشاعر يثيرها خياله حين يكتفى الصباح أو يلتقي

المساء ، مشاعر توضح لنا جانباً من أسرار الطبيعة وصلتها بالنفس الإنسانية في هذا المنظر أو ذاك . وبمقدار قوة خيال الشاعر تكون قيمة قصيدته من الناحية التصويرية .

وهذا الخيال الواسع أو المؤلف تتبعه أنواع أخرى من الخيال الجزئى الضيق تترأى في لغة الأديب وفي عباراته ، فلفته وعباراته خيالية تصويرية ، تسكنها أرواح وأشباح لا تُحصَى من المجازات والتشبيهات والاستعارات ، وهى أرواح وأشباح لا تنبع في خياله — كما قلنا — من الهواء ، وإنما تترأى له رؤية حقيقية في كل شيء . وإذا كانت أشكال الأشياء تنعكس على أعيننا تحت ضوء الشمس ونور القمر فنبصرها فإن أرواحها وأشباحها الجاثمة فيها تنعكس على عين الأديب أو قُلْ على بصيرته فيبصرها بصرًا قويًا .

فالأديب لا يرى الشيء رؤيتنا له ، وإنما يرى روحه ، وكأن كل شيء تحت بصره له وجود آخر غير الوجود الظاهر الذى نراه ، أو كأن فيه لحناً من الحياة لا نسمعه ، إنما يسمعه هو بأذنه المرهفة . إنه يعرف من ألحان الوجود وأسراره وقواه الكامنة فيه ما لا نعرف ، أو قل يتلقى من دخائله وحقائقه ما لا نلتقاه . إنه لا يقف عند الظواهر وإنما يتغلغل في الأعماق ، وكأنما يرفع الحجاب الذى يَغشى أعيننا ، فإذا هو يرى حياة وحركة في كل شيء ، ويتردد صداهما في نفسه تردداً مستمراً

إننا نعيش في حياة مادية متجمدة ، تغلف جميع الأشياء من حولنا ، وكأنها خطابات مغلقة ، فهى لا تنطق ولا تتكلم ، أما الأديب فيزيل عنها الغلاف ، ويعيش معها في بساطة كبسطة آباءنا الأولين في عصر الخرافات والأساطير ، حين كانوا يشعرون أن الوجود من حولهم يفيض بكائنات روحية لا عدد لها ولا نهاية ، كائنات تحيا في كل شيء وفي كل مكان .

وقد بددنا هذه المعيشة الروحية ، ولم نعد نحس بها ، أما الأديب فيحس بها إحساساً قوياً ، إحساساً تتجدد له فيه الحياة . وكأنما له طاقة عقلية فوق طاقتنا العقلية التى نعرفها ، طاقة تمثل له الأشياء وقد سيطرت عليها قوانين الحياة المتحركة وما يجرى فيها من حب وشوق وعاطفة وشعور ، وهى تشفُّ له عن روحها وروح الوجود كله ، فيشبهه ويشخص أو قل يرى فيها الشبيه كما يرى الإحساس

والحركة ، أو قل يكشف فيها الحياة الخالدة .

والشاعر الحق هو الذى تبلغ عنده ملكة هذا الكشف أقصى حدودها ، فإذا كل ما حوله فى الوجود أرواح وأشباح وعالم من الرؤى والأحلام ، عالم تتحول فيه الأشياء من صورة إلى صورة تحولا مستمرا ، وكأنما يصيب الشاعر ما يصيب المتصوفة من الاتحاد بالوجود ، أو كأنما تهبط عليه أنوار من السماء يرى خلالها روح الكون منبثة فى كل مظهر من مظاهره وفى كل شىء من أشياءه ، بل يرى الأبد كله فى اتساعه وفى أسراره التى تتفجر فيه .

ومن هنا كانت تعود اللغة على لسانه إلى صورتها الحسية الأولى ، فهى تمتلئ بالرموز والشخص ، وألفاظها لا تحمل معانى مجردة ، إنما تحمل أشباحاً تخطف البصر من التشبيهات والمجازات والاستعارات . ووظيفة التشبيه هى التصوير والتوضيح بالانتقال من شىء إلى شىء يشبهه ويشاكله ، يعبر به الشاعر أو الكاتب عن معنى فى نفسه ، وكلما كان أبعد وأغرب كان أروع وأجمل . غير أنه لا يستخدم فى حالة الانفعال الشديد ، ولذلك كان يشيع فى النثر الفنى والشعر التصويرى ، أما فى الشعر الغنائى فيقل استخدامه ، لأن الشاعر فيه يكون جيش العاطفة جيشاً قلماً عني فيه بالمشابهات والمقارنات التى تفيد على ذهن الكتاب وخيالهم فى أوقات التأمل والهدوء .

إنما يشيع فى الشعر الغنائى المجازات وما يتصل بها من الاستعارات ، لأنها هى التى تلاثم ثورة العاطفة وحيدة الوجدان ، فتخرج الكلمات ملتهبة حادة ، بفضل ما فى المجاز والاستعارة من تركيز وإيجاز وتبلور يعطى التعبير قوة . وفى أثناء ذلك يتحول الشاعر إلى ما يشبه صانعاً جديداً للغة ، فهو يسمي الأشياء بغير أسمائها ، ويصفها بصفات أشياء أخرى ، معبراً عن علاقات فكرية لها جديدة ، علاقات تدمجها فى المعنى الكلى للكون ، أو قل علاقات تعيدها رمزاً . وقد كانت كلمات اللغة كلها فى أول نشأتها رموزاً ، إذ كانت تدل دلالة حسية ، نقلها أسلافنا منها إلى دلالات معنوية عن مشاعرهم وآرائهم .

فألفاظنا فى أصل نشأتها كانت تعبر عما يقع تحت الحس أو الحواس ، فانتقل بها الأسلاف الأولون إلى التعبير عن خوالج نفوسهم وعقولهم ، ولكنهم كانوا

يدركون دلالتها الحسية الأولى ، وكانت تصطبغ بألوانها دلالتها المعنوية الجديدة وما انتقلت إليه من مجاز أو استعارة . وكأنما الشاعر يعود بنا إلى هذه المحاولة الإنسانية القديمة ، أو كأنه يصنع لنا لغتنا من جديد صنعة يُبْتَقى فيها لأشياء على أسمائها ودلالاتها الظاهرة ، بينما يسمى أشياء أخرى وفق خياله تسمية جديدة ، لدلالات غيبية لا يدركها سواه ، وبذلك يعيد وصلها بعالمنا القديم المحسوس ، يقوده في ذلك عمق بصيرته الذي يجعله يرى الشجاع الجريء أسداً والحميلة الفاتنة قمراً .

ولا يكاد الشعراء يتركون شيئاً في الطبيعة إلا وينفتون فيه من عواطفهم وخواطرهم ومشاعرهم ، فالنهار يتشاءب والليل يزحف والشمس تمتد في الغروب ذراعها إلى الأرض مودعةً وأنامل الفجر الرمادية تنشب أظفارها في أعناق النجوم الشاحبة . وشاعر يقف بجانب بحر ، فيراه يئن ويلهث من التعب ويتخيل صراعاً بين أمواجه وبين رمال الشاطئ . وآخر يقف نفس الموقف في حالة وجدانية أخرى ، فيرى البحر يتألق ويتلألأ ويضحك ويتخيل لقاء مؤثراً بين أمواجه وبين الرمال ، وسرعان ما تعود الأمواج من لقاءها على استحياء وقد انتشرت على وجهها حمرة الحجل .

وتمتعا هذه الصور وما يشبهها عند الشعراء والأدباء ، وكأننا نقوم في أثنائها بسياحات سارة ، بل كأننا نُشْبِت فيها انتصارنا على سجون الحياة المادية التي نحياها ونحياها معنا الأشياء في الطبيعة ، فنخرج منها إلى حياة طليقة ، هي حياة الروح الفسيحة التي لا تقف عند أفق ولا تُحْجَز عند حد من الحدود . ومن ثم لا نعيش في عالمنا المألوف ، بل نعيش في عالم مليء بالحوارق ، عالم لا نبحت فيه عن طعامنا وقوتنا وما يكسبنا جاهاً أو مكانة في المجتمع ، بل هو ينسينا ذلك كله ، إذ يصرفنا إلى عالم روحى يلد القلوب والأفئدة .

وأى شيء أمتع للإنسان من أن ينسى عالمه المادى ومتاعبه ؟ إنه لدائب البحث عن اللحظات التي ينسى فيها هذا العالم ، وكم من أداة استحدثها لهذا النسيان ، فقد استحدث المسرح ودور الخيالة والإذاعة ، ولا يزال جاداً في استحداث وسائل جديدة ، تنسيه حياته اليومية التي تأخذ مشاكلها بنحاقه . وهي جميعها تعتمد فيما تعتمد على الأدب ، فهو سلوة الأمم ومتاعها الخالد ، وبدونه وبدون أخيلته تصبح الحياة علقماً مُرَّ المذاق ، لا تطاق ، لسبب بسيط وهو أنها تفقد روحها ، تفقد ما يحرك

فينا حُبَّها ، إذ تصبح أكداًساً وأكوماً من الأحداث الزائلة ، التي لا تخب لبناً ولا تسهوى بصراً ولا سمعاً .

الخيال إذن جوهر الأدب ، وهو ليس زينة كزينة الحلى والرياش ، وإن من أخطر الأشياء على الأديب أن يستعمله وشياً وتطريزاً لأدبه ، وأن يصبح كالأصداف التي تغرُّ البصر ببريقها دون أن تُفضي إلى رمز أو دلالة تؤديها .

إن المجازات والتشبيهات والاستعارات ليست غاية في ذاتها ، إنما هي غاية لمعان تمثلها ، معان تصور انطباعات روح الكون في خيال الأديب . ولكل أديب انطباعاته ، وكذلك لكل أديب استعاراته وتشبيهاته ومجازاته بحيث نستطيع أن نقول إنها صوره ، صور نفسه وما انعكس عليها من روح الوجود . ومن هنا نستطيع أن نفهم العلة في سقوط الأديب حين يعيش على الصور القديمة التي ابتكرها سابقوه من الأدباء ، لأنه لا ينتظم في سلك الأدباء الكبار ، إنما ينتظم في سلك البغاوات التي تعيش على ترداد ما تسمع ، دون أن تبتكر شيئاً . وليس في الأدب أكذب من المثل القائل : لم يترك المتقدم للمتناخر شيئاً ، فما تركه المتقدمون كثير ، وما يزال أفذاذ الأدباء يبتكرون بخيالهم المؤلف ما لا يُحصى من النماذج كما يبتكرون بخيالهم الخالق ما لا يحصى من الصور الكبيرة والدقيقة .

ومن الواجب أن لا يُغلق الأديب على نفسه مصاريع أبواب مفتوحة ، بل ينبغي أن يدخل منها ويتعرض للتيارات الخيالية التي تموج بها ، ويتغلغل في أعماقها ، حتى يمر بروحه منها صور ورموز جديدة غير مألوقة لنا تؤثر فينا بجدتها وطرافتها . وهو قد يجلب من التراث القديم بعض الصور ، غير أنه ينبغي أن لا يكتفى بها ، لأنها فقدت مع مرور الزمن حيويتها وطرافتها ، وأصبحت كأنها فحم متحجر ، ولذلك ينبغي أن يضيف إليها من رؤاه وأحلامه ما يجعلنا نشعر أن له عالماً مستقلاً ، عالماً يخلق فيه بأجنحة قوية .

لابد إذن للأديب من خيال خالق يبتكر الصور ابتكاراً ، وإذا كان القديم في الصورة يفسدها فإن الشطط فيها إلى حد الوهم لعله يفسدها بأكثر مما يفسدها القدم ، إذ تمنحى فيها حواجز الحس وروابط العقل ، وتصبح أشبه ما تكون بهذيان المريض ، كأن نشبه مثلاً أذنًا بموجة أو أنفًا بشجرة أو عيناً بطائر ، فإن

مثل هذه الصور المتباينة من لغو القول .

على أن هناك مذاهب أدبية تفسح للخيال مجالا واسعا ، ونقصد مذهبي الرمزية والسريالية ، وحجة الرمزيين في ذلك أنهم يقصدون إلى الإيحاء عن طريق الإيهام ، وما الفن إلا جزء من الطبيعة ، وهي مليئة بالغموض والأسرار ، فحري أن يكون الأدب مثلها . إن الأديب مستودع انفعالات تصب في نفسه من شتى الأنحاء ، وإن اللغة لتضيق عن نقل هذه الانفعالات بالصور المحددة ، فليعمد الأدباء إلى الصور المبهمة ، لأن التعبير الواضح عن العالم الخارجي في الطبيعة والعالم الداخلي النفسى غير ممكن ، إنما الممكن الإيحاء بحشد صور تُلمِّعُ إلى الحالة الوجدانية الخاصة من طرف خفى .

وخطأ أصحاب مذهب السريالية أو ما فوق الواقع — بتأثير نظريات فرويد وغيره من النفسين عن اللاوعى ومكبواته — خطوات أبعد مدى في انبهاام الصور الأدبية وغموضها ، حتى كادت دلالتها أن تنطمس ، وعبثاً أن تسترد عندهم ولو لمحة خاطفة من الحقيقة . وكأنما النموذج الأدبي في رأيهم حلم بالمعنى الدقيق لكلمة حلم ، فهو أضغاث من صور لا واعية ، ليس بينها أى رابطة ، إنما هى صور تسقط من أركان خفية متباعدة ، من الأرض ومن السماء ومن تغريد طائر ومن نسج عنكبوت ومن أطياف عابرة لا حصر لها ولا عُد . ومن هذه الصور المتباينة المتباعدة يتكوّن النموذج الأدبي ليعبر عن الأحلام والأهواء والغرائز المكبوتة ، ولكن أى تعبير ؟ إنه لا يكاد يُفهم في كثير من الأحيان .

ويقولون إن أرض الأدب والخيال لا تزال بكرّاً تنتظر من يحرثها ويشق لنفسه فيها طريقاً جديداً ، غير أن حرثهم وطريقهم ملتويان ، وما ينتجون بعد الجهد المضنى لا يؤتى أكُله . وليس من شك في أن ذلك انحراف بالأدب وصوره ، وحقاً أنها تتخذ فيه رموزاً ، ولكنها رموز يراد بها إلى دلالة واضحة لا إلى أن تكون ألغازاً نعجز عن فهمها ، رموز تفتح أمامنا أبواب الكون ، لا ألغاز تسد علينا نوافذه لنعيش في غرف اللاوعى المظلمة وقد أسدلت على نوافذها الحجب والأستار .

والحق أن الخيال الخالق البديع في الأدب شعره ونثره يبسط تأثيره إن لم يعرض

علينا صوراً نستطيع فهمها في وضوح كتلك الصور السريالية والرمزية التي تشبه الزئبق والتي لا تثبت لأفهامنا ولا تثير فينا ما ينبغي أن يثيره الخيال من الخواطر الوجدانية .

والخيال الجيد ليس هو الذي يشطح ويشطّ ويأتى بالأوهام والمخالات ، إنما هو الذي يجمع طائفة من الحقائق : حقائق الوجدان وانفعالاته ، ويربط بين أشتاتها ربطاً محكماً لا ينكره الحس ولا العقل . أما إن تحول إلى صنّع صور مبهمّة شديدة الإبهام ، فإنه يبتعد عنا وعن محيطنا وأرضنا . ومن أخطر الأشياء على الشعراء أن يعمدوا إلى الشطط في خيالهم ، حتى كأنهم لا يعيشون في عالمنا ، إنما يعيشون في عالم غيبي ، تفيض عليهم فيه صور غامضة لا تفهمهم ، صور تنطلق بدون علاقات واضحة . وكأنى بمن يتجهون هذا الاتجاه يظنون أنهم بذلك يخلقون في السماء ، وينسون أنهم يستترون منا وراء سحب داكنة ، فلا نراهم ، وكثير منهم لم يبلغوا سحباً ولا سماء ، وإنما الذي بلغوه حقاً أنهم بعدوا عنا وعن أرضنا وعالمنا الذي نعيش فيه . وحرى بهم جميعاً أن يعودوا ثانية إلى عالمنا ، وأن يطمثنوا إلى أن الشاعر الكبير لا يحتاج بعداً ولا إغراباً ولا تغلغلاً في عوالم غريبة ، إنما يحتاج إحساساً عميقاً بواقعنا وحياتنا ، وحياة الكون من حولنا وما انبثّ فيه من أسرار لا حصر لها ، وحسبه أن يؤلف من ذلك كله تجربة ، تجمع أشتاتاً منه في رباط محكم ، يوثقه خيال حي نشيط يعرضها في خلقت جديد ، فنقول إنه خيال رائع بديع .

الأصالة

لا يُحدث أديب عملاً أصيلاً بدون ثقافة عميقة، فالأديب لا ينبت فجأة من تلقاء نفسه ، بل هو كالشجرة الطيبة تضرب جذورها في أعماق بعيدة من تربة صالحة ، ثم تأخذ في النمو والتكون ، وتمضي عليها سنوات متطاولة ، حتى تشق أجواز الفضاء ، فينقذ إليها الناس ، يستظلون بها من وهج الحياة

وليست التربة التي تضرب فيها جذور الأديب إلا ما سبقه من نماذج الأدب وإلا ما شُفعت به هذه النماذج من أصول وقواعد وتقاليد، لا ليستعيرها في عمله ، ولكن لتفتح أمام عينه الآفاق . فهي وطنه الذي يشبُّ فيه ويغذيه ، حتى يستوى على ساقه . وليس بصحيح أن أديباً يستطيع أن يقف على قدميه ، بدون أن يثبتها على صخور القلاع التي بناها الأدباء السابقون بسواعدهم .

إن الأدب كبقية فروع النشاط الإنساني ، يُبنى الحاضر فيه على أساس الماضي وينتفع الخالف بتراث السالف ، فيتكون من ذلك كلُّ متصل ، أو قل كلُّ متسلسل متعاون يتولد بعضه من بعض في صور متعاقبة، لا يمكن للاحق منها أن يتقدم على سابق ، ولا لسابق أن يتأخر عن لاحق .

وليس يعنى ذلك أن تتشابه أجزاء هذا الكل تشابهاً يفقدها كيانها الخاص ، فتلك صفة إن حدثت في بعض الأجزاء لم تحقق لها وجوداً مشخّصاً مستقلاً ، إنما هو تشابه حي ، تشابه يعطى للجزء استقلاله وحرية، وإن ظلَّ له ارتباطه بالكل وسياقه العام . وما السياق في الأدب إلا النظام الذي يُطوَّى في تقاليده ، فلا بد أن يعرف الأديب هذا النظام وتلك التقاليد ، ويحسهما إحساساً دقيقاً ، وهو إحساس لا يصح أن ينتهى إلى إلغاء شخصيته، إنما هو إحساس ينمى هذه الشخصية حتى تثبت وجودها ، فلها كيانها المستقل الخاص ، كيان لا ينتهى إلى التقليد والمعيشة في حدود القديم ، وإنما ينتهى إلى الابتكار والمعيشة في حدود الجديد . فهو جديد تضرب جذوره في أعماق الماضي ، ولكنه يأتينا بشمر شهي ، ثم لا عهد لنا به من قبل ، قد ثَقِفَ صاحبه براعات الأدباء الذين سبقوه ، ولكنه لم يُفَنِّ شخصيته فيهم ولا نسى غايته من الخلق والابتكار .

ومعنى ذلك أنه لا بد للأديب من الثقافة بآداب أمته وآداب غيرها من الأمم ، ولكن على أن لا يتحول محاكياً ولا مقلداً لما قرأه ، فذلك يعنى عقمه ، وإنما معناه أن يستضيء بخبرات السابقين ويستنير بما استجلوه من غواض الطبيعة والحياة الإنسانية ، ثم ينفذ بعد ذلك بأشعة عقله ونفسه إلى ما لم يتمثل في خاطر أديب من قبله . فصلته بالقديم لا تلغيه ، وإنما تتيح له الازدهار والانتظام في سياق أدب أمته العام . وبدون هذه الصلة يتحول الأدب إلى فوضى تضرب أطنابها ، ولنتصور جيلاً من الأدباء لا يقرأ التراث الماضى ولا يحاول الاتصال به فماذا يحدث ؟ لاشك أنه تحدث فوضى هائلة في آثاره ، فإنه لا يربطها نظام فيما بينها ، ولا نظام فيما بينها وبين الماضى .

ومن الخطأ أن يزعم بعض الأدباء في هذا الصدد بأنهم أحرار في عملهم ، يؤدونه على الوجه الذى يريدونه ، فإن الحرية الصحيحة لا تُفهم على وجهها ولا يحقق وجودها إلا إذا قامت على نظام ، وإلا إذا كانت هناك قيود وحواجز تحددها وقوانين وقواعد تسددها ، فإن لم تُحطّ بمثل هذه السدود والأسوار انتهت إلى جموح لا حدّ له ، جموح كله اختلاط وتشويش .

ونحن لا نرتاب في أن النموذج الأدبى الذى عانى صاحبه في عمله فأخضعه لمقاييس الأدب وقواعده في الصياغة وغير الصياغة وتناول كل ما فيه بضرب من النقد والتدقيق ينطوى على حرية أكثر من تلك التى ينطوى عليها النموذج الأدبى الذى أفلت من كل هذا العناء . إن الأديب لا يعيش حياة منفصلة عن الماضى ، بل هو يستأنف حياته في نفس الدروب التى سلكها أسلافه ، وقد أخذته التعب والنصب ، وفى باطنه حافز يحفزّه على تحمل كل المشقات وتجشم كل الصعاب ، هو الأمل فى أن يكون أديباً مكملًا لسابقه ، وهو أمل من الصعب تحقيقه ، إنه أمل بعيد يحتاج مزيداً من الجهد المتواصل العنيف والعناء الشاق الطويل . جهد وعناء يتكرران كل يوم ، وكأن الأديب يدفع أمامه صخرة تشبه تلك الصخرة التى تقول الأساطير اليونانية إن الآلهة حكمت على «سيزيف» بعد مماته تكفيراً عن أوزاره أن يظل مدى الأبد يدفعها حتى تثبت فوق قمة جبل ، وكان كلما بلغ قمة الجبل الشاهق هوت منه وثوت في الحضيض فيعيد الكرة وتسقط الصخرة مرة تلو المرة ، وما يزال في سيرته

تلك لا يعتريه وهن ولا فتور .

والأديب الحق هو الذى يعيش معيشة «سيزيف» فى عمله الأدبى ، فهو لا ينى عن العناء والكفاح المتواصل ، يدفع فى دروب سابقه من الأدباء صخرته محاولاً أن يضيف شيئاً جديداً إلى الكثر المشترك بينه وبينهم بفضل ما يبذل من جهد عنيف وما قد يصيب من توفيق . وهو لا يستطيع أن يصيب شيئاً من هذا التوفيق إلا إذا أحسنَ التلقى لدروس سابقه ، فاستقبلها بحرارة ، حرارة لا تمنع أن ينقدها وأن يحاول الوقوف على بعض عيوبها ليتجنبها ، ولكنه مع ذلك يقدرها قدرها ، فيقرؤها مقرراً بجلالها وجمالها ، ويكثر من قراءتها متذوقاً لها ومكتشفاً فيها كل يوم معانى جديدة .

أما من يبدئون حياتهم الأدبية بالغضب من سابقهم والإزراء على هديهم فحرى أن لا يحققوا أطماعهم فى صنع نماذج أدبية جيدة ، لأنهم لا يتيحون لأنفسهم الفرصة لتكوينهم ، ويبدئون بما ينبغى أن ينحرفوا عنه ، وتقصد الهدم وتبذ الأوضاع بل محاولة تحطيمها أحياناً . والتحطيم والهدم لا يبنيان شيئاً ، إنما الذى يبنى العمل ، وكونى لا أقدر شيئاً هو فى نفسه عظيم لا يغير من قيمته ، فسيظل فى مكانه ، وسيسقط تقديرى . وحقاً إن تجارب بعض هؤلاء الذين لم يتدربوا تدريباً كافياً على أساليب العمل الأدبى تلتقى بعض النجاح ، ولكنه نجاح مغرر ، لأنه لا يدوم ، ولأنه يقضى على شخصية الأديب فى إبان تكونه ، إذ يتعلم الكسل والحمول ، فلا يسعى بجهد إلى مثل العليا ، يحتذيا ، ومثل أخرى يصنعها هو بعد أن مرت يده وتمت دربته .

وليس هناك شئ يضر الأديب الناشئ كمحاولة الظهور السريع ، وهو ظهور تكثر وسائله فى عصرنا ، عصر الصحف والإذاعة والصور المتحركة والناشرين الكثيرين ، فكل هذه أجراس تدق على أبواب الشباب ، ومن منا لا يحب أن يشتهر ويلمع اسمه فى سرعة ، إلا أنها سرعة كثيراً ما تطوح بنا ، فلتلك الوسائل ضحاياها من المتعجلين الذين لا يأخذون فرصة للنمو الطبيعى والتخلق والاختمار .

إن الأضواء الساطعة العاجلة لا ينبغى أن تكون أمنية الأديب ، وكم من شخص كان حتفه فى أمنيته . إنه ينبغى أن يظل طويلاً فى الظلال ، ظلال التكون البطيء ، حتى يحين الوقت الصحيح لكى يأخذ طريقه إلى النور الغامر الذى يبقى ويدوم .

ولياخذ سيرته من خلقه، فالإنسان يتخلّق في الرحم، في السكون والعزلة والصمت، ثم يبرز عليه الوجود، فينتقل انتقالاً بطيئاً من الظلام إلى النور، ومن منطقة السكون إلى منطقة الضوضاء وعجيج الحياة.

لابد للأديب من منطقة سكون طويلة يتكوّن في أثنائها، يخلص فيها إلى نفسه مبتعداً عن الأضواء والضوضاء حتى لا يظهر قبل أوانه، وفي غير إبانه، وليُقيم من حوله حصاراً من الأدباء الماضين، حصاراً يتعمقهم فيه ويتعمق أعمالهم وآثارهم، تعمقاً يتعهد فيه مواهبه، حتى يجد نفسه. وهو لن يجد لها وجوداً صحيحاً إلا إذا عرف معرفة قويمة المناهج التي سبقتها والمواد الأولية التي تألفت منها، لاليتبعها معصوب العينين، إنما ليستغلها استغلالاً جديداً يثبت فيه نفسه وأحاسيسه ومشاعره.

أما إن شقّ عصا الطاعة على الماضين وركب رأسه متحرراً من قراءتهم فإنه لا يحقق لنفسه دراية صحيحة لعمله إذ سرعان ما يشعر أنه فوق الدراسة وفوق الماضين واللاحقين، فن حقه أن يلمع اسمه. وليس هناك أي داع لأن ينتظر أو يتمهل، فالطريق مفتوح، غير أنه سيظل في أوله، ولن يتقدم، إنما يتقدم من عرف صعوبات الطريق ومهاويه. وأن السلوك فيه لابد له من أسلحة كثيرة، أسلحة يستطيع أن يحرز بها لنفسه الكمال الأدبي الذي طالما رنا إليه، الكمال الناضج الذي ظلّ آماداً طويلة ينتظره، الكمال الذي يفتح فيرسل عبيره ولا يذوي. إنه كمال باق، كمال لم يُصِبه من اندفاع أو نجاح سريع، إنما أصابه من مطاردة مثل هذا النجاح والاندفاع، حتى اشتعلت فيه شرارة النضج، فأضاءت بنورها البهيج كل ما تعثر فيه من ظلال.

ومعنى ذلك أن الأديب لا تكفيه موهبته، بل لابد لها من تعهد طويل، حتى يدرك إدراكاً دقيقاً معاني الأصول الأدبية الأصيلة، ويحسّها في أعماقه إحساساً تفيض عليه فيه بصور جديدة حية قوية نابضة. صور ليست ثمرة الاتفاق أو المصادفة وإنما ثمرة الوقت الطويل والضّئى والعناء والمراجعة تلو المراجعة. إنه لا يقبل كلّ ما يجرى به قلمه، بل لا يزال يححو ويثبت ويزيد ويحذف ويصحح، ويقيم من نفسه ناقداً يفحص ما يعمل. حتى إذا أنهى عمله طبعه ونشره، وهو مطمئن إليه، سواء حقق ربحاً مادياً واسعاً أو لم يحقق؛ فالربح

المادى مقياس تجارى ، وليس مقياساً أدبياً ، وكم من كتاب حقق ربحاً مادياً ! ونجاحاً تجارياً ! ولكنه من حيث الأدب ومقاييسه ضعيف لا يقوى على البقاء ، ومعروف أن النجاح التجارى له مقاييس أخرى غير المقاييس الفنية . وقد ينجح أثر أدبى جيد ولكن النجاح شىء وجودته شىء آخر .

وما لا شك فيه أن من يقرءون روائع الأدب ويُقبلون عليها أقل ممن يقرءون الأعمال الصغرى التى لا تحوى كل ما تحويه الروائع من قيم فكرية وأدبية ، لأن أكثر القارئین من مستوى عادى لا يحبون التعمق ولا يعنون بتذوق جمال الشعر والنثر ، فهم يطلبون السهولة والسطحية والمعانى القريبة ، وربما ضاقوا بالأعمال الرائعة لأنها ترتفع عن مستواهم بأفكارها وتنقيباتها فى خفايا الأحاسيس والمشاعر .

غير أن هذا لا يفتى فى عضد الأدباء الأصيلين ، لأنهم إنما ينتظرون تقديرهم من صفوة النقاد والمثقفين الذين يتذوقون الآثار الأدبية ويعرفون ما فيها من جمال وروعة ، وحسبهم أن يعلنوا لهم إعجابهم وأنهم يستحوذون على عقولهم وقلوبهم بما يبدعون من آثار . وليس مدار الإبداع أن يأتى الكاتب أو الشاعر بشىء جديد لم يسبق إليه ، شىء يخترعه من العدم ، فالوجود لا يتكون فيه شىء من عدم ، وما يأتى من العدم يذهب إلى العدم ولا يتحقق له وجود صحيح .

وحقاً يكرر النقاد فى وصف الآثار الأدبية الأصيلة كلمات الخلق والاختراع والابتكار ، ولكن هذه الكلمات لاتعنى أن الأدباء يوجدون هذه الآثار من لا شىء ، فهم لا يخطفونها من فراغ ، إنما يأتون بها من عناصر الحياة ويشكلونها فى صور جديدة . وهذا هو معنى أنهم يخلقونها ، فهم يخلقون تمثيلات وقصصاً وأقاصيص وأشعاراً وقصائد يذیبون أنفسهم فيها ويعصرون قلوبهم .

وبهما تعاورا على موضوعات واحدة أو معان واحدة فإن لكل منهم طريقته فى الخلق والابتكار ، وكم من تمثيلية يونانية أعاد كتابتها أدباء غربيون فأعطوها حياة جديدة وروحاً جديدة . فالمهم ليس جدة الموضوع ، ولكن جدة الروح والمعانى . التى تصاغ فيه . وها هو التاريخ فى القديم والحديث مادة أساسية من مواد الأدب ومثله الأساطير الشعبية والخرافات . فليس المهم المادة ، وإنما المهم الصورة والوجه الجديد الذى يسويه الأديب .

وكاد شعراء العرب لا يتركون معنى من المعاني في أى موضوع من موضوعات الشعر إلا تواردوا عليه، ومع ذلك لا يُسندُ نظم شخص لمعنى إلى شخص آخر، بل لكل نظمه ولكل طابعه الذى يدمغ به معانيه، كما تطبع الصورة المنقوشة النقد فيتميز نقد كل أمة من سواها. ولا تقل إن نقاد العرب يُجتمعون على أن الشعراء يسرق بعضهم من بعض المعاني، فذلك إنما يعنى التشابه لا التكرار، إذ التكرار غير ممكن إلا إذا صح أن ينقل شاعر معنى في نفس صوته وألوانه وأوضاعه. والحق أن فكرة التكرار لا تتصل بالأدب ولا بآثاره، فأهم ما يميزها التحول والتنوع. وكما أن كلاً منا يشترك مع صاحبه أو زميله في إنسانيته ونختلف بعد ذلك اختلافات كثيرة في وجوهنا وفي طباعنا ودوافعنا ونوازعنا النفسية، حتى الكأنا تقوم بيننا أسوار فاصلة، كذلك معاني الشعر مهما تشابهت وتشاكلت، كل معنى فيها يفرق عن نظيره افتراق الخلدجان على الشاطئ المتقطع في شكلها وصورتها وإن استمدت من موارد واحدة ومياه واحدة

ونحن إنما نتحدث طبعاً عن الشعراء الأصليين الذين يضعون طابعهم وميسمهم على أشعارهم، فيصبح كل بيت لهم يعبر عن روحهم وخواطرهم قليلاً أو كثيراً. ولا يغرنك ما يقال من أن شاعراً كان تلميذاً لآخر، فإنه حقاً يدور في فلكه أولاً حتى يتكون تكويناً تاماً، ثم يأخذ في الاستقلال والانفصال على نحو ما انفصل مثلاً البحرى من أبى تمام، فإنه بدأ حياته الشعرية مقيداً به وبتعاليمه، وسرعان ما استبان شخصيته، فانفصل عنه في طريقته، واتخذ لنفسه أسلوباً جديداً يتباين تبايناً تاماً مع أسلوب أستاذه.

ونخذ أى لون من ألوان البديع كلون الجناس وابحثه في شعراء اشتهروا به مثل أبى تمام وابن الرومى وأبى العلاء فإنك تجد كلا منهم يستخرج منه أشكالاً وصوراً جديدة، بل قل يستخدمه بطريقة جديدة. فالشاعران الممتازان يمكن أن يتفقا في استخدام اللون العام، أما بعد ذلك فإنهما يفترقان افتراقاً شديداً في طريقة تطبيقه. ونفس اللون عند الشاعر الواحد كلما جمعت طائفة من تعبيراته خرجت إليك منها أصباغ الطيف، أصباغ اللون واحد، لا يتقيد بعدد ولا بشكل ولا بصورة، بل في كل مرة يحمل الصبغ حالاً جديدة من خيال أو شعور أو تفكير ويتدرج اللون بحسب ما تحمل أجنحته من بريق الأحاسيس فإذا هو في صور شتى،

وكأنما اللون في الشعر كاللون في الطبيعة ، يكون له أوضاع وأصباغ لا تحصى ، فنحن نرى اللون الأخضر مثلاً في الطبيعة يأتي على صور تختلف باختلاف مناظره وأماكنه ، كهذا التدرج الذي نشاهده في ألوان الغسق أو الشفق ، وكذلك اللون من ألوان الشعر يلزمه هذا التدرج والتعدد .

ومعنى ذلك أن شعراءنا السابقين الممتازين الذين كانوا يتلاقون في أبياتهم كثيراً ويتعمدون هذا التلاقي تعمداً استطاعوا أن يحتفظوا في تضاعيفه بشخصياتهم وطوابعهم وميائسهم ، مما يدل على أصالة واضحة فيهم ، فشاعر كأبي تمام يؤلف النقد في سرقاته كتباً مختلفة ، لا نقرأها حتى نعرف مدى تفوقه على من سبقوه ممن أخذ عنهم أو تلقى بعض معانيه . وهم حقاً يتراءون في عمله ، ولكن عمله يفصح عنه وعن قدرته الأدبية وشخصيته الفنية إفصاحاً دقيقاً .

وأبو تمام في هذا إنما يكشف لنا عن الصلة الحية بينه وبين الأصول الشعرية الماضية ، فقد فهمها ، وحول جوانب منها إلى شعره ، ولكن بعد أن تغيرت ، فالماضي لم يَبْقَ على ماضيه ، بل أثّر فيه الحاضر ، كما أثر هو في الحاضر ، إذ أوجد فيه هذا التناسق الذي يسود دائماً في الآداب ، والذي يفتح أمامنا الأبواب كي نقارن بين البراعات الماضية واللاحقة ، ونعرف مدى ما حققه الشاعر من تجديد وأصالة جديدة .

وإذا تعمقنا في بحث أبي تمام وجدنا عنده معاني يستقل بها ، تُثبت في وضوح فرديته وأنه لم يعيش على القديم وحده ، بل جددته وأضاف إليه . وتلك هي الأصالة الصحيحة في الأذنب ، أصالة لا تُجْلَبُ من الهواء أو الفراغ وإنما تجلب من استخدام عناصر قديمة ، وعناصر معاصرة . وليس استخدام العناصر المعاصرة دائماً أروع من استخدام العناصر القديمة فعناصر الأدب لا يتقدم بعضها على بعض في الروعة ، إذ هي عناصر متصلة ، عناصر مهيئة دائماً لكي يخلق الأديب من أشاتها صوراً جديدة ، وكأنما الشاعر ليس أكثر من وسيط تبرز فيه هذه العناصر ، وسيط تختلط فيه معاني الحاضر بمعاني الماضي ، فإذا هي شراب عذب سائغ مختلف ألوانه ، إنه كالنَّحْلِ يجمع من هنا وهناك ما يحيله شهيداً نقياً مصفى .

وتلك هي الأصالة التي تمتاز بها الآثار الأدبية الرفيعة وسمها كما شئت خلقاً

أو ابتكاراً أو اختراعاً ، فهو اختراع من مادة منصهرة ، مادة الأدب بقديمه وحديثه ، ومادة الحياة بنوازعها وكوامنها الظاهرة والخفية يصوغها الأديب ويسلط عليها من إشعاعات نفسه وعقله ما يجعلها تخاطب كافة الناس ، ففيها أحاسيسهم وشاعرهم المألوفة التي تجول في نفوسهم ولا يستطيعون أداءها أو التعبير عنها ، وكلما نقَّب الأديب في نفسه وتعمق واكتشف أفصح لم عن مكنون نفوسهم وطواياها وخفاياها . وعلى هذا النحو يصبح الأدب تجارب مستمرة لا ينفصم حاضرها من ماضيها ، تجارب يزيج فيها الأدباء حجاب الغموض عن أحاسيسهم وأحاسيسنا . وهي لا تتضح معالمها وقسماتها إلا إذا كانت تجارب أصيلة ، أو بعبارة أخرى إلا إذا كان صاحبها أديباً أصيلاً قد تمَّ تكونه ونضج نضجاً حقيقياً . فهي تصدر عن نفس خصبة ، نفس لا تنضب لأن معين الحياة الأدبية الكبير الذي أكبَّت عليه حقاً متطاولة قد استحال إلى داخلها ، فهو يفيض بمدد لا ينفد وبصور من الأحاسيس لا تنهى . ومن هذه التجارب الأصيلة يتألف كثر الأمة الروحي ، وهو كثر تتضام فيه آثار أدبية قديمة وحديثة ، صاغتها طوائف متتابعة من الأدباء ، وكل منهم قد بثَّ في أثره من معاني نفسه ما يحقق له البقاء والخلود . وهو لا يحقق هذا البقاء والخلود لأنه أتى فيه بأشياء غريبة أو طريفة ولكن لأنه تخلل روحه وما ارتسم فيها من قديم وجديد ، مما قرأه ومما لاحظه في نفسه وفي الناس من حوله . فمن كل ذلك تتجلى أصداء في داخله يعبر عنها بأثره ، وهي نفس أصداء الانفعالات التي يروعا كشفه عنها وإبرازه لها في حلة الأدب الرفيعة .

ليس منبع الأصالة إذن أن يكون الأثر الأدبي غريباً عنا ، فغرابته لا تفيدنا شيئاً سوى المفاجأة ، وما لم تكن المفاجأة مصحوبة بإثارات وانفعالات وجدانية ، فإنها تكون عديمة القيمة ، وربما جاءت بنتائج مضادة ، إذ تفقد علينا في شكل غشاء ، لا يترك في أنفسنا أى أثر سوى النفور والاشمئزاز . ولا بد أن نعرف بأن العمل الأدبي الأصيل نادر في كل زمان ومكان ، إذ لا يستطيع الهوض به سوى الصفوة ممن يجاهدون ويناضلون في سبيل إنشائه ، وهو جهاد يرتبطون فيه بكل ما ظفر به عالمهم الأدبي من تراث رائع ، بحيث يغدون جزء متداخلاً فيه ، جزءاً له حيويته وما يجري فيه من دم حار . وما أعظمها من ساعة حين تلتقى عملاً أدبياً أصيلاً ، له ذاتيته التي يفرضها علينا فرضاً ، وله سحره وقوة تأثيره .

النموذج الفذّ

يتميز النموذج الأدبي الرائع بمجموعة من الصفات لا يتيسر للأدباء العاديين إبرازها فيما ينتجون من أعمال وآثار ، صفات تجعل له شخصية كاملة متفردة ، فلا نقرؤه حتى يجذبنا إليه كما يجذبنا أصحاب الشخصية اللامعة الذين يفرضون أنفسهم على المجتمع فرضاً قوياً . وكما أن من الصعب أن نحلل الأسباب التي تتيح لبعض الأشخاص أن يتفوقوا على من حولهم حتى تعنو لهم وجوههم ، كذلك من الصعب أن نحلل البواعث والدوافع التي تجعل من بعض النماذج الأدبية شيئاً خالداً يجتاز الزمان مثبتاً نفسه في كل جيل وكل عصر . على أن هذه الصعوبة لا تحول بيننا وبين الإحساس بقيمة النموذج الأدبي وأنه يحتل قمة بارزة لا يمكن أن يتزحزح عنها ، قمة تجذب الناس إليه ولا يمكن لهم أن يقاوموها ، وكأن مغناطيساً خفياً من التسلط يتدفق منه نحو كل من يشاهده ، فيغمر نفسه وعقله ، ويدفعه دفعاً إلى الإكبار والإعجاب .

وكم من الناس عاشوا وماتوا دون أن يشعر بهم أحد ، وكذلك كم من النماذج الأدبية أصبح هشيماً تذروه الرياح أو قل أصبح هباء ، لأنه لا يحمل الصفات التي تُبقي عليه فضلاً عن تلك التي ترفعه شامخاً في الوجود البشري كالطّود الراسخ . ونسميها صفات وهي في الحقيقة قوًى تكمن في ذوى الشخصيات الكبرى وفي الأعمال الأدبية الفذة ، قوى تؤثر فينا مباشرة دون وسيط ، قوى تحقق للأديب وجوده الإنساني الكامل ، حتى كأنه يشارك بها الوجود كله حياته ونظامه .

وكما أننا في التاريخ لا نستطيع أن ننسى أصحاب العبقريات السياسية من هؤلاء القادة الذين أثروا في حركته وفي مجراه ، كذلك لا نستطيع أن ننسى أصحاب العبقريات من الأدباء الذين خلقوا نماذج أدبية كشفوا للناس فيها عن وجودهم وقوانينه فيهم وفي علاقاتهم ومشاعرهم ، وهي قوانين تراءى للأدباء الأفذاذ في أضواء قوية واضحة بحيث لا يمكن أن تغفل منهم أو تنطلق في الفضاء .

إنها قوانين النفس الإنسانية التي تتدفق على عقولهم كما يتدفق الماء في النهر

الكبير ، فلا توقف ولا انقطاع ، ولا أشراك ولا مهاوى ، وإنما استرسال ، يحفل بأنواع الأحاسيس الصادقة ، ولا نقصد الصدق بمعناه الضيق ، وإنما نقصد تلك الصفة التي تجعل الأديب ينقل إلينا العلائق الإنسانية وما يرتبط بها من مشاعر نقلاً أميناً تتضح فيه بواعثنا البشرية ونوازعنا الوجدانية .

ونحن لا ننكر أن الأديب يصنع أثره بروحه ، ولكن روحه ينبغي أن تكون وسيطاً شفافاً لا يحجب خيطاً من خيوط الحياة الإنسانية، فهي تتمثل في روحه بكل طبائعها وغرائزها ودوافعها ومشاعرها مثلاً قوامه الصدق التام ، وكأنها تسير وفق طبيعته وفهمه ومعرفته . وبذلك نجد أنفسنا وحياتنا في عمله ، بل يتضاعف شعورنا بأنفسنا وحياتنا ، وكأنه يضيف إلينا معاني جديدة ، معاني تفتح عيوننا على المؤثرات الغامضة والواضحة في كياننا ووجودنا . والنموذج الأدبي لا يكون نموذجاً خالداً إلا إذا احتوى على هذه المعاني وأحسنا أنه يزيد في ملكاتنا وثروتنا النفسية والعقلية ، وأنه يصدر حقاً عن منبع الحياة العميق فينا ، فيؤكد وجودنا وصلتنا بالكون وعلاقاته وضروراته .

إن الأدباء كالنحل ، يجمعون لنا رحيق الحياة ، ولكن هذا الرحيق عندهم ليس كله من طعم واحد ، فلكل أديب رحيقه الذي يقدمه في نماذج ، بل إن كل نموذج ينبغي أن يكون رحيقاً جديداً ، بما يمتلئ به من المشاعر والذكريات ومعالم الماضي والحاضر . ولا تظن أن الأدباء يسترون في إنتاج هذا الرحيق ، فكم من أديب يفضل الطريق ، فيقول ولا يقول شيئاً ، لأن ما يقوله لم يتخلق تخلفاً واضحاً في نفسه ، وكأنه بذرة لم تنتظرها أرض صالحة بذراعين ممدودتين ، فلم تتحول إلى شجرة باسقة دائية الجنى والثمر .

وهنا تبدو صعوبة عمل النموذج الأدبي ، فليس كل نموذج أدبي تفتح له أبواب الخلود ، إلا أن يكون متميز الرحيق ، بحيث نستطيع أن نعيش فيه ونهنا بقراءته ، لما يقدمه صاحبه لنا فيه من طعم فريد نتذوقه في لذة ومتعة خالصة . لابد إذن أن يكون النموذج الأدبي شيئاً فريداً أو متفرداً ، حتى تكون له شخصيته الكاملة التي تميزه وتجعله حبيباً إلينا . ونحذ مثلاً دون كيخوته وهملت وفاوست لسرفانتس وشكسبير وجوته ، فإن كلا منهم استطاع في شخصيته الروائية

أن يصورها مثلاً واضحاً من أمثلة الحياة ، بل لقد جعل كل منهم شخصيته مخلوقاً بشرياً تام الحلقة بحيث أصبح لا يفرق عن ذوى الشخصيات الكبيرة ممن نعرفهم وتتأثر بهم في حياتنا . فهم بالرغم من أنهم أشخاص خياليون خلقوهم قد أثروا في مجال الفكر الإنساني وفي مثله وأفكاره واتجاهاته الأدبية والثقافية ، بالضبط كما يؤثر الأشخاص الحقيقيون إذا انتقلوا من جيل إلى جيل ومن أمة إلى أمة .

وأى قصة أو مسرحية لا يخلق فيها صاحبها شخصية متميزة على هذا النحو أو على نحو قريب منه لا تكون صالحة للبقاء ، وما أشبهها بالفقائيع التي تلو الماء ، فإنها هواء وسرعان ما تذوب في الهواء ، إذ ليس فيها ما يمسك في الأرض وينتفع به الناس . ومعنى ذلك أنه ليس المهم أن يكتب أديب قصة أو مسرحية ويحدث فيها عقدة وصراعاً قصصياً أو مسرحياً ، وإنما المهم أن يسوى شخصاً ، تتجمع فيهم خصال الأحياء الحقيقيين الذين نلقاهم في دنيانا ، فنحس كأنهم يعيشون معنا إذ لهم نفس صفاتنا ، ونفس بواعثنا ودوافعنا البشرية الثابتة .

وكثيراً هم الذين يحدثون أعمالاً وآثاراً أدبية ، لا نجد فيها إلا متعة وقتية لا تدوم ولا تستمر ، وما أشبههم بالشهب التي تلمع وسرعان ما تنطفئ ، فجلوة الحياة في أعمالهم ضعيفة ، وهي لذلك قد تسمى أعمالاً مسلية ولكنها ليست أعمالاً خالدة . وفي الحق أن الأديب يحتاج روحاً كبيرة تستقر فيها الحياة الإنسانية بصورة خصبة ، صورة تتولد فيها معان أدبية شتى ، تفيض بالحياة النابضة وافرة غزيرة ، حياة تستمدّها من استعداده ومن فطنته ومن تجاربه وخبرته وكل ما أحسه في واقعه وفي الطبيعة من حوله .

ومعنى ذلك أن الأديب إذا تعمق واقعه ودنياه وأشياءها وحقائقها وأصبح له عالمه النفسى الواضح انقادت له نماذج فريدة تصور لقائه ومعرفته بمجتمعه وبالحياة الإنسانية . وإذا كان العالم الفذ لا يعد عالماً حقاً إلا إذا أضاف إلى معارف الإنسانية السابقة معارف جديدة فكذلك الأديب لا يعد أديباً حقاً إلا إذا أضاف نماذج جديدة تكشف لنا واقعنا وحياتنا البشرية الغامضة .

وإذا كنا نلاحظ ذلك واضحاً في شخوص القصص والمسرحيات العالمية

فإنه ينبغي أن يسود أيضاً في كل نموذج أدبي مهما اختلف نوعه ، ومهما طال أو قصر ، فقصيدة في حب أو موت أو زهرة أو نجم من نجوم السماء ينبغي أن يكون لها تفردا وشخصيتها التي تستقل بها بحيث يكون لها ملامحها وخصائصها وما يجعلها عملاً جديداً ، ليس له سابقة . .

وليس معنى ذلك أن الشاعر ينبغي أن لا يقرأ ما كتبه الشعراء السابقون ، بل يقرؤه ويعيه ، كما يقرأ العالم ما سبقه من معارف في علمه الخاص ، لكن لا بمعنى أن يلغى شخصيته إزاء الماضين ، وإنما بمعنى أن يطلع على ما أحدثت الإنسانية قبله في فنه ، ثم تتجمع في نفسه العزيمة لكي يأتي بما لم يأت به الأولون ، وكيف يأتي بالجديد الخالص إن لم يعرف القديم ؟ إنه يعرفه لا لمحوه وجوده الخاص وإنما ليبدأ من عنده . فالقديم بالقياس إلى الأديب نقطة بدء ، وليس نهاية ولا خاتمة ، نقطة بدء يرى فيها كيف تجددت الحياة الإنسانية على ألسنة الأدباء ، وكيف ظلت تتجدد من زمن إلى زمن في نماذج رفيعة خلقها وسواها أدباء كثيرون أقاموها كالأعلام المنصوبة في طريق طويل . وعليه أن يضع علمه بجانب أعلامهم ليهتدى به الناس في حياتهم البشرية المديدة ، بل ليفيئوا إليه ، وليجدوا عنده مستراحاً وغذاء يغذون به عقولهم وقلوبهم . والمهم أن يعرف كيف يقيم علمه وكيف يثبتته ، وكيف يحفظ له البقاء .

وليس من شك في أن هذا العمل ينطوي على صعوبة شاقة ، فليس كل الأدباء بقادرين على أن ينتجوا لنا نماذج متفردة ، إنما الذي يستطيع ذلك الأفذاذ الذين لا يعيشون على السطح من واقعنا وحياتنا ، إنما يعيشون في داخلهما وفي أعماقهما معيشة تتحقق لهم فيها مجموعة كاملة من المعاني والأحاسيس . ولعل ذلك ما يجعل النموذج الأدبي الفذ شيئاً صعباً لا ينهض به إلا القلة القليلة ، أما الكثرة الكثيرة فإنها تنتج نماذج عادية ، نماذج نصف حيّة ، فعناصر الذبول السريع والفناء تراءى فيها ، لأنهم لم يوسعوا مداركهم ولا مواهبهم ، وعبثاً يُنقذ هذه النماذج شيء حتى لو كان أصحابها شعراء بارعين في موسيقاهم ، فالموسيقى وحدها لا تكفي ، بل لابد من الأحاسيس والمشاعر التي تصور حالة بعينها من حالات الوجدان .

لا بد إذن أن تكون القصيدة تجربة حية : بما فيها من حس وشعور ، وبما سلّط

فيها الشاعر من أضواء عقله على عالم نفسه ، وبذلك تسيل في قصيدته أشعة لاحصر لها ولا عدد ، أشعة له هو ، لم يملكها أحد من قبله ، فإذا قرأناها أحسنا أننا نزداد شيئاً جديداً وثروة عاطفية جديدة . إننا نشعر حينئذ بأننا نتكامل ، يتكامل فينا وجودنا وحياتنا الإنسانية التي نقبع في ركن من أركانها غير مبصرين ما يجري في داخلنا ، فإذا بالشاعر قد أخرجنا من هذا الركن الضيق وانطلق بنا متجولاً في عالم فسيح ، لا نبصر فيه حياتنا الداخلية فحسب ، بل نبصر الحياة من حولنا وقد دبَّت فيها الحركة التي كانت خافية تحت أعيننا .

وهذا هو النموذج الأدبي القسدي ، النموذج الذي يصلنا بالوجود ويرجم عن واقعنا في صدق ، فنشعر كأن كلماته من أصدق ما نطق به إنسان ، فرضي ونطمئن وكأنما حطمنا الأغلال المادية التي تكبَّلنا وانطلقنا من عقالنا . أما إذا لم يفك النموذج هذه الأغلال وذلك العقال ، ولم نشعر معه بانطلاق من حياتنا الظاهرة العادية التي يملكها كل فرد منا ، فإنه يكون نموذجاً عادياً كحياتنا التي نحياها ، نموذجاً نفتقد فيه جلال المعرفة الأدبية الحقيقية ، أو قل جلال الإدراك العميق لحياة الإنسان الفسيحة ، تلك الحياة التي لا أول لها ولا آخر .

والنموذج قد يكون كبيراً ، لا يصور حقيقة واحدة ، بل يصور جملة من الحقائق ، كما هو الشأن في القصة والمسرحية ، وحينئذ ينبغي أن يسلط الأديب على كل حقيقة فيه من الأضواء ما يجعلها بارزة تمام البروز واضحة كمال الوضوح رغم المحيط الواسع من الحوادث والأفكار الذي تضطرب فيه . وكذلك الشأن في النموذج الصغير ، في القصيدة ، فلا بد أن يختار الشاعر حقيقة من حقائق الوجود أو حقائق الواقع ويتخذها مادة أساسية لحالة وجدانية متميزة ، تثير خواطره وشجونه، ولتكن الحقيقة حباً أو رثاء أو وصفاً لطائر أو لأي مظهر من مظاهر الطبيعة أو بياناً لقضية معينة من قضايا المجتمع ، لتكن ما تكون، فإنها ليست أكثر من مادة يضع الشاعر نفسه إزاءها أوضاعاً مختلفة ، تبرز فيها المعاني الجزئية بمعان شاملة كلية .

وهكذا النموذج الأدبي القدي دائماً ، له شخصيته وفرديته التي يفرق بها من أمثاله ، وله طرافته وجدته التي ينفصل بها من نظرائه وأشباهه ، وكأنما النموذج التام في الأدب كالنموذج في الطبيعة ، إذ لا يوجد فيها نموذجان بصورة واحدة ، بل إن

شجرتين من نوع واحد تختلفان في الساق والغصون والفروع ، بل إن ورقتين في شجرة واحدة لا تزال نجد بينهما اختلافاً بحسب ما تستقبل كل منهما من ضوء الشمس والظل والرياح .

ففكرة التفرد في النموذج الأدبي فكرة تطابق طبائع الأشياء في الوجود ، وارجع إلى الإنسان فإنك لن تجد شخصاً يكرر شخصاً آخر ، بل دائماً حتى بين الأب والابن تقوم أسوار فاصلة في المزاج والطباع والشكل والملامح . فالفردية جوهر من جواهر حياتنا ، بل من جواهر وحدات الوجود جميعها . وعلى هذا القياس نماذج الأدب الجديرة بأن تسمى نماذج ، فإنه ينبغي أن يكون لكل منها شكله وقسماته وملاحه التي تُفرده من غيره .

ولا يَقْلُ أحد: من أين يمكن لكل أديب أن يأتي بنموذج تام التفرد، وواقع الحياة تحت أعيننا محدود ؟ فثل هذا القول غير صحيح في جملته وتفصيله ، لأن الأديب لا ينقل الواقع الذي تصوره العدسة أو آلة التصوير ، إنما ينقل روحه ، وروحه لا تنفذ . والأديب الحق هو الذي يستطيع أن يستشف عناصر هذه الروح في جانب من جوانب الحياة فيمثلها لنا خلقاً جديداً ، وهو خلق ينبغي أن تتجلى فيه دقة الإحساس وعمق البصيرة ، حتى يُسقط عليه من الأضواء المفاجئة: أضواء المشاعر والأفكار ما يكشفه كشفاً تاماً . وهي إنما تكون مفاجئة لنا نحن القارئ أو السامع ، أما بالقياس إلى الأديب فإنها تتولد في أثناء جهد شاق وصبر طويل ، إذ يحسها شيئاً فشيئاً ، وهي تتغذى وتنمو ، حتى تتخلق في قلبه ، فتنتلق منه نموذجاً كاملاً التكوين .

لا بد إذن في صنع النموذج الأدبي المتفرد من الأناة والمثابرة ، ولا بد أن تكون للأديب عينان كبيرتان، لهما من نور الإدراك البصير ما تنفذان به إلى لب الأشياء ولب العواطف والأحاسيس ، حتى يَسْكِب على ما يصفه من المشاعر والمعاني ما يبعث فيه الحياة تامة موفورة . إن الأديب لا يقف عند ظواهر الأشياء ، بل إنه يطيل إدراكه في بواطنها ، فإذا هي كالباور الصافي ذي الأضلاع العديدة ، وإذا هو يعكس لنا منها أشعة وأشكالاً ، لا تكاد تُحصَى ، أشعة وأشكالاً من ذات نفسه ، يتحول فيها الشيء ، مهما كان تافهاً ، إلى نموذج أدبي خالد .

وهذه هي براعة الأديب أن يجعل شيئاً تافهاً أو مألوفاً شيئاً دائماً باقياً ، يجعله كذلك في شخوصه إن كان قصصياً فإذا الشخص يشا كل حياة الناس في مجتمعه نافذاً به إلى تمثيل الحياة الإنسانية وكأنه شخص حي لحماً ودماً ، وهو لذلك شخص لا يموت ، بل يظل باقياً في الوجود البشري . وكذلك الشاعر في قصائده ، فكل قصيدة ينبغي أن تكون تجربة إنسانية متميزة ، تصلنا بحقائق المجتمع وحقائق الوجود ، تلك الحقائق التي لن يفرغ الأدباء من وصفها وبيانها ، بل سيظل كل أديب وشاعر يتناولها بطريقته ، أو قل ببصيرته وفطنته ، فيعرض علينا صوراً منها واضحة القسمات ، قسمات المعاني والمشاعر . قسمات من شأنها أن تجعل العمل الأدبي نموذجاً أصيلاً مستقلاً بذاته وخلقاً فنياً بديعاً متفرداً بصفاته .

الأدب والحياة الاجتماعية

من القضايا التي يثيرها النقاد كثيراً قضية الأدب والحياة الاجتماعية ، فهل يحسن بالأديب أن يوجه أدبه نحو الوفاء بقيم مجتمعه التي تدفع به إلى الأمام أو أن يوجهه نحو القيم الذاتية والفنية وما يُطوّر فيها من إتقان التصوير وروعة التعبير؟. والذي لا شك فيه أن الأديب لا يكتب أدبه لنفسه ، وإنما يكتبه لمجتمعه ، وكل ما يقال عن فرديته المطلقة غير صحيح ، فإنه بمجرد أن يمسك بالقلم يفكر فيمن سيقروا به ويحاول جاهداً أن يتطابق معهم ويعي مجتمعهم وعياً كاملاً بكل قضاياهم وأحداثهم ومشاكلهم ، لسبب بسيط وهو أنه جتماعي بطبعه ، ومن ثمّ كانت مطالبته أن يكون اجتماعياً في أدبه ، مطالبة طبيعية ، أما أن يتخلى عن مجتمعه فإن ذلك يعد شذوذاً وانحرافاً وانسياقاً نحو ضرب من الانعزال من شأنه أن يفت في عضد المجتمع .

والمجتمع السليم هو الذي تتضامن وحداته في حياته ، فيكون لكل وحدة دورها في كيانه ووجوده وتكاليفه واجباته . ولا يوجد الأدباء في الأمة عبثاً ، فهم لها هداية الطريق ، وهم مرآتها الصافية النقية التي ينبغي أن تصور آلامها وآمالها ومواقفها وكل ما حلّت به في الماضي وتحلم به في الحاضر . وإن الأديب من أمته ، ولها ، يذيع أفكارها ومشاعرها وكل ما هزّها وأثر فيها من أحداث ظاهرة أو باطنة مستسرة . ويردّد بعض دعاة القيم الذاتية أن الأديب ينبغي أن لا يعيش في سطح مجتمعه وأحداثه وما تبلغه الحواس الظاهرة ، فحياته في أمته ليست حياة إنسانية ، إنما هي حياة خاصة ، وعليه أن يتغلغل إلى الصميم من نفسه ومن الوجود وأسراره ، وأن يؤدي ذلك في قيم تمتع النفوس والقلوب والأرواح . ومن ثمّ يخدم الأديب مجتمعه بما يقدم له من صور الأدب الإنساني وما يكشف له من قوانين النفس وقوانين الوجود ، أو قل من أسرار النفس وأسرار الوجود ، تلك الأسرار التي تنساب في جوانب الحياة .

وفي رأينا أن الأديب لا يفهم الحياة حق الفهم نافذاً إلى أعماقها الإنسانية إلا

إذا ناضل مع مجموع أمته الذى ينبثق من مجموع الإنسانية الكلى ، وبذلك يصبح أدبه تصوراً اجتماعياً من ناحية وتصوراً إنسانياً من ناحية ثانية ، أما إذا استغرق فى نفسه وخيالاته ومشاعره الفردية فإنه يصبح منفصلاً عن أمته ، وبالتالي يصبح أكثر تعرضاً للانفصال عن المجموع الإنسانى .

والحق أننا نعيش اليوم فى عصر صراع ، ومن واجب الأديب أن يصارع مع أمته ، وأن يكون جزءاً حيويّاً فى هذا الصراع بل جزءاً متداخلاً فيه ، يستمد منه بواعثه وأفكاره ومبادئه ، ويرتبط به ارتباطاً قوياً متصلاً ، أما أن ينفصل عنه مؤثراً أن يعيش لنفسه ولفرديته المحضة فإنه يتخلى عن مسئوليته إزاء مجتمعه الذى يعيش فيه والذى يستمد منه حياته ، ويصبح أدبه لوناً من ألوان الترف لا أداة من أدوات الحياة . من أجل ذلك ينبغى أن يتخلص الأديب من كل ما هو فردى محض وأن يحقق الصلة بينه وبين أمته فى كل ما يصدر عنه بحيث يكون أدبه دعامة من دعائم حياتها بكل ما يجرى فيها من ألم وأمل وشقاء وسعادة .

ويخفف بعض دعاة القيم الذاتية من غلوّهم فيقولون إن الانفصال المطلق للأديب عن المجتمع لا يمكن أن يوجد ، فهو مهما بدا انزالياً كأنه يعيش فى برج عاجى فإنه فى هذا البرج يلتصق بأمته أراد ذلك أم لم يرد ، لأنه منها نشأ وعلى مهاد ظروفها السياسية والاجتماعية درج واختلجت فى قلبه أحاسيسها وأمانيتها . وحقاً أدبه ذاتى فردى ولكنه يصدر فيه عن روحها متقيداً بقيم الشكل والصياغة ، وقيم أخرى فى المضمون تلتقى فيها القيم الاجتماعية بالقيم النفسية الشعورية . وتحديد الأدب بالقيم الاجتماعية قصّر له على قيمة بعينها ، وأولى أن نترك الأديب حراً ، يصف واقع الجماعة تارة ، وتارة أخرى يصف الواقع النفسى ويسبر قلب الإنسان ويجول فى طبيعة الحياة العامة لا حياة مجتمع خاص .

وحقاً إن الأديب مهما بدا فى أدبه منفصلاً عن مجتمعه فإنه يتصل به وبقيمه ، لسبب بسيط وهو أنه نتيجة الوراثة والوسط ، ولا نقصد بالوراثة المعنى الضيق ، إنما نقصد المعنى العام من روح الأمة وتاريخها الماضى جميعه ، كما نقصد بالوسط الوسط العام من الواقع الحاضر وكل ما يجرى فيه من مواقف وقضايا وموارد روحية واجتماعية .

ففكرة الانعزال الفردي عن المجتمع أسطورة ، إذ لا يستطيع أديب أن يعيش يوماً منعزلاً عن مجتمعه ومواقف الحياة فيه أو يدير نظره عنه وعما يعاينه من أحداث ، وهو سواء صوّر هذا المجتمع أو صور نفسه أو صور الحياة الإنسانية العامة يصدر عن روح مجتمعه وروح أفراده الذين يخالطهم ، مستمدّاً من الواقع ومن غير الواقع ، من الماضي ومن المستقبل وحياً لعواطفه ومشاعره .

وإذا رجعنا إلى المشكلة من الوجهة التاريخية في أدبنا العربي ، وهو من أكثر الآداب ثباتاً عند تقاليد معينة حتى لتغدو أكثر أجزائه صورة لعصور أقدم منها تضرب في الزمن السحيق ، إذا رجعنا إلى هذا الأدب مع ما رسف فيه من أغلال وقيود وجدناه مع هذا كله يرتبط بمجتمعاته الماضية والحياة التي عاشها هذه المجتمعات من بدوية وحضرية .

ولنرجعُ بذّاكرتنا إلى العصر الجاهلي فإن الشعر الذي كان يجري فيه على كل لسان يصور حياة الجاهليين البدو الرعاة تصويراً دقيقاً ، يصور عاداتهم وببشهم وحيوانهم وكل ما رأوه تحت أعينهم ، كما يصور رحيلهم الدائر في الصحراء على نحو ما هو معروف في مقدمة الأطلال والإلمام بالديار . ويستطرد الشاعر من ذلك إلى وصف الصحراء ونباتها وآبارها وحيوانها الوحشي والأليف . وكانوا يتحاربون ويتصارعون على الكلاً ومساقط الغيث ، فدار شعرهم على الحماسة والأخذ بالثأر . ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي يصوّر الظروف المادية والاجتماعية التي عاش فيها الجاهليون .

ولما جاء الإسلام وأحدث انقلابه الروحي والاجتماعي في حياة العرب رأيناهم يصدرون عنه في شعرهم ، وقد اتخذ منه الرسول صلى الله عليه وسلم عوناً في كفاحه لقريش وغيرها من العرب ، فكان الأبطال يناضلون ويذودون عن الدين الجديد بسيوفهم ، وكان الشعراء يناضلون عنه ويذودون بسهام أبياتهم . وخرج العرب من جزيرتهم لنشر الإسلام ، ففتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار ، ولم تلبث الفِرَقُ أن ظهرت وظهرت معها نظريات سياسية مختلفة في الخلافة وأي الناس أحقّ بها ، وتعارك أصحاب هذه النظريات ، وتعارك معهم الشعراء فظهر الشعر السياسي . ويدور الزمن بالعرب فيتم تحضرهم ، ويتزع فريق منهم إلى اللهو

وفريق إلى الزهد ، فيمثل الشعر المتزعين تمثيلاً واضحاً ، كما يمثل الرقى العقلى الذى أصاب الشعراء وما أوتوا من فكر دقيق . ويكفى أن نذكر أسماء بشار وأبى نواس وأبى العتاهية وأبى تمام وابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء لتبرز لنا مع كل شاعر طوابع عصره وزمنه .

ومنذ الفتوح الإسلامية والحرب المشتعلة بيننا وبين الأجانب ، فى كل زمن ميدان ، تارة فى أقصى الشرق فى خراسان ، وتارة مع الروم أو مع الصليبيين ، وتارة مع الأسبان فى أقصى الغرب . وفى كل ميدان يلمع غير شاعر ، يكافح الأجانب بشعره وقصيده .

فالشعر العربى مع تمسكه الشديد بالتقاليد لم ينسحب ولم يهرب من الحياة ، بل كان يرافقها فى السلم والحرب ، وكان الشاعر يرى من واجبه أن يشارك فى أحداث مجتمعه . وحقاً كانت صلته بالطبقات الحاكمة أقوى منها بالطبقات الشعبية ، ولكنه على كل حال كان يخضع لمجتمعه ، ولم يتحرر من أحداثه . ومن غير شك تَطَغَّى عليه منذ العصر العباسى عناصر فردية كثيرة ، ولكنها لا تستقل عن عناصر الجماعة ، بل يتصل بعضها ببعض ، ولم يحدث أن طمس فريق من هذه العناصر الفريق الآخر طمساً تاماً ، بل كان كل من الفريقين يمتزج بالآخر امتزاجاً ، كما يمتزج بالعناصر الفنية الموروثة ، وتتألف من كل ذلك وحدة أدبية عامة متشابكة .

وليس من ريب فى أن العناصر الفنية الموروثة كانت تفرض نفسها فرضاً قوياً على العناصر الفردية والجماعية فى حياة الأدباء ولكن هذه الحياة لم تتلاش فى شعر الشعراء ، فقد تمثل فيها الجانبان من العناصر الفردية والجماعية لا عند جميع الشعراء ولكن عند البارزين منهم . أما غير البارزين فقد اختفت فى شعرهم الصورة الفردية والجماعية ، وليس هؤلاء هم المقياس ، إنما المقياس الأفذاذ الذين استطاعوا أن يوازنوا بين الماضى الموروث والحاضر الحى وبين فرديتهم ومجتمعاتهم موازنة تجلّى فيها فكرهم وفنهم .

وقُلْ " ذلك نفسه فى النثر ، فع غلبة الزخرف والتنميق عليه ظل يظهر فيه من عصر إلى عصر بعض الكتاب ذوى الشخصيات القوية ، ولنضرب مثلاً باللاحظ

فإنك حين تقرأ له كتاب البخلاء تجد تحت عينك بغداد بقصورها وأكواخها وكل ما يروج بها من عادات وأطعمة وأزياء ومن أثرياء وفقراء . وقد وصف لنا أبو حيان التوحيدي في كتاباته مجالس الحكام والأدباء والفلاسفة في القرن الرابع الهجري وصفاً دقيقاً . وحتى المقامات التي كتبت لتعليم الناشئة أساليب الكتابة المنمقة أودعها أصحابها الحياة التي عاصرتهم بصلاحيها وفسادها وحكمتها وقضاتها وأسواقها ومساجدها ووعظاظها وأصحاب اللهو والمجون .

فلم يكن أدباؤنا من شعراء وكتاب في العصور الغابرة معصوبي الأعين عن الحياة الحارية في أزمانهم . وحقاً لا يصدق ذلك على جميع الكتاب ، غير أنه يصدق على الصفوة منهم . وكان وراءهم كثيرون يعيشون في أدبهم معيشة تقليدية خالصة ، حتى يصبح من الصعب أن نستشف عندهم عناصر فردية ذاتية فضلاً عن العناصر الموضوعية الجماعية . وحتى مع فقد هذه العناصر عند هؤلاء نستطيع أن نعرف منهم وعندهم ذوق المجتمع وميوله المحافظة ، وإن لم يرتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالحياة الحارية فيه .

وكان من عيوب أدبنا الوسيط — وخاصة الشعر — أنه عاش في خدمة الحكام وأنه كان يمدحهم وينافقهم ، ومع ذلك فقد شارك شعر المديح في السياسة العامة ، ويكفي أن نضرب مثلاً بالمتنبي فقد صور في مديحه لسيف الدولة كفاح العرب للروم ، وصور في مديحه عامة سخطه على النظام الاجتماعي . وحتى أبو العلاء الذي اشتهر باعتزاله الناس نجده يصور حياتهم ويحمل حملة شعواء على الأحوال الاجتماعية والسياسية في عصره وينقدها نقداً صارخاً في جرأة جريئة وصراحة صريحة .

ومن المؤكد أن أدباءنا في أواخر العصور الوسطى كانت قد تضاءلت نفوسهم ، لا إزاء الحكماء فحسب ، بل إزاء الحياة نفسها ، فقد أصيبت آلة الأدب بما يشبه العطل ، وران عليها غير قليل من الركود . ولعل ذلك ما جعل كثرتهم تعيش في أدبها مخفية ، تختفي هي وعصرها في رواسب الفن التقليدية ، وكأنما انعدمت أو كادت القيمة الفردية والجماعية للحياة والناس . ويتضح ذلك بآتم معانيه في العصر العثماني ، عصر الحمود والحمود والظلام المطبق على كل شيء في كيان حياتنا ، وبذلك تضاعف تأثير واقعنا في أدبنا .

فلما كان العصر الحديث أخذ الأدباء يثوبون إلى أنفسهم ، بل قل أخذوا يستكشفونها من جديد استكشافاً ، وكان البارودي من أسبق شعرائنا إلى ذلك ، بل كان إمامهم غير منازع ، فقد صور نفسه وعصره وظروف قومه وثورتهم على إسماعيل وتوفيق وموقفهم من ذلك تصويراً رائعاً . ثم كان الاستعمار الغربي المشثوم ، فانبرى شعراؤنا مع الشعوب العربية يصارعونه وأخذوا يصورون متاعس هذه الشعوب وحرمانها من حقوقها السياسية والطبيعية في العيش الكريم . وبذلك انبثق في شعرنا لوتان جديدان ؛ هما الشعر السياسي الوطني والشعر الاجتماعي ، على نحو ما هو معروف عن حافظ وشوقي وأضرابهما . وظهر جيل جديد من الشباب في أول هذا القرن يستشعر في أعماقه نكبة الاحتلال وما يذيق المصريين من ظلم وعذاب ، فاكتأب وقلق ، وصوّر هذه الكآبة والقلق شعراً بديعاً عبد الرحمن شكرى وإبراهيم عبد القادر المازني وعباس العقاد .

وظل كتابنا في مقالاتهم يناهضون المستعمر الغاشم وينازلونه ، ولا أبالغ إذا قلت إن أقوى قوة حاربنا بها الاستعمار في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن هي أقلام كتابنا من أمثال عبد الله نديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وأضرابهم ، فقد جسّموا بؤسنا السياسي والاجتماعي ، واتخذ محمد المويلحي من أسلوب المقامات القديم إطاراً لكتابه « حديث عيسى بن هشام » مصوراً فيه أحوال مصر البائسة في أوائل القرن تصويراً رائعاً . وظهرت القصة بمعناها الفني الدقيق ، واتجهت أول ما اتجهت إلى تمثيل حياة الفلاح والقرية المصرية على نحو ما يعرف القارئ عن قصة زينب لمحمد حسين هيكل وقد كتبها في أوائل العقد الثاني من هذا القرن. وثّرنا على المستعمرين الغاصبين في سنة ١٩١٩ وسجل هذه الثورة توفيق الحكيم قصصاً بديعاً في « عودة الروح » . ونزل إلى ميدان الصحافة والكفاح السياسي اليومي هيكل والمازني والعقاد ، وما زالوا يُصَلّون الإنجليز ناراً حامية من أقلامهم وكتاباتهم ، وغيرهم كثيرون اشتركوا معهم في هذا الكفاح العظيم .

ومعنى ذلك أن أدبنا — رغم بروز العناصر التقليدية فيه — لم ينفصل عن حياتنا جملة في القديم والحديث ، وأن كثيراً من الأدباء كانوا يعدون أنفسهم مسئولين أمام الضمير الشعبي ، فهم يصعدون عنه فيما ينظمون ويكتبون . وما نقوله عن مصر

يجرى على غيرها من البلاد العربية ، فليس هناك أدب في عصرنا لبلد عربي يعتزل حياة أهله ويعيش وراء قضبان الحياة الفردية الذاتية الخالصة .

وإذا كنا نلاحظ ذلك واضحاً في أدبنا العربي الفصيح فإننا نلاحظه أيضاً في أدبنا الشعبي ، وارجع إلى عصر الأيوبيين في القرن الثاني عشر الميلادي فستجد كتاب « الفاشوش في حكم قراقوش » ينقل إليك نقلاً أميناً سخط الشعب المصري على هذا الحاكم « قراقوش » الذي كان يشتط في أحكامه ، فجعله ابن ممتا في كتابه سخرية وهزواً بما وضع على لسانه من أحكام مضحكة . وكان يشيع عندنا لون من التمثيل يسمونه « خيال الظل » مثَّل فيه ابن دانيال في القرن الثالث عشر للميلاد مسرحيات مختلفة كمرحية « طيف الخيال » وهي مسرحية لم يخترع أحداثها من خياله ، وإنما استمدتها من الأحوال السياسية والاجتماعية في زمنه . وحتى حين كُتبت الأفواه في العصر العثماني نجد الشيخ يوسف الشربيني يعرض علينا في كتابه « هزّ القحوف » متاعس الشعب وجهله وفقره في سخرية وتهكم مرير . ونشطت في عصرنا الحديث الصحافة الهزلية الشعبية نشاطاً واسعاً وكم صوبت سهامها المسمومة إلى المحتلين وأعوانهم من الحائنين ، وكم صورت ما يعاني الشعب من آلام وصنوف حرمان .

فأدبنا بشطريه العامي والفصيح لم يتخلف عن حياتنا ولا عاش بعيداً عنا ، وكيف يتخلف أو يعيش بعيداً وهو منا وتعبير عنا ؟ وحتى « ألف ليلة وليلة » التي ترجع إلى أصول فارسية حين ترجمناها زدنا فيها وفي قصصها ما أخضعها لمؤثرات حياتنا ، حتى غدت كأنها منا ، بل كأنها رمزنا في عصورنا الوسطى .

ومعنى ذلك أن أدبنا الموروث جميعه هو حياتنا ، وُضعت فيه كما توضع النار في الوعاء ، وقد حُمِلت من عصر إلى عصر ومن إقليم عربي إلى إقليم عربي دون أن تنطفيء ، وهل يمكن لروح أن تنطفئ ؟ إنه يحمل كل ما فكّرنا فيه وكل ما عشناه . وليس يعنى ذلك أن أدباءنا كانوا حملة مشاعل ، وإنما معناه أنهم أبناء هذه النار ، اقتبسوا منها ما عبّروا به عن كل ما تدفق في ديارهم من ألوان الحياة الزاهية المشرقة والقائمة المظلمة . ويعجبني اسم اتخذه أديب في العصور الوسطى لمجموعة كبيرة من منتخبات أدبنا القديم والوسيط سجلها في أكثر من خمسة وعشرين مجلداً ، وهو في القند الأدبي .

« السفينة » . وحقاً إن أدبنا يشبه سفينة نوح ، فقد تجمعت فيه كائنات ومخلوقات لا عدد لها ولا حصر ومعها صفاتها وعاداتها ومعيشتها وكل ما يرسب في قاع حياتها أو يطفو من أمانى وآلام .

وكأنما كانت هناك قوة جبّرية دفعت أدباءنا على مر العصور لكي يمثلوا حياة مجتمعهم ، وهم لم يمثلوها على أساس فلسفى ولا على أصل سياسى ، لكنهم مثلوها على أصل اجتماعى يختلف قوة وضعفاً باختلافهم ، وهو شىء طبيعى مردّه إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يفصل عن مجتمعه ، وحتى إن انفصلت بعض وحدات واعتزلت فإن ذلك لا يعنى انفصال جميع الوحدات ولا اعتزالها ، فقد ظل المجتمع فاعلاً ، وظل أسلافنا يصدرون عنه فى أدبهم . ومن المؤكد أن الأديب حين يلتئم مع المجتمع ومع روح عصره يصبح عمله الأدبى باهراً بما يصرور من أحداث زمنه ومن روحه ، أما حين يتقاطع معه فإن موقفه يصبح شاذاً ويصبح أدبه ضرباً من الثرثرة ، لا يثير اهتمامنا بحال .

وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى إهمال القيم الفنية الخالصة فى الأدب إهمالاً تاماً فهى قيم جوهرية ثابتة فيه ، وهى تحتاج من الأديب إلى دراسة ومران حتى يحذقها ، لا من حيث الصيغة فحسب ، بل أيضاً من حيث الأصول والقواعد التى تواضعت عليها الآداب الكبرى . ويتضح ذلك فى فن القصة ، فلا بد أن تستوفى شروط القصص الصحيح وتستوفى مع ذلك صفات الأسلوب الأدبى الممتعة .

ولأنه لواجب أن نلح على الشباب فى أن يُعِنُوا بلغة أدبهم ، لأن كثيراً مما ينتجونه لا تكتمل فيه القيم الفنية المعروفة فى الصياغة الأدبية ، بل إن نفراً منهم يدعون إلى أن نهجر الفصحى ونستخدم بدلاً منها العامية ، فإنها أسهل وأكثر مطابقة لمجتمعنا وحياته اللغوية .

ونحن نتساءل ألسنا نترجم إلى الفصحى عيون الأدب العالمى ولا تستعصى عليه ، فسألة الصعوبة والسهولة لا ترجع إلى الفصحى فى حد ذاتها ، وإنما ترجع إلى قدرة مَنْ يستخدمها ، ومن المحقق أن الأدب الجيد لا يعرف السهولة ، بل هو والصعوبة صِنُوان ، صعوبة فى البناء وصعوبة فى التعبير والأداء . وما كنا لنهمل الفصحى وهى اللغة العربية الكبيرة التى يتصايح بها أبناء الضاد فى أقاليم العالم العربى المختلفة ،

إنها رمز وحدتنا وقوميتنا وعروبتنا ، رمز خالد .
 وإذن فلنحتفظ لأدبنا بقيمه الفنية ولنطالب فيه دائماً بمطابقته لمجتمعنا وصدوره
 عن مواقفنا الوطنية والقومية . والحق أن الأديب الذي تهفو له قلوب الأمة هو الذي
 يعيش حياتها ، فيشتق حين يشيع فيها الشقاء ويتهيج حين يشيع فيها الرخاء ،
 ويحيا مع أبنائها ويشاركهم حياتهم بكدرها وصفوها ، ويتخذ منها مادة لأدبه . أما
 إذا انفصل عنهم واعتزل حياتهم وما يعيشون فيه من آمال وآلام ومواقف اجتماعية
 مختلفة فإنه يصبح بينه وبينهم حجاب صفيق .

وليس معنى ذلك أن الأديب ينبغي أن لا يصور نفسه ، وإنما معناه أنه ينبغي
 إذا صور نفسه صور من خلالها مجتمعه ، فهو لا يخلق بعيداً عنه ، بل يمتزج به ،
 بحيث تصبح نفسه صورة لأفراده ، ويصبح وحدة حية من وحداته ، وبذلك
 تلتئم في تصويره لنفسه أحاسيسه الذاتية وأحاسيس مجتمعه الموضوعية .

وواضح مما قدمنا أن أدباءنا كانوا يشاركون مجتمعهم في حياته ويصورونها في شعرهم
 ونثرهم . وهكذا مضى أدبنا ، بل هكذا تمضي الآداب كلها ، يشارك أصحابها في
 حياة أقوامهم ويصورونها ، وقلما وجد من يعتزل أمته اعتزالا خالصاً . وحتى من
 يمضي في هذا الاعتزال يعتصم ببرجه العاجي كما يقولون مهما حاول الاعتصام
 والانعزال لا بد أن تظهر في آثاره انعكاسات مختلفة لمجتمعه بوعيه أو بدون وعيه ،
 لسبب بسيط وهو أنه يخضع في حياته للمؤثرات العامة التي يخضع لها الناس من
 حوله بل إنه يأخذ بحظه من نفس حياتهم الواقعة وكل ما يجري فيها من أحداث
 وأوضاع اجتماعية .

الصحافة والأدب

أصبحت الصحافة في هذا العصر من أهم وسائل المعرفة لسببين مهمين ، أما السبب الأول فهو أن مادتها تنوعت تنوعاً واسعاً حتى غدت أشبه بمائدة حافلة بما لذّ وطاب من صنوف الغذاء ، ففيها غذاء عقلي وروحي ، وفيها حياة الناس الحارية بأطعمتها المختلفة ، وفيها كل ما يهمهم من شئون الحياة . فأنت تقرأ فيها أخبار السياسة الداخلية والخارجية وأحدث النظريات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، كما تقرأ الحوادث والأخبار لا في بلدك فحسب ، بل في أطراف العالم ، حتى أنباء الرياضة والصور المتحركة .

وأما السبب الثاني فإقبال القراء عليها إقبالا شديداً ، لرخص أسعارها ، فكل هذه المائدة تقدّم إليك بأزهد الأثمان . وليس ذلك فقط كل ما يجعلهم يتعلقون بها ، فإنها تعرض كل مادتها الغنية بطرق فنية مختلفة ، تُحدث فيها تلويحاً طريفاً ، يحرك خيالنا ويوقظ مشاعرنا ، بل قد يلهب حواسنا . وأينا لا يُقبل على قراءة الصحف ؟ إننا نطلبها عندما نهض من فراشنا ونفتح عيوننا على ما حولنا في الصباح ، فهي الغذاء الذي نستقبل به يومنا ، غذاء فيه كل ما يستهويننا من معارف وأخبار وحوادث يومية ، لا تزال تنبض بدم الحياة ، مع كثير من المغريات والمشهيات .

ومن المعروف أن الصحافة مهنة معقدة إذ تتطلب خبرة فنية وموهبة فذة ، ولا بد فيها من دقة الملاحظة وفهم نفوس القراء ، حتى يتذوقوها ويقبلوا عليها . لذلك تُبذل فيها مجهودات عنيفة ، حتى تصبح تسلية حقيقية للناس في أوقات فراغهم ، وما أقل هذه الأوقات في عصرنا : عصر السرعة المذهلة . إن الناس لم يعد عندهم من الوقت ما ينفقونه في قراءة كتاب كبير يستنفد منهم الساعات ، فوقت عملهم أصبح من الضيق بحيث لا يستطيعون أن يخلتسوا منه إلا تلك اللحظات التي يقرءون فيها الصحف في أثناء تناولهم لطعام الإفطار أو في أثناء انتقالهم لأعمالهم .

ومن أجل ذلك لا نبالغ إذا قلنا إن الصحافة هي أهم وسائلنا القولية ، فهي

التي يقرؤها الجمهور وهي التي يتشقق عن طريقها ، وهي التي تقوده وتسمو به ،
إذ تغذيه عقلياً وروحياً بعدد لا حصر له من عناصر المعرفة ، فإن الناس لم
يعودوا يقرءون الكتب الكبيرة كما كان يقرؤها آباؤهم ، لسبب بسيط وهو أنهم
مشدودون إلى عجلة السرعة، وهي لا تَبْقَى لهم وقتاً للقراءة الطويلة ، ومتى يقرأون
وهم في حياتهم يقفزون قفزاً ويشبون وثباً .

ومن الصعب أن يُطْلَب إليهم أن يقفوا أو يتأنوا ، فلم يعد هناك وقت
للتأني ولا للوقوف ولا للقراءة ، سوى قراءة الصحيفة غالباً ، وفيها ما يغني ، وفيها ما يسد
الحاجة العاجلة من الثقافة والمعرفة . إنها الوسيلة السريعة التي يجدون فيها كل
ما يطلبون ، وهي وسيلة تحمل كل حيلة لإغرائهم على قراءتها ، حتى الخبر العادي
يُكْتَب في شكل مثير ليبدو كأنه خارج عن المألوف ، وخاصة إذا كان خبر جريمة
من الجرائم ، إذ نرى الصحفيين البارعين يمشدون في عنوانه من عناصر الإثارة ما يغري
القارئ بقراءته ، ثم ما يزالون في أثناء عرضه يشوقونه بطرق مختلفة كأن يأتوا بمقدمة
استفهامية إذا كان الخبر يثير مشكلة اجتماعية أو مقدمة وصفية إذا حدث في حفل
أو جمع كبير ، وإذا طال ساقوه في أسلوب قصصي مثير .

وناهيك بالصورة فإنها تُسْتَخْدَم هي الأخرى للتشويق والإثارة ، وكثيراً
ما تساعدنا على معرفة أشياء لا نستطيع أن نعرفها بدونها ، وأيضاً فإنها تساعدنا على
تركيز عقولنا الشاردة ، وكأنها توظف انتباهنا إيقاظاً ، إما بما فيها من إغراء إن
كانت صوراً جميلة ، وإما بإيجازها الخبر الذي تصوّرفيه . وقد نكتفي بها فلا نقرؤه ،
إذ نعرفه بمجرد أن ننظر إليها ، وغالباً ما تدفعنا دفعاً إلى متابعتها إذ تشوّقنا إلى
قراءته .

وهكذا لا تزال الصحافة تجذبنا بطرق مختلفة إلى القراءة ، طرق تقوم على
لفت القارئ وجذب انتباهه بمغريات شتى ، وهي مغريات من شأنها أن تجلب
لنا متعة عقلية وتزيد قدرتنا على متابعة القراءة وكأنها تشبه التوابل التي تضاف إلى
الطعام . ومن المحقق أن التوابل إذا زادت في الطعام أضرت ، وكذلك الشأن في المغريات
الصحفية فإنها إذا زادت عن حدها أضعفت في القارئ القدرة على الانتباه الطبيعي ،
فقد عودته أن لا يقرأ إلا بمغريه .

وكل شيء في الصحيفة يتناول بمنتهى الخفة والسرعة ، لأنها تخاطب الجماهير وهي لا تألف البطء ولا التعمق ، ومن ثم كانت تعتمد على اللمحات الخاطفة والنظرات السريعة فيما تثيره من قضايا الفكر والعلم والأدب . وليس معنى ذلك أننا لا نقدر الصحافة ، فهي تقوم بأجل رسالة في المعرفة ، ولكنها تسرع في تأدية رسالتها لتطابق حاجة جماهيرها الكثيرة التي لا تقبل على العمق ولا على الثقافة الدقيقة .

ولكن ألا يمكن للصحافة أن تتوسط الطريق؟ إنها إن ظلت تستجيب للجمهور ولا يطلب من مغريات وحيل مشوقة يخشى أن يأتي يوم تتغلب فيه هذه المغريات على ما يصحبها من صنوف الغذاء ، فلا يكون هناك معرفة وثقافة ، إنما يكون هناك مغريات وتوابل مختلفة

وفي رأينا أن الصحافة الجيدة هي التي ترفع الجمهور ولا تنزل إليه بحجة إشباع رغباته بأغذية حريفة . إنها أداة إرشاد وتثقيف وتعليم ، وهي أيضاً أداة تسلية ، ولكن ينبغي أن لا تكون أداة تسلية خالصة ، وأن تتوخى مصلحة الجماهير ، لا الكسب المادي السريع . ولن يتم لها ذلك إلا إذا عُنيت بالقيم الحقيقية وباللباب دون القشور وبالجواهر دون الأصداف ، فتربى الشعب تربية صالحة . وفرق بعيد بين صحيفة تغمرنا بالمشهيات والمسليات والمغريات وصحيفة تثقف أذهاننا وترقى أذواقنا وتكون شخصياتنا تكويناً صحيحاً سليماً .

والصحيفة الثانية هي التي تستطيع أن تقدم للشعب غذاءه العقلي والروحي الذي يجد فيه متاعه ، ولنا نريد منها أن تتخلّى تخلياً تاماً عن المغريات أو عن الصور ، إنما نريد أن توازن بين ما تقدم للجمهور من طعام ومن توابل ، فتُعنى قبل كل شيء بالطعام ، لأنه هو الذي يمدُّ الأمة وأفرادها بالغذاء العقلي والروحي . وحقاً قد تفقد الصحيفة حين تقلل من العناية بالتوابل المغربية بعض قرائها ، غير أن هذا ينبغي أن لا يفت في عضدها ، فإن كل عمل جليل يقتضى من التضحيات ما يقل ويكثر حسب جلاله وحسب غايته . وليست المنفعة المادية هي كل شيء في الحياة فورها منافع أدبية وثقافية تفضلها بعظمها وأهميتها الحقيقية .

ولنا نشك في أن الصحافة إذا عُنيت بالغذاء الفكري والثقافي في دأب وصبر وحرص على التعمق أذكت في الأمة أديها ودفعته إلى التطور في شكله ومضمونه ،

ومعروف أنه مرّت بصحافتنا أدوار ثلاثة في تاريخنا الحديث ، دور كانت تهتم فيه بالمقالة الأدبية أكثر من اهتمامها بالخبر الصحفي ، ودور تكافأ فيه الضربان من الاهتمام ، ثم هذا الدور الذي تعيشه والذي تهتم فيه بالخبر المثير أكثر مما تهتم بالمقالة على أنها عادت فخصصت للأدب ومقالاته ملاحق أسبوعية

وكانت المقالة في الدور الأول تُعنى أشد العناية بالإنشاء ، فالكاتب يعنى بتنسيق ألفاظه ، وقلما عُنِيَ بالمعاني ، فالألفاظ هي كل غايته وعنايته ، وقد بدأ في كتابته بالسجع على طريقة القدماء ثم لم يلبث أن تركه ، لأنه يكتب للجمهور لا لطائفة خاصة ، ونقص تلك الطائفة التي قرأت الأدب القديم حينئذ واتخذت أساليبه مثلاً أعلى لها . فقد تبين أن الجمهور لا يُقبل على هذه الأساليب ، بل قد يجد فيها ضرراً من الصعوبة ، وأيضاً فقد وجدت الحاجة إلى كلام كثير تملأ به الصحف يومياً ، ولم يكن في طاقة الأدباء المتأقنين أن يلبسوا هذه الحاجة إلا إذا تنازلوا ولو قليلاً عن كثير من تأنيدهم . إنهم في حاجة إلى الإسراع ولو أنهم تأنقوا وتكلفوا لأفلت منهم حَسْبُ الزمن ، أو لأفلت منهم الصحيفة والمقالة التي يريدون كتابتها . إذن لم يكن بد من أن يهجر السجع والتأنيق الشديد وأن يكتبوا بأسلوب مرسل ، ولكنهم ظلوا تعنيهم اللفظة ويعنيهم جمال الإنشاء على نحو ما نعرف عند المنفلوطي والمويلحي وأضرابهما .

ثم حلَّ دور جديد كان الكتاب فيه مثقفين ثقافة عميقة بالآداب الغربية ، فخرجت المقالة الأدبية من طور العناية بالإنشاء إلى طور العناية بالمعاني والموضوعات ، وأخذ كتابها يخرجونها على هدى ما عرفوه عند الغربيين - في نمطين : نمط تصويري يصدر فيه الكاتب عن شعوره إزاء صورة من صور الحياة أو وضع من أوضاع المجتمع ، فيتحدث عن أحاسيسه حديثاً خفيفاً كهذا الحديث الذي يدور بينك وبين صديق في وقت من أوقات الفراغ . ونمط آخر تثقيفي يقف فيه الكاتب موقف المعلم وكأنه يلقي درساً من الدروس ، أو كأنه بصدد مشروع بحث في موضوع من الموضوعات . وكيم من كتب التحصت في هذه المقالة الثانية ، وكيم من نظريات أدبية أو سياسية أو اجتماعية جُمعت وركّزت في عدد من السطور . وبذلك حملت إلينا هذه المقالة الثانية الثقافية زاداً كثيراً من المعرفة ، إذ كانت أشبه بكتب صغيرة ،

فهى تبحث فى القديم والجديد فى الأدب وهى تترجم لأعلام الغرب والشرق ، وهى تقدم دراسات فى الفنون أو فى الشعر والشعراء أو فى النظم السياسية .

وطغت هذه المقالة على المقالة الأولى وكادت لا تفسح لها مجالا ، فقد كانت كثرة الكتاب من أمثال هيكل والمازنى والعقاد وطه حسين يعدون أنفسهم معلمين ، كما يعدون أنفسهم ناقلين للتراث الغربى . وهو مجهود يشكر لهم فقد وضعوا أمام جيلنا كثيراً من المنارات التى تهديه السبيل فى حياته الأدبية .

وفى رأينا أن المقالة الأولى التصويرية أوثق صلة بالصحافة من المقالة الثانية الثقافية ، لأن الكاتب فيها يتصل بمجتمعه مباشرة . وهو فيها لا يعلم ولا يلقى درساً من دروس المعرفة ، وكأنما يسرى عن نفسه ونفوس قرائه . إنه يأخذ صورة من صور المجتمع ، وليكن حادثاً فى مقهى أو ترام أو عاملاً أو بائعاً للبرتقال أو للكتب أو أى ظاهرة من الظواهر ، يجعل ذلك موضوع حديثه ، إذ يدور حوله ببصيرته النافذة ، فإذا هو حقيقة كبرى من حقائق الحياة ، حقيقة تدور حولها هالة من أحاسيسه ومشاعره ، فإذا هى يتفجر منها مقال هامس ، لا تسمع فيه قرعاً للآذان ، ولا أمراً صاخباً ، فالكاتب لا يعلم ولا يزجر ، إنما يفضى لك بمشاعره كما يفضى الصديق بكلامه إلى صديقه فى سمر من أسماؤه . فلا جموح ولا عنف ولا ثورة ولا حدة ولا انفعال ، وإنما هى أحاسيس دقيقة ، أحاسيس يترخى لها العنان ، لا ليقرع بها آذاننا ، وإنما ليهمس لنا بها همساً خفيفاً ، همساً فيه نفسه الأليفة ، همساً نحس كأنه نجوى نفوسنا ونفس أحاسيسنا ، أو قل إنه يعمق فينا هذه الأحاسيس ، وكأنه يزيد فينا تعلقنا بحياتنا ، إذ يبصرنا بها ويوسع مداركنا عنها ، ويجعلنا كأننا نسيطر عليها . وقد ينقد جانباً من المجتمع ولكن من خلال أحاسيسه ، وقد يمزج نقده بضرب من التفكه ، لا يريد به أن يضحكنا ، وإنما يريد به أن يعرفنا ما يصفه من جميع جوانبه ، فهو تفكه رزين ، تشيع فيه السخرية المهادئة التى لا تظهر إلا تحت ضغط الظروف والملابسات .

وهذه المقالة الأدبية التصويرية لم تنم نمواً واسعاً فى الدور الثانى من أدوار صحافتنا ، وإن كانت قد ظهرت فيه ، غير أنها لم تتوطد دعائمها ولا رسخت أصولها . ودخلت صحافتنا فى دورها الثالث المعاصر ، فعنيت بالطرفين من المقالة الثقيفية والتصويرية ،

وخاصة في الملاحق الأسبوعية ، حيث نرى المقالة التثقيفية تنشط نشاطاً واسعاً عارضة كثيراً من جوانب العلم والمعرفة وحقائق الأدب والفن ومشاكلهما بحيث لا نبالغ إذا قلنا إنها تحاول جادة أن توجد فعلاً عندنا وعياً علمياً وأدبياً وفنياً.

وقد نهضت المقالة التصويرية في هذا الدور الثالث لصحافتنا نهضة واسعة. ولا يختلف اثنان في أهمية هذه المقالة ، لأنها جزء يتم أخبار الصحيفة وصورها . إذ يعمق شعور قرائها بحياتهم ومجتمعهم ، ويجعلهم يقفون على ما بهما من عيوب ، كما يجعلهم يزدادون معرفة بكيانهم ووجودهم . وقد أصبح عندنا غير كاتب يحسن اختيار الصورة التي يعرضها من صور المجتمع ويستشف من خلالها أحاسيسه وشاعره ، بل قل يرسلهما من خلالها إرسالاً ، إذ تمس نفسه فيغوص إلى أعماق أعماقها ويستخرج دُرَّها الدفين ، وينقله إلى القارئ فيحس فيه متاعاً عقلياً وروحياً رائعاً متاعاً لا نقرؤه ونتشاءب وننام ، بل متاعاً يوقظنا ، يوقظ خير ما فينا من أحاسيس ، ويساعدنا على أن نفهم حقائق مجتمعنا في ضوء غامر من النقد والمعرفة ، متاعاً لا يقف بنا عند المشاعر السطحية النحيلة ، بل يثقف عقولنا ويصقل أرواحنا وننمو وينمو الشعب من خلاله . وبذلك أصبح هذا الكاتب الصحفي كأنه منارة تهدينا الطريق في بلج الحياة ، فأشعته تخفق في كل درب وفي كل مسلك نسلكه ، وكأنه يدعم حياتنا دعماً .

وهذه المقالة التصويرية ينبغي أن تصاغ في أسلوب جميل ، لسبب بسيط وهو أنها مقالة أدبية . وليس معنى ذلك أننا نريد أن نرجع إلى الأسلوب الإنشائي الذي مات ، وإنما نريد أن يكون فيها من السلاسة والعذوبة ما نشعر إزاءه بأنها ترضي حاسة الجمال فينا ، وهي حاسة لم تعد ترضيها ثياب الألفاظ الحلابة البراقة ، إذ أصبحنا نؤثر جمال الروح على جمال الجسد لأنه الجمال الصحيح . لا نريد إذن لهذه المقالة ضرباً من الثراء اللفظي أو الجسدي ، فهي إنما تحتاج في المكان الأول إلى عقل له لفتاته ومداركه الحسنة وقدرته البارة على الاستدارة حول الأشياء ، ليستخرج منها ما فيها من معان ، ثم يدفعه إلينا ، فنشعر كأنها مجسمة أمامنا ، وكأننا نملكها نملك حياتنا وأحلامها وذكرياتها ، كما نملك مستقبلنا وآمالنا ومطامحنا . ومثل هذا الكاتب هو الذي يجعلنا نلمس الحياة لمساً ، إذ يفهم كل النفوس وكل

التزعجات والأهواء، ويخاطبنا من قريب بكل إخلاص وبكل تواضع فلا جبروت ولا ترفع ولا استعلاء . إنه يخاطب إخوانه وأصدقاءه، وينبغي أن يخاطبهم لا من فوق راية عالية ولا من وراء السحب ، بل من قريب ، فهو دان منهم يحدثهم ، بل لكأنه يناجيهم من طرف خفي بصوت خفيض .

ومن الظواهر التي عمت في الدور الثالث من أدوار صحافتنا سيل الأقاصيص الجارف الذي لا تكاد تخلو منه صحيفة ، فقد أصبح من المعتاد في أكثر الصحف وخاصة في ملاحقها الأسبوعية أن تجد أقصوصة ، ولما كانت الصحف تصدر يومياً فقد كثرت الأقاصيص التي تطالعنا كل يوم كثرة مفرطة ، ومن المؤكد أن هذا الفن نضج في هذه الأيام نضجاً لم نكن نألفه : وهو نضج لم يعد يعتمد — كما كان الشأن في أيامنا السابقة — على استلهام النماذج الغربية ، إنما يعتمد على واقع حياتنا المصرية العربية واستلهام هذا الواقع بكل ما يتصل به من مواقف وقضايا اجتماعية . وما لا ريب فيه أننا قد ظفرنا بعدد كبير من قصص الشباب البارعين الذين أتقنوا فنَّ الأقصوصة إتقاناً بعيداً . على أنه يوجد بجانبهم نفر لا تعدو أقصاصهم أن تكون حكايات غير محبوكة وكأنها ضرب من سرد الحوادث والأخبار ، ومردُّ ذلك إلى أن بعض القصاصين الناشئين يُقدِّمون على كتابة هذه الأقاصيص قبل أن ينضج فَنهم، ومعروف أن القصاص لا يولد ناضجاً، بل لابد له من وقت يتم فيه نضجه ، ولابد من صبر وتأنٍ طويل قبل أن يذيع آثاره، ولابد أن يفهم في عمق أنه قادم على عمل صعب ، هو الخلق الفني ، وهو لا يخلق ألفاظاً يرصّها بعضها إلى بعض أو يشبكها على خيط من الحوادث والأسماء ، إنما هو يخلق نماذج إنسانية، يريد لها الحياة والبقاء لا أن تكون كحوادث الصحيفة تنتهي بانتهاء يومها الذي حدثت فيه .

وفي رأي أنه ينبغي للناشئ من القصاص أن لا يتعجل الظهور عن طريق الصحف ، فإن هذا التعجل قد يجنى عليه وعلى موهبته، إذ يظهر للوجود قبل تخلقه الكامل ويظل يعيش في تخلقه الناقص وتعيش معه أقاصيصه ومن الصعب بعد ذلك أن يكتمل . والقصاص الحق لابد أن يصبر ويتمهل ويتأني فليس هناك شيء يدعو إلى التعجل بل إن كل شيء يدعو إلى البطء والتريث حتى يتم نضجه .

والأقصوصة ليست عملاً يُصنَعُ عفواً ، وإنما هي حدث أدبي يجلو موقفاً معيناً لشخص أو أشخاص بكل تولداته وامتداداته وأعماقه ، إنها صورة متحركة من صور الحياة ، وليست مجرد حادثة طريقة أو حادثة شاذة ؛ بل هي لحظة زمنية من قطاع الحياة لشخص معين ، ولا يزال القصصاّص يُسقط عليها الأضواء حتى يبرزها إبرازاً واضحاً .

ولا يتضح عيب بعض هؤلاء الناشئة في بناء أقاصيصهم فحسب ، بل يتضح أيضاً في لغتها فمنهم من يكتبها بالعامية ، ومنهم من يكتبها بلغة وسطى بين الفصحى والعامية ، فهي أخلاط من ألفاظ هذه وتلك ، أخلاط قلما يكون فيها جمال . وهذا الصنيع بدوره يدل دلالة بينة على ما نقوله من أن نقراً من ناشئة القصصاّص لم يأخذوا فرصة النضج كاملة ، حتى في لغتهم ، فإنها لغة ناقصة غير تامة التكوين .

وقد يدافعون عن هذا الجانب بأن العامية أقدر على معالجة واقع حياتنا من الفصحى ، إذ تعكسه في دقة ، وبذلك لا تنشأ مفارقة بين أحداث الأقصوصة واللغة التي تصورها . والاحتجاج بأن ذلك من تمام الواقعية احتجاج واه ، لأن الواقعية الحققة إنما هي واقعية الأداء النفسي . ومعروف أن أحاسيس الناس في حياتهم اليومية أحاسيس ناقصة ، ومهمة القصصاّص أن يتم لها التعبير ويستكملة استكمالاً بحيث نقول إنه فعلاً ما يجري في نفس تلك الشخصية وفي أطوارها . وعلى نحو ما يستكمل القصصاّص أحاسيس الناس يستكمل لغتهم ، بحيث يرتفع بها عن ركافة العامية وضعفها في الصياغة ، وبحيث يحقق لها كل ما يستطيع من صور الجمال اللغوية ، حتى ينفذ إلى التأثير في نفوس قرائه فينفعلوا بها ويستجيبوا لها في مواقفهم من الحياة وفي إدراكهم للأشياء . وما لاريب فيه أن الفصحى تتفوق على العامية في قيمها الجمالية ، ومن ثم كانت في رأينا أكثر منها صلاحية لجميع فنوننا الأدبية ، أقصوصة أو غير أقصوصة ، إذ تتيح لها التعبير الفني الكامل الذي يغذى العقول والقلوب والأفئدة .

الأدب والخيالة

يلعب فن الخيالة « السينما » دوراً واسعاً في عصرنا ، فقد استطاعت نهضة الصناعة أن تستحدث هذا الفن ، فأطلقت الآلة ، وحرّكت بها الصور والمشاهد ، فإذا الأشخاص يتحركون ويمثلون أدواراً مسرحية جادة أو هزلية ، لا في حيز محدود ، بل في حيز واسع الأبعاد ، تتغير فيه الأزمنة والأماكن ، وتتوالى الحوادث ، وتتتابع اللقطات تتابعاً سريعاً .

وقد أقبل الناس على هذا الفن إقبالا منقطع النظير ، فراج رواجاً هائلاً ، وحقق أرباحاً مادية طائلة ، وكاد يقتل المسرح في بعض البيئات قتلاً ، ولكن أحقاً يتفوق هذا الفن على فن المسرح؟ وهل يقدم للأدب ما يقدمه له المسرح من فرصٍ لازدهاره ونهوضه ؟ . الواقع أن عوائق كثيرة تحول بينه وبين القيام بوظيفة المسرح وما أدّاه للأدب من خدمات ، فإنه يدور في أكثر أمره على العنصر البصري ، ويهدف إلى تسليّة الجمهور بتقديم المزيّنات والمشاهد . فالعالم المنظور عنده أهم من العالم المسموع ، بل لعل هذا العالم ، عالم الكلمة والكلام لا يتعنيه بمقدار ما تعنيه الصورة المتحركة وما يحيط بها من جو وإطار زخرفي ينقل إلينا فيهما مناظر الجبال والبحار والسماء والجزر وكل ما يتجسّر في خيال المخرج من مشاهد ومناظر في الطبيعة . ليست الغاية إذن في فن الخيالة المتعة الفنية الباقية ، وإنما الغاية تسليّة الجماهير بعرض صور تثير خيالها وتؤثر في أعصابها . فالصورة هي العنصر الأساسي فيه ، لا الكلمة ، فالكلمة تأتي تابعة ، كأنها تريد أن تتمّ هذا العنصر هي وما يصحبها من موسيقى . وفي ذلك مخالفة صريحة للتعبير الأدبي الذي ترابط فيه حقاً الألفاظ والصور ، ولكن لا كهذا الترابط الذي نراه في فن الخيالة ، بل ترابط تتألف فيه الصور من كلمات توحى بها ضروب المجاز والاستعارة ، وكأنها لوحات نراها بعين الخيال . إنها ليست مشاهد حقيقية ، فإن الصور في الأدب معان تنقل إلينا أحداث المجتمع ووقائع الحياة ، معان يذيب فيها الأديب أحاسيسه ومشاعره ، فيعبر عن خلجاته وخلجات الناس من حوله ، وقد يلتمح إليها ، ولكنها ترسم في أذهاننا مهما ترددت بين الإفصاح والكتمان .

وهذا الجانب في صُور التعبير الأدبي يتيح لها أن تتغلغل في أغوار النفس تغلغلا لا يستطيع المشاهد المرئي نقله . ومن ثمَّ كان فن الصور المتحركة يتعرَّض تعرُّاً واضحاً حين يحاول تحليل النفوس . لأن هذا التحليل يصعب تحويله إلى صور تُرى بالعين المجردة . ومهما وُضع على وجه الممثل في الخيالة من تعبير . فإن هذا التعبير يقصر عن تصوير الخلدات التي تضطرم في نفسه ، والتي يعبر عنها الأديب بتأملاته وخواطره .

ومعنى ذلك أن فن الخيالة لا يستطيع أن ينقل الفكر الإنساني في سياحاته النفسية وتأملاته المتعمقة في الصلات التي تصل الأحياء بعضهم ببعض كما تصلهم بالكون من حولهم . فهو ليس فن تأمل ولا فن تفكير ، وإنما هو فن تصوير سريع . فن استعراضي ، ليس فيه فرصة لتوقف ولا لتأمل ، فن يُراد به إلى التأثير في خِصَمٍ واسع من الجماهير التي لا يعنيا سوى التسلية القريبة ، عن طريق إثارة الأعصاب بأكلي لحوم البشر أو برعاة البقر أو بالقصص الغرامية وقصص الجاسوسية والجريمة أو بالحروب والأساطير الخرافية . وكل ذلك يتحرك في محيط يقترب بالصور ، محيط ليس فيه من غرض سوى التأثير في النفوس بالأشياء والمرئيات الغريبة التي نشاهدها .

وهي كلها صور حسية ليس فيها شيء من الصور الخيالية أو ما يمكن أن يستخلصه خيالنا من بعض المواقف . ولعله من أجل ذلك ألغيت في الخيالة فترات الاستراحة التي نعرفها في المسرح ، حيث يُسَدَّل الستار ، فيوحى لنا ذلك بأن حوادث وقعت في المسرحية أو ربما تكون قد وقعت . ويُرفَع الستار ، فنعرف أنه قد حدثت فعلا حوادث عن طريق ما يجري على ألسنة الممثلين من تلميح إليها ، تلميح بالكلام الذي يثير فينا الانفعال ، كأن نعرف أن شخصاً قُتل . وهو ما لا يستطيعه فن الصور المتحركة فإن تحركها المتعاقب يمنع أن تكون هناك أي فرصة للإيحاء أو للتلميح . وبدلاً من أن نعرف الخبر المؤلم على لسان ممثل نشهد إراقة الدماء ، كما نشهد ضربات الحنجر ، ووجه القاتل وعليه تقلصات الاحتضار .

وأين الأدب في هذا كله وأين كلماته ؟ إنها لم تعد أكثر من عناوين تضاف إلى الصور المتحركة ، فقد حلَّت الصورة مكان الكلمة ، وأصبحت الكلمة

تُلَحَقُ بها إلحاقاً، وكأننا لسنا بإزاء فن من فنون الكلام، إنما نحن بإزاء فن من فنون التصوير، فالمصور فيه هو الذى يبعث المعنى والمغزى، وكأنه أديب الصور المتحركة. ولكن من هو هذا الأديب بالضبط؟ إن الصور المتحركة التى يجمعها شريط تتعاون فيها أيد كثيرة، هى أيدى المصور ومهندس المناظر والممثل وواضع الحوار والشاعر والملحن ومساعدى فنيين مختلفين، فهى عمل جماعى، وكل أولئك يمضون فيه الساعات وقوفاً أمام آلات التصوير، ينتظرون إشارة من المخرج، الذى يصنع المشاهد، وينظم كل ما فيها من عمل للمصور وغير المصور. وانظر فى مطلع شريط لصور متحركة، فستعاقب أمامك أسماء من اشتركوا فى هذا العمل التعاونى الواسع وفى إخراجه وأدائه. على أن هناك كثيرين من صغار المساعدين الذين لا تلمع أسماءهم يُهْمَلُونَ إهمالاً.

وهو عمل لا عهد لنا به فى الأدب، فالأدب يقوم على الفردية أو الذاتية، وفيه يعبر الأديب عن حسه ويحاول جاهداً أن يكشف عن غوامض نفسه وغوامض عمله، بدون أن يتدخل أحد فى إرادته، إذ يأخذ الفرصة التى يريد بها كي يبرزه، وهو يُبرزه على النحو الذى يريده فى وحدة متناسقة متماسكة لا يعارضه فيها أى أحد. وهى وحدة تنبع من نفسه فتربط عمله برباط عضوى حيوى تنمو فيه فكرته الفنية نمواً حراً طبيعياً. فإذا لم تكفل له هذه الحرية أصبح عمله مفتعلاً، إذ تتدخل فيه عوامل خارجية تحول بينه وبين أن يتولد فيه تولداً سليماً. وهذه الحرية للأديب لا تُعرف فى مجال الصور المتحركة، فهناك المخرج الذى يتحكم فيه والذى كثيراً ما يطلب إليه أن يحذف أو يعدل فى حوارهِ حسب مشيئته، فهو لا يعمل مطلق الحرية، وإنما يعمل كما يريد له المخرج أن يعمل. حتى اختيار الموضوع قد لا يُترك له. فهو ليس له وجود ذاتى، إنما الوجود لعمل المخرج، وهو مسير فى فلكه وفى مقتضياته. ومثله الشاعر الذى ينتظر فى غرفة المراقبة ما يُطلب إليه من أشعار حسب المواقف. ومثلهما المصور والممثل. فليس هناك أحد له حرية، بل كل منهم ينتظر الأوامر التى يُصدرها المخرج، حتى يحقق له ما يطلبه، فهو ليس ملك نفسه، إنما هو ملك العمل الذى يجرى أداؤه.

ونفس المخرج ليس حراً يتصرف كما يريد، إذ هو مقيّد برغبات الجماهير

وبمحيط واسع من هذه الرغبات ، لسبب بسيط ، وهو أن عمله يدخل في نطاق السلع التجارية ، وهو يطلب لسلعته أن تروج لا في وطنه فحسب ، بل في كل وطن يمكن أن تصل إليه ، فوراءه المنتج أو الممول وقد يكون وراءه حملة أسهم ، فكل هؤلاء يشتركون في الإنتاج ، ويحرصون على أن يفوق إنتاجهم الإنتاج الدُّور الأخرى ، ومن ثمَّ يُراعون أو يراعى لهم المخرج ميل الجماهير لا للفن الأصيل ، وإنما للفن البراق الذى يحمل أكثر ما يمكن من مفاجآت ومثيرات شديدة .

وكل هذا يؤثر في فن الخيالة ، فهو فن سوق تجارى يُقصدُ به أولاً إلى الربح المادى ، لا إلى خدمة الأدب أو الفن من حيث هما أدب وفن . ومن أجل ذلك تُستغلُّ قوى الإثارة الخفية في المجتمع الإنسانى ، تستغل من ظاهرها ، أما الأعماق فتظل عسيرة المنال .

نحن إذن لسنا بإزاء عمل أدبى أو فنى يطوع فيه الأديب أو الفنان المادة لأدبه أو فنه ولما توحى إليه مشاعره وتُلهمه روحه ، إنما نحن بإزاء عمل جماعى يحرك فيه المخرج الأدباء والشعراء والفنانين والمصورين والممثلين بخيوط ، وكأنهم دُمى يحركهم على مسرح العرائس كما يشاء ويهوى . ونفس المخرج يتحرك بخيط آخر في يد المنتج المالك للآلات ، وهذا بدوره يتحرك في خيوط بأيدي الجماهير التى يقدم لها سلعته .

وكلُّ ذلك يضغط على أى شريط من أشرطة الصور المتحركة ، فأين نحن من العمل الأدبى الحر ؟ وأين نحن من التجربة الأدبية التى يحيا فيها الأديب ويعيش دون أن يساعده أى شيء خارجى عن محيط عمله سوى قلمه ، بل قلُّ أين الأديب وأين عمله ؟ إنه يقدم للمخرج الموضوع الذى يريد وما امتدَّ عليه من حوار ، وسرعان ما يأخذ في التبديل فيه والتغيير ، وقد يغيره ويبدله من أساسه ، حسب مشيئة المخرج ، وحسب ما يرى تبغاً لعمله الذى يتخيله .

ومعنى ذلك أن الحوار في الصور المتحركة لا يتشكل عملاً فنياً كاملاً قائماً بذاته ، بل يتشكل طبقاً لما يريد المخرج ، وطبقاً للمناظر والمشاهد التى يعبر عنها . وقرى بعيداً بين هذا الحوار والحوار الحر في مسرحية من المسارح ، ففي المسرحية يتطور الحوار من الداخل ، من داخل العمل المسرحى وضروراته ومن داخل الأديب وملكاته ، حتى إذا تمَّ قام أو نهض عملاً أدبياً متكاملًا ، فيه شخصية الأديب وذاتيته ،

وفيه مواهبه ، وفيه كل مكشقاته وتنقيباته في عالم النفس والحياة الإنسانية . وكثير من ذلك كله فقدده فقداناً تاماً في حوار الصور المتحركة ، لسبب بسيط وهو أن صياغة هذا الحوار لا يتصرف فيها الأديب حسب إرادته الفنية ، وإنما يتصرف حسب إرادة المخرج وما يراه مكملًا لعمله الكبير . إنه حوار تشتغل فيه أيدى ومواهب أخرى غير أيدى الأديب ومواهبه ، حوار لا يقوم بذاته ، بل هو جزء من كل ، جزء لا يمكن أن يستقل عن المجموع الذى وجد فيه . وهو لذلك لا يُكْتَبُ ليُقرأ . فقد كُتِبَ ليُسْمَعَ مع مناظر بعينها ، يكمل دلالتها . إنه حوار تمثيلي غير تام ، لم تُفسَحْ له الفرصة لكى يكون عملاً أدبيًا كاملاً ، وهو لذلك لا يُفْهَمُ إلا مع شريطه وخلال المراثيات التى اقترن بها . إنه حوار أدبي ناقص ، ينقصه أهم ما يمتاز به الحوار الأدبي من التسلسل المنطقي الداخلى الذى يجرى فيه ، ومن أجل ذلك كنا لا نستطيع المضى في قراءته . ونفس عباراته ناقصة الدلالة لا من حيث ارتباطها بالمناظر ، بل لأنها في ذاتها غير كاملة ، إذ هى تتألف من كلمات كأنها إشارات توضع فوق الصور المتحركة لتفهم دلالاتها من خلال الظلال والأضواء والألوان والمناظر المختلفة التى يلتقطها المصورون . وأكبر الظن أن هذا هو السبب الحقيقى فى أن أدباء الصور المتحركة الذين يصنعون موضوعها وحوارها لا يطّبعون أعمالهم ولا ينشرونها ، إذ يعرفون قبل غيرهم أنها لا تصلح للقراءة ، ومن هنا كنا نقول إنها أعمال وقتية أو أعمال زائلة ، فليس لها دوام الأدب ولا استقراره وثباته . وحقاً إنها تثبت وتستقر على أشربة ، ولكنها لا تستطيع الانفصال عنها والمعيشة خارجها ، فهى موقوتة بها ، ولا تستطيع الحياة بدونها ، ولذلك كانت تموت بموت الشريط ، ولا يبقى منها إلا ذكريات تتردد فى ذاكرة مَنْ شاهدوها ، حتى إذا بَعُدَ الزمن انطمست فى ذاكرتهم . وسرعان ما تنطمس لأنها لا تستطيع أن تعيش طويلاً ، فليس فيها أصالة التجارب الفنية الحية ، بل إن المخرجين ليقرّبونها منا حتى تغدو كأنها من تجارب حياتنا اليومية الزائلة ، وكأنما يُخْرِجون منها عوامل البقاء والدوام ، ومن ثمّ لا تكاد تثبت فى ذاكرتنا ، إنما هى فرصة للتسلية ، فرصة وقتية

وقد تُخْرِجُ بعضُ أشربة مسرحياتٍ أو قصصاً لأدباء كبار ، ولكنها دائماً

لا تستطيع أن تحافظ عليها ، إذ تلخصها وتُسقط من فصولها أو حوارها كثيراً من أحداثها المتشابكة ومن شخصياتها مما لا يستقيم والحركة التصويرية المطردة ، كما تسقط كثيراً من المعاني والأفكار التي لا تستطيع أن تُبرزها في منظر مرئي للعين . وقد تشبَّث بعض المخرجين في الغرب بإخراج روايات لشكسبير أو لغيره من كبار الروائيين والقصصيين . غير أن النجاح قلما رافقهم ، لما يُفْتَقَد في أشرطتهم التي يخرجونها من توالى المشاهد والمناظر الخلابَة وتعاقب المفاجآت المثيرة .

وفي ذلك دليل واضح على أن فن الصور المتحركة لا يستطيع النهوض بإخراج المسرحيات الخالدة ، ومرجع ذلك إلى أنه إن احتفظ لما بكل مقوماتها من قلة الحوادث وبساطة المناظر وطول الحوار بدت كأنها غريبة عن عالمه المتحرك المغمم بالمناظر والأحداث ، والذي لا تَجْرَى فيه الكلمات لذاتها ، وإنما تَجْرَى للدلالة على الصور التي تراءى فيها . وإن حاول أن يُخضعها له ويُجْرى فيها عمله اقتطع من مشاهدتها وحوارها ما يشوِّهها . وهذا هو الأسلوب المنتشر بين المخرجين ، وقد يضيفون إلى المسرحية من عندهم كلاماً ومشاهد ومناظر ، حتى يجعلوها صالحة لفهم والجمهور ، ولا تهملهم في أثناء ذلك وحدة العمل في أصله الروائي أو المسرحي ، وإنما يهتمون بنجاحه وإقبال الناس عليه وما يدخل إلى « شباك التذاكر » من مآل وفير .

وليس هذا كل ما تسببه ناحية الربح المادي في هذا الفن من قصور ، فإن إقبال الناس عليه جعل دوراً كثيرة تنتجه ، فإذا بنا في سيل هائل من إنتاجه ، وهو سيل من طبيعته أن لا يُعْطَى الزمن الكافي للاختار والإجادة ، فالسوق تطلب ، والممولون أو المنتجون يجمعون الفنانين من هنا وهناك ليصوغوا لهم أشرطة جديدة . وبذلك قلَّ فيه الابتكار ، وكثر التكرار ، إذ لا يظهر شريط ويحقق نجاحاً واسعاً ، حتى تتوالى أشرطة أخرى على أسلوبه . وكم من شريط نجح أُعيد عرضه من جديد ، عرضاً ليس أكثر من احتذاء على نماذج سابقة . وكل هذا سببه كثرة الطلب والعرض جميعاً ، فالسوق تطلب والمنتجون يُصدرون ويكثر إصدارهم . وفي زحمة هذا الإصدار تضعف العناصر الأدبية التي تدخل في العمل ، حتى لتندم القصة الحقيقية أو تكاد ، وخاصة في الأشرطة الاستعراضية الملونة ، فالمهم ليس القصة

ولا الحوادث ، وإنما المناظر الراقصة والموسيقى الشجية والنساء الفاتنات .

وللنساء في هذا الفن دور كبير فهن يُخْتَرْنَ من الجميلات اللاتي تصلح وجوههن للتعبير عن بعض الغرائز العامة في البشر، وقلما اهتم المخرجون بأن يكنَّ ممن يحسنَّ التمثيل وأداء الدور الذي يقمن به . ويلاحظ هذا في الممثلين أيضاً ، فالممثل قلما تجسّد فيه الدور الذي ينهض به ، وكأنه خيال أو صورة في الإطار العام ، مهما كانت له المكانة الأولى بين الصور . وربما كان هذا راجعاً إلى أنه لا يجد الوقت كفى يتطور ويتشكّل في أداء دوره ، على نحو ما يجد من ذلك في المسرح حيث يكرّر تمثيله لدوره ، وكلما مضى في تمثيله له مرة بعد مرة تجسّد فيه ، وعبر عنه في طلاقة . على أن الممثل إذا أصبح نجماً لامعاً من نجوم الصور المتحركة كان له أحد موقفين : إما أن يتجمد في أدوار تشبه دوره الذي نجح فيه ، وإما أن تتجدد الأدوار التي ينهض بها وهو تجدد كثيراً ما يصاحبه ارتفاع وهبوط في شخصيته التمثيلية ، فيرتفع تارة إلى الذروة ويهبط تارة أخرى إلى الحضيض .

ومعنى ذلك أن فن الصور المتحركة لا يساعد مساعدة حقيقية في تكوين شخصية الممثل ولا في تكوين عمل أدبي جدير بالبقاء . وليس معنى ذلك أننا ننزّري على هذا الفن أو نحط من قيمته ، فهو من غير شك فن عظيم ، ولكنه لا يزال يحتاج إلى خطوات كنى يتم نجاحه المنشود . ومن غير شك برع فيه كثير من المخرجين في الغرب والشرق ، فأخرجوا أشرطة ممتازة كما برع فيه كثير من الممثلين أمثال « شارلى شابلن » الذي يقف قمة شامخة في عالم الصور المتحركة سواء من حيث التمثيل أو الإخراج .

وكأنى بعمله معقيدُ الرجاء في أن تخطو الصور المتحركة إلى الغاية الفنية الرفيعة بحيث يصبح لكل شريط من أشرطةها فلسفة يسعى إلى إبرازها . ومعروف أنه هو الذي يضع قصة شريطه ، وأنه يظل سنوات يؤلفها ، مفكراً في فلسفتها وفي حوارها ، مصححاً تارة ، وجاذفاً أو مضيفاً تارة أخرى . حتى إذا انتهى من ذلك العمل اختار طائفة من الممثلين ومرّتهم على الأدوار التي يؤدونها ، وهو في أثناء ذلك يعدّل في قصته ويصحح . ثم يأخذ في وضع مناظر القصة ورسومها ويؤلف الموسيقى المناسبة لها . ويبدأ التمثيل ، فيشرف على

المصورين ويشير عليهم بما يرى فى الزوايا وفى الظلال والأضواء ، كما يشير على الموسيقيين بما يحقق دقة الأداء والعزف . وفى أثناء ذلك يتدخل فى كل حركة من حركات الممثلين وفى كل نبرة من نبرات أصواتهم . وبذلك يتكامل عمل الشريط ، فجميع أجزائه وعناصره يؤلفها شخص واحد هو الأديب والممثل والموسيقى والمصور والمخرج وهو المنتج أيضاً ، فليس هناك من يتحكم فى حريره ، وليس هناك أى شائبة خارجية تشوب عمله .

وفى رأى أنه حين يتوفر كثيرون من أمثال «شارلى شابلن» فى فن الخيالة فلا يكون العمل فيه جماعياً بل يعود فردياً كما هو شأن الفنون الجميلة جميعاً ينهض حقاً نهضة تحقق أحلامنا وأحلام الإنسانية المرجوة إذ تظهر فيه طبقة من داخله ، طبقة مرت عليه وعرفت ضروراته وحاجاته وكيف تجعل منه وحدة متماسكة . إنه من غير شك فن يحمل إمكانيات كثيرة، أما هذه العيوب التى قدمناها فإنها لا ترجع إلى جوهره فى ذاته ، وإنما ترجع إلى النظام الجماعى الذى يتحكم فيه ، والذى يشتت وحدته ، كما ترجع إلى الغايات التجارية التى تصاحبه ، فإذا تخلص من هذه وتلك أمكن أن يولد ميلاداً جديداً .

بين القصة والمسرحية

لعل أهم فارق يفرق بين القصة والمسرحية أن الأولى لا تفتقر إلى مسرح تستعين به في أدائها ، بينما تفتقر الثانية إلى مسرح يُبرزها ، فالمسرح مكمل لها ، ولا يمكن أن تنهض بدونه . ولا ينعنى ذلك أن المسرحية لا تُكتب قبل أن تمثل ، بل هي تكتب أولاً ، ثم تمثل ، ولكن كاتبها يلاحظ أنه يقوم بعمل مسرحي ، عمل يُسمعُ بينما يُرى ، عمل لا يسمعه شخص أو أشخاص قليلون ولا يراه نفر محدود من الناس ، وإنما يسمعه ويراه جمهور غفير من المتفرجين .

فالجمهور أساس في المسرحية ، إذ يجتمع أناس في مكان معين لرؤية فرقة من الممثلين يُجرى على ألسنتهم أحد المؤلفين أحداثاً مسببة مترابطة ، ولكل ممثل دوره فيها . وهو ما لا يحدث في القصة ، فكاتبها يجريها على لسان شخص معين ، ونحن نقرأها في أى مكان نشاء غير مقيدين بزمان . فليس في القصة اعتبارات لزمان ولا لمكان ولا لجمهور أو ممثلين ، وهي لذلك تُقَصُّ بأى شكل من الأشكال ، قد تُقَصُّ في شكل مذكرات أو يوميات أو اعترافات أو رحلات أو رسائل ، أما المسرحية فلا تُقَصُّ إلا بشكل واحد وفي قالب واحد ، هو قالب الحوار .

وكل ذلك من شأنه أن يقيّد حرية الكاتب المسرحي ، فهو لا يكتب كما يشاء ، بل هو مقيدٌ باعتبارات كثيرة تُردّ في مجموعها إلى أنه يؤدّي عملاً أدبيّاً مسرحيّاً ، يقدمه إلى جمهور من المتفرجين ، والمتفرجون والممثلون جميعاً لهم طاقة محدودة على الاستمرار في الفرجة والعمل . أما القصّاص فلا يتقيد بشيء خارج عمله ، ومن ثم كان يمكنه أن يطيل فيه إلى مئات من الصحف ، فليس هناك زمن يُفرضُ عليه ، بخلاف الكاتب المسرحي فإن زمنه محدود ، لأن الناس لا يستطيعون المكث مجتمعين أكثر من ثلاث ساعات . ونفس المثلين لا يستطيعون أن يمضوا في عملهم بإحسان إلى أكثر من هذه المدة ، وخاصة أن بعض الأدوار يطول زمنه عن الأدوار الأخرى . ومن هنا كان الكتّاب المسرحيون لا يدعون ممثلاً فوق المسرح طوال مدة التمثيل لمسرحياتهم ، فإن الممثل مهما أوتى من حيوية وقوة ونشاط لا يستطيع النهوض بهذا العمل دون أن يصيبه فتور أو ملل . فإذا لاحظنا أنه

سيقوم بنفس الدور في الليلة التالية ، بل في ليالٍ تالية متعاقبة ، عرفنا صعوبة عمله ، ولعله من أجل ذلك كان الكتّاب المسرحيون يقسمون مسرحياتهم إلى فصول تتخللها فترات للاستراحة ، يُسدّل فيها الستار ، لكي يستريح الممثلون من جهة والمتفرجون من جهة ثانية ، ويتناولوا بعض المرطبات .

وهذه الأشياء جميعها من شأنها أن تحدث في المسرحية ضرورات لا تعرفها القصة ، إذ لا يُقصدُ بها إلى تمثيل ولا إلى استثارة جمهور من المتفرجين وجذب انتباهه ، بحيث يتركز اهتمامه تركّزاً تامّاً لمدة قصيرة من الزمن . فالقِصَرُ أساس في المسرحية ، ومن ثم كانت لا تطول غالباً إلى أكثر من مائة صفحة ، أما القصة فقد تكون قصيرة وقد تكون طويلة طويلاً مسرفاً . والقصاص يتحدث كما يشاء ، أما الكاتب المسرحي فيتحدث عن طريق الممثلين بصورة لا تسمح للتطويل ولا للاستطراد ولا للتعليق على الحوادث والأشخاص .

وعمله مشترك بينه وبين الممثلين والجمهور ، عمل أساسه بل جوهره ولبّه التمثيل . وحقاً قد نجد مسرحيات ضعيفة من الوجهة التمثيلية قوية من الوجهة الأدبية ، كما قد نجد العكس . ولكن النوعين جميعاً ليسا هما العمل الأدبي المسرحي الكامل إلا أن يكون العيب ناشئاً من الممثلين أنفسهم ومن أن الفرقة التمثيلية التي نهضت بتمثيل المسرحية لا تستقن فن التمثيل ولا تعرفه معرفة دقيقة . على أن نهوض بعض الفرق التمثيلية الماهرة بتمثيل مسرحيات ضعيفة لا يُغنيها من أمرها شيئاً ، فإن نجاحها لا يدوم طويلاً ، بل سرعان ما تدخل في ظلال الفناء ، فتصبح وكأنها أضغاث أحلام .

ومعنى ذلك أنه لا بد للمسرحية ، لكي تبقى على الزمن ، من صفات تتيح لها هذا البقاء ، صفات في تكوينها وفي شخوصها ، ولا بد لها من عقدة تدور حولها أحداثها ، وينشأ منها موضوعها ، يحيط بذلك إطار من الحوار ، تصمّم فيه مواقف مختلفة تثير الجمهور وتجذب انتباهه . ويخلق الكاتب المسرحي في أثناء ذلك مناسبات لدخول الممثلين وخروجهم ، وهم طوال ظهورهم يتجاذبون أطراف الحوار البارع الرشيق .

نحن إذن بإزاء أدوار لممثلين يجري على ألسنتهم كلام ، كل كلمة فيه وكل

عبارة تجد صدق لها في الآذان والأفهام ، كلام مسرحي اختيار ليتطابق مع أدوار الممثلين ، وكأن بيد مؤلفه ميزاناً شديداً الحساسية ، فهو لا ينقص ولا يزيد في الحوار ولا يتدخل فيه أى تدخل ، بل يتجربى ، بحيث نشعر بارتباط أجزائه بالأدوار التى يؤديها الممثلون ارتباطاً تاماً واضحاً

فالكاتب المسرحي لا يقول كلاماً على لسانه ، وإنما يقول كلاماً على ألسنة ممثلين ، أو بعبارة أخرى يضع نفسه موضع طائفة منهم ، فهو تارة على لسان هذا الممثل وتارة على لسان ذاك . إنه يضع نفسه موضع فرقة بأكملها ، يتخيل ما يازم كل واحد من أفرادها من صنوف الكلمات بحيث يؤدي دوره أداء ناجحاً .

ولا تعرف القصة ولا يعرف القصص شيئاً من ذلك ، فليس وراءه ممثلون يمدُّهم بهذا النوع من الكلام المسرحي الذى يعتمد على الحوار والذى ينبغي أن يراعى فيه التلاؤم بين الممثل ودوره ثم بينه وبين الممثلين الآخرين ، كما ينبغي أن يراعى فيه التلاؤم بينه وبين ما يشغله من الساعات القلائل ومن يستمع إليه من الجمهور المحتشد . وكل ذلك يدفع الكاتب المسرحي دفعا إلى الاختيار الدقيق لموضوعه ولصورة حوارهِ وتربطه ترابطاً ، يترتب فيه كل جزء على ما قبله ترتباً محكماً .

إنه يصنع لوحة سريعة يلحظ فيها تحديد الزمن ، لوحة لها موضوع ، هو حكاية درامية ، ولا بد أن تكون الحكاية غنية ، بحيث تفيض بمواقف ومفاجآت بل بحيث ينشأ فيها صراع عنيف بين شخص أو بينهم وبين القدر أو أى حظ معاد . فلا بد من صراع بين قوى متضادة ولا بد من أزمة مستحكمة ، ولا بد من سلسلة من الصدمات والحزات تتفاوت معها حدة الانفعال في نفوس النظارة مع المشاهد المختلفة ، بحيث يملكهم تأثير شديد بسبب ما يفاجئون به من أشياء غير متوقعة ، إذ تتوالى صدمات عاطفية أو فكرية تشدُّهم شداً إلى المسرح وما عليه من تمثيل .

إن المسرحية عمل سريع حاسم ، عمل تتعاقب فيه المناظر من العرض إلى العقدة إلى الحل ، وتتعاقب المفاجآت والصدمات أو المواقف والأوضاع التى من شأنها أن تؤثر في الجمهور وتستفزّه ، وتُشبع فيه العواطف المختلفة عن طريق وحدة الحدث أو وحدة الأهمية . وهذه الحدة في المسرحية هي التى جعلت النقاد منذ أرسطو يتمسكون بفكرة ربط الأجزاء فيها ربطاً دقيقاً أو قل ربطاً متوتراً بواسطة

الأفكار والأقوال التي تجري على ألسنة الشخص ، وهي أقوال وأفكار عمادها الانتخاب ، حتى تصبح مسرحية أو صالحة للمسرح . إنها لا تُراد لذاتها ، وإنما تراد لإلقاء كل ما يمكن من ضوء على الشخص حتى تبرز بروزاً بيناً بما يحلوها من مصادفات ومن وقائع ومفاجآت .

فالمسرحية تقوم على الانتخاب والاختيار ، انتخاب الموضوع واختيار الأحداث والشخص التي تفسره . وكان الموضوع عند اليونانيين يُنتقى غالباً من الأساطير وانتقاه شكسبير غالباً من التاريخ أو من بعض القصص التي سبقته . وسواء كان الموضوع من الأساطير أو من التاريخ الحقيقي أو من القصص أو من الحياة الواقعة فلا بد فيه من صلاحيته للمسرح بمعنى أن يكون خليقاً بأن يثير اهتمام الجمهور عن طريق الشخص التي تمثله ، والتي ينبغي أن لا تكون شخصاً عادياً ، بل تكون شخصاً معقدة زاخرة بالانفعالات ، حتى يمكن صنع المفاجآت . وهي شخص تجرى في فلك عام ، هو فلك الموضوع أو فلك الأحداث والأقوال والأفعال

إننا بإزاء عرض حادّ سريع ، عرض مثير يستفز الجمهور ، ولذلك تكون المفاجأة عنصراً أساسياً فيه ، بخلاف القصة ، فلا يُطلب من القصاص أن يفاجئنا دائماً ، قد تأتي عنده المفاجأة ، ولكنها ليست شرطاً من شروط القصة لأنه يكتب في محيط أوسع ، ليس فيه تمثيل ولا جمهور يريد أن يصدمه بما لا يتوقع ، حتى يجلب انتباهه . ومن ثمّ يستطيع أن يمضي في تودة وأن يطيل كما يشاء ، فأمامه الصحف يستطيع أن يستنفد منها ما يريد ، يرسم قصته الطويلة ، التي تتسع لحوادث كثيرة . وليس معنى ذلك أنه لا توجد في القصة وحدة عضوية من شأنها أن تجعلها بناء متكامل ، بل الوحدة العضوية ضرورية فيها ضرورتها في المسرحية ، ولكنها تختلف فيهما ، فالوحدة في المسرحية وحدة سريعة متحفزة أو متوتبة ، أما في القصة فوحدة بطيئة مرنة ، تتيح للقصاص أن يتصرف فيها ، فإذا الأفكار تشعب ، وإذا الشخص تتعدد تعدداً لا يمكن أن ينهض به مسرح .

ومعنى ذلك أن المسرحية محدودة بزمان عرض قصير ، أما القصة فليس لها زمن محدود ، ويمكن القصص أن يتدخل فيها بالشرح والتفسير إذا دعت الضرورة ،

وقد يقف أمام منظر طبيعي فيصفه وصفاً مسهباً يُرْخى العنان فيه لخياله . فعنده من الحرية حظ بل حظوظ لا يحلم بها كاتب المسرحية المقيد بموضوع خاص وأحداث خاصة وحوار خاصن تتكشف في أثناؤه صفات الشخص ، حتى تلتقى مصيراً محدداً . والقصاص قد ينوع في مصير شخصه ، وقد ينوع في الأحداث ، فهو دائماً أكثر حرية من الكاتب المسرحي إذ لا يصطدم بعوائق تفرضها عليه ملاسات خاصة .

إننا في المسرحية إزاء شريط قصصي سريع تتطور فيه الشخصيات من خلال عرض وأحداث وأزمة وحل ، أما في القصة فنحن إزاء عمل كبير ، يتعمق فيه الكاتب أو القصاص ، وكأنه لا يصف حادثة بعينها أو موضوعاً بعينه ، وإنما يصور الحياة من خلال شخص لها أبعاد نفسية مختلفة .

وهذا ما لا يستطيعه الكاتب المسرحي فإنه مقيد بعمل خاص ، عمل لا يعرض فيه صور الحياة كما يشاء ، بل يعزل صورة بعينها ، ويُعِدُّها للتمثيل . فعمله قائم على العزل والانتقاء ، يعزل حقيقة من حقائق الحياة ويعرضها علينا مكبرة دون أن تتداخل معها حقائق أخرى ، فهو يعيش في حقيقة أو كأنه يعيش في تجربة ، تجربة محدودة يستخلصها لتؤثر فينا تأثيراً حاداً قوياً ، بما يصوغها فيه من قالب الحوار المتناسك .

ومعنى ذلك أن المسرحية لقطة أو لحظة بخلاف القصة فهي لقطات ولحظات ، أو بعبارة أخرى هي سلسلة أو سلاسل من الوقائع ، سلاسل تلتقي لتكون عملاً قصصياً طويلاً ، لا يُكْتَفَى فيه بجزء من الأجزاء . إنها ليست نبذة ، إنما هي كلٌ كبير ، إنها نهر زاخر فياض بالحياة واسع الرحاب والآفاق . وليس هناك أي شيء يدعو القصاص إلى السرعة أو التعجل ، فهو يتدفق كما يريد في غير انقطاع ، حتى يصل إلى نهاية قصته وتتجلى وحدة الأحداث بينة واضحة .

وفرق بعيد بين عالم المسرحية وعالم القصة ، فعالم المسرحية نفسه قصير ، سرعان ما ينتهي ، وهو عالم محدود بثلاث ساعات وبشخص لا يتكاثرون تكاثراً آمن شأنه أن يُشيع الاضطراب في التسلسل المسرحي ، عالم يحده إطار ضيق من الأحداث والشخص ، ولا مجال فيه لاستطراد أو لأحداث تأتي على الهامش ، أو لقصة فرعية ، أو لأي شيء يُحدث خللاً في منطقته .

فمنطقه حادّ حدة شديدة ، منطق يقوم على اختيار الشخص و اختيار المواقف والمفاجآت ، منطق لا يتسع في ملابسات ولا يفيض ذات اليمين وذات الشمال في التعاليق على الشخص والأحداث . ومن المعروف أن من حق القصص أن يسهب في الأوصاف والشروح التي يدمجها في نطاق الحدث العام لقصته . إنه يقدم الحياة كلها من جميع أطرافها ، فإذا قدّم لنا شخصاً كان من حقه أن يعرضه علينا بكل ظروفه وملابساته من حين مولده إلى حين الحوادث التي يقوم بدور فعال فيها . وهو كما يُسهب في تعريفنا بظروفه يسهب في دراسته واستبطان نفسه بدون أي عائق يحول بينه وبين ما يريد ، إذ يجمع لنا حياته وانفعالاته النفسية والاجتماعية نائراً تحليله وفلسفته وآراءه في المجتمع .

وتسمو القصة كلما تغلغت في دراسة الإنسان وواقعه وأكثر من عرض دخائله ودخائل الحياة . إنها تنقل لنا الحياة بأكملها بجليلها وتافهها وحوادثها الكبيرة والصغيرة ، فكلها مثار اهتمام للقصّاص ، لأنها جميعاً من ذرات الحياة . والحياة تتألف من الجليل والحقير والكبير والصغير ، لا فرق بين تافه وغير تافه ، فكلها تتحول في مخيلة القصّاص البارع إلى أشياء مهمة تثيرنا .

ولعله من أجل ذلك كانت القصة أكثر شعبية من المسرحية ، فالمسرحية ، وأقصد المأساة ، قطاع رفيع ظلّ طويلاً يستمد من الأساطير ومن التاريخ وحياة الملوك والأمراء ، ثم هبط من هذه السماء إلى حياة الشعوب . أما القصة فكانت في أول نشأتها نفس الحكايات الشعبية التي تسمر بها الشعوب ، ثم دخلت في مضمار الفنون الأدبية ، ولم يُخرجها ذلك من دوائر الشعب ، فهي فن شعبي ترقى على أيدي القصّاصين البارعين . أما المسرحية فنذ وُجدت أحيطت بهالة من السمو ، كانت شعراً ، ثم اتخذت النثر أداة لها ، ولكنها ظلت تحتفظ بقيم أدبية كثيرة .

والقصة لذلك أقرب إلى الشعب ، لأنها منه وإليه ، وقد استطاعت منذ القرن الماضي أن تصوّر حياة الشعوب تصويراً دقيقاً ، لما تمتاز به من قدرة واسعة على تمثيل اللقطات المختلفة لتلك الحياة . إنها مرآة مستوية كبيرة ، لا حدود لها ، وهي تدور هنا وهناك لتلتقط وتسجّل لا الحياة الظاهرة وحدها ، بل أيضاً الحياة الباطنة بكل مُنحنياتها ومكنوناتها . أما المسرحية فمرآة غير مستوية وهي لا تلتقط كل جوانب الحياة ، إنما تكتفي بواقعة معينة ، تمدّ فيها حواراً تبسطه على ألسنة مجموعة قليلة من

الشخص ، لا نراهم إلا في بضع ساعات ، وقد لا نراهم إلا في بضع دقائق من حياتهم ، وهي رؤية غير تامة . أما شخصيات القصة فنحن نراهم رؤية تامة ، يفصلها القصص ويُسهب فيها كما يشاء بدون أى تلميح أو إيحاء من طرف خفى . ويلعب التلميح والإيحاء في المسرحية دوراً واسعاً ، بسبب ما يقصد إليه الكاتب المسرحي من إثارة الانفعال في الجمهور ، ولذلك يعتمد إلى الإشارات، وتقلُّ عنده التفاصيل بينما تكثر في القصص ، بل لعلها إحدى سماتها البارزة التي تفرق بينها وبين التمثيل . ففي القصة يقال كل شيء بحذافيره ، أما في المسرحية فلا بد من إيحاءات في أثناء الحوار وبين الفصول ، تكمل القصة وتستولى على مشاعر الحاضرين ، وتملك عليهم ألبابهم ، بما تثير من تشوق للمتابعة واهتمام .

ولو قارنا بين مسرحية وقصة مقارنة دقيقة للاحتظا في الحال أن القصص يسير وتبدأ على هَوْن، أما الكاتب المسرحي فكأنما يقفز قفزاً ويثب وثباً سريعاً . فنحن عنده نتنقل بين قفزات ووثبات ، أما في القصة فكل شيء وكل كلمة وكل فقرة على طبيعتها فلا وثب ولا قفز ، إنما تسلسل وطيد محكم .

ولذلك ظاهرة واضحة في أسلوب الفنان ، فأسلوب القصة أسلوب مطنب ، يمكن أن نرى فيه جوانب متعددة من نفسية الشخصية على لسانها ولسان غيرها من الشخص ، وليس هناك أى مقتض لأن يقتصد القصص في عرض جوانب شخصه الأدبية ، بل لعل الاقتصاد يضرُّ به ، إذ يحول بينه وبين جَمْع كل الحقائق وكل الجزئيات . أما في المسرحية فالأسلوب ينبغى أن يكون موجزاً أشد ما يكون الإيجاز ، لما قلناه من أنها تعتمد على التركيز في الموضوع وفي الأحداث وفي الشخص والحوار . إنها عالم اللوح السريع ، ولا يضر عالمها شيءٌ كالتصريح المسرف والإسهاب المطنب ، لأنهما يعوقان الحركة المسرحية فيها ، وهي عمادها في عرض الأحداث ، وكل ما يعوقها يفسدها إفساداً لا صلاح لها بعده .

وعلى العكس القصة فإنها تقدم لقارئ، يقرأ ويتأمل ويستطلع ، وعنده من الوقت ما يكفيه لكي يلم بكل التفاصيل ، وهي تدعوه إلى أن يعرف الحياة ويفهمها ، ومن ثم تبسطها أمامه بكل شعبها وتفاريحها ، وهو يجذب في هذه التفاريح والشعب بُغْيته ، حتى يتم له الفهم ويتم له المعرفة . وشيء من انفعال العاطفة الشديد واستثارتها لا يكاد يلم به إلا في موقف

بعد موقف بعيد ، بل قد لا يلم بشئ من ذلك . أما المتفرج وخاصة في المسرحيات العاطفية فإنه يتحيا إلى ثلاث ساعات في عاصفة من هياج العاطفة وانفعالها . ولذلك كان يؤذيه التصريح المكشوف ، لأنه يخفف من حدة انفعاله ، بل قد يذهب به .

فالإيجاز خاصة الكتابة المسرحية بينا الإطناب خاصة الكتابة القصصية ، وهي خاصة تجعل القصة أقدر على نقل الحياة لأنها تستطيع أن تنقلها بجميع عناصرها ، وتفصيلها ، ولعلها من أجل ذلك كانت أقرب إلى نفوس الناس ، لأنها تصور لهم حياتهم تصويراً كاملاً ، تصورها بجميع ظواهرها وبواطنها أودخائلها . إنها لا تصور لهم — كما تصور المسرحية — حوادثها الجسام فحسب ، بل تصورها لهم بحوادثها الجسام وغير الجسام ، فالكل فيها سواء . إنها ترجمان الشعوب إذ ترى فيها واقعها بجميع قضاياها ومواقفها وأوضاعها كما ترى فيها صورتها بجميع قسماها وملاحظها . أما المسرحية فأقل منها شعبية ، وحقاً إن النقاد منذ أرسطو يطلبون فيها أن تطابق الحياة ولكنها تُثَقِّلُ بضرورات كثيرة من شأنها أن تجعل ملامستها للحياة تأتي في المرتبة الثانية بعد القصة ، إذ تقوم على الاختيار . كما تقوم غالباً على إثارة الانفعال بتصوير جزء من الحياة تصويراً سريعاً حاسماً . وهذه السرعة وهذا الإيجاز وما يقترن به من تلميح وتركيز لا يجري في الحياة العادية ، لأن الحياة مبسطة كالقصة وهي لا تحد بثلاث ساعات ، بل هي آحاد متطاولة ، لا ينطق فيها الناس بكلمات المسرحيات العنيفة الحادة حدة شديدة . والناس يتحاورون حقاً في حياتهم العادية ، ولكن لا كهذا الحوار اليقظ الذي نشاهده في المسرحية ، بل كثيراً ما يرسلون الحوار على غاربه ، وكأنهم في نصف وعيهم ، وقد يعتريهم الشرود والذهول ، وقد نحسُّ بضرب من الفراغ فيما يقولون ، وكل ذلك لا أثر له في الحوار المسرحي الحاد المتوثب الواعي السريع .

ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا إن المسرحية تقوم دائماً على الانتقاء ، وتحفظ لنفسها من أجل هذا الانتقاء بقيم فنية كثيرة ، لأنها إنما تصور جزءاً لا تصور كلاً ، ولأنها تعتمد على إثارة الجمهور ، ولأنها تُعْنَى بالتلميح الخاطف . وليس معنى ذلك أنها لا تمثل الحياة ، فهي تبغى ذلك وتنشده ولكنها لا تستطيع أن تحققه على نحو ما تحققه القصة . وكأنما للقصة قوة تجعلها تصور الشئ في

أوضاع متباينة: أما المسرحية فتختار وضعاً بذاته ، بالضبط كما يصنع الرسامون ، فهي بالقياس إلى القصة كلوحة الرسام الماهر . وكما أن لوحة الرسام تحاول أن تبرز لنا وضعاً في الطبيعة كما يقع في مخيلته ، أو كما ينبغي أن يكون ، كذلك المسرحية تصور لنا جزءاً من الحياة في الصورة التي ينبغي أن يكون عليها ، وكأن صاحبها يريد لهذا الجزء التمام والكمال بالضبط كما يريد الرسامون للوحاتهم .

ومعنى ذلك أن المسرحية لا تنقل الحياة غالباً نقلاً دقيقاً ، بخلاف القصة فإنها تستطيع أن تقترب منها قريباً شديداً . ومعروف أن الحياة في الفنون لا تمثل تمثيلاً تاماً ، وأنها تختلف قريباً وبعيداً منها ، ومن غير شك يقرب فن القصة من الحياة بأكثر مما يقرب فن المسرحية ، لأن القصص أكثر حرية ، ولأنه لا توجد عوائق تحول بينه وبين ما يريد من ذلك . إنه لا تُشقله ضرورات المسرح ولا ضرورات إثارة الجمهور ، وهو حقاً صاحب عدسة قوية تستطيع أن تكبر ما ترصده من حياة الناس أو تصغره ، ولكنها لا تخرج به عن حقيقته إلا قليلاً جداً ، وقد لا تخرج . أما عدسة الكاتب المسرحي فإنها تضغط ما تراه وتنظمه ، بحيث ترفع النظرة إلى ذروة الانفعال العاطفي بمشاهد متخيلة تجعلهم يقتنعون اقتناعاً بأنها مشاهد من الممكن أن تجرى في الحياة . مشاهد تجمع الأحداث كما تجمع البؤرة الضوء فتعكس منها ألوان الطيف . ومن هنا سبقت القصة المسرحية في تطبيق المذهب الواقعي ، لأنها أقدر على تمثيل الحياة ، إذ تقدمها لنا بكل أضوائها وأشعتها ، وقد تلون فيها ، ولكن تلويناً طفيفاً لا يباعد بينها وبين أصلها في واقعنا ، إذ تحتفظ بكل شخصيات الأصل وحقائقه وبواديه وخوافيه .

ونستطيع أن نلخص ما قلناه في أن الكاتب المسرحي مقيد بقيود المسرح وضروراته الكثيرة ، أما القصص فحرٌّ من كل قيد سوى فنه ، وليس هناك أي شيء يحول بينه وبين الانطلاق حسب إرادته الفنية . وليس معنى ذلك أن القصة تتقدم المسرحية في محيط الأدب ، فلكل منهما دورها وجلالها وخطرهما ، وإن من الخطأ أن تقدم إحداهما على الأخرى من الوجهة الأدبية الخالصة ، إنما نقول إن فن المسرحية أكثر صعوبة من فن القصة ، لأن الكاتب المسرحي ياتزم قواعد فنية كثيرة . ولأنه لا يقدم قصة فحسب ، وإنما يقدم قصة مسرحية معقدة .

الأسلوب القصصى

لكلمة الأسلوب القصصى معنيان ، معنى عام يشمل بناء القصة كله بجميع موادّه وعناصره ، ومعنى خاص يقف عند التعبير ووسائله اللغوية وخصائصه اللفظية . وقد مرّت القصة بأطوار تميزت فيها أساليبها واختلفت من طور إلى طور ، ونحن نستطيع أن نتبين أصولها في الملاحم وفي الأناشيد والتراويل الدينية والأقاصيص الشعبية المختلفة ، ولكل أمة من ذلك أطيافها التي احتفظت للعالم بها ، فعند اليونان نجد « الإلياذة » و « الأوديسا » وعند الرومان نجد « الإنيادة » وعند الهنود نجد « القيدا » و « المهاهاراتا » وعند الفرس نجد « الشاهنامه » . وتلك كلها ملاحم شعرية رائعة ، وبجانبها نجد قصص السمر الشعبي ، التي كُتبت نثراً ، كتلك القصص التي أثرت عن مصر الفرعونية مثل « مغامرات سنوحى » و « قصة حطام سفينة » و « حكاية الفلاح الساذج » . وقد نشأت بعد ذلك في عصر متأخر عند اليونان والرومان جميعاً قصص الرحلات والمخاطرات ، وأخرى على ألسنة الحيوانات كتبها إيسوب ، ولا ننسى « كليلة ودمنة » التي ترجع إلى أصل هندي .

ومضى في أوروبا زمن طويل طغت فيه قصص المخاطرات على كل فنون القصص ، وكانت تعتمد أكثر ما تعتمد على الخيال وما يُطوّى فيه من أساطير وجنٍّ ومرّدة وخوارق مختلفة ، ثم أعقبتها قصص الفروسية ، وانغمست تلك القصص في الخرافة وفي الحب ، وتمثلها ماحمة « أغنية رولان » المشهورة . ثم كان « دانتى » فألف « الكوميديا الإلهية » ولم يؤلفها باللاتينية ، وإنما ألفها بلغة شعبه الإيطالي الدارجة ، غير أن القصة دارت في مجال ديني شعبي . وجاء من بعده سرّفانتس الإسباني فألف قصته « دون كيخوته » وضمّنها من الواقع ما جعلها أول نموذج للقصة الحديثة ، وقد تلاها قصص كثيرة تصور المجتمع وتنقد العادات والتقاليد . وبذلك خرجت القصة من دور الخيال إلى دور الواقع المحسوس ، وأخذت منذ القرن السابع عشر تُعنى بتحليل العواطف والنفوس ، غير أنها لم تتخلص تماماً من حكايات المخاطرات . ولا نصل إلى القرن التاسع عشر حتى نجد لها معنى بطبقات المجتمع والفرد وحقوقه المهضومة . وتأخذ في النهوض نهضة رائعة في فرنسا وإنجلترا وروسيا وإسكتلندا ،

وكلما تقدمنا في القرن حقبة كلما تقدمت القصة خطوة ، فقد ظهرت أولا القصص الرومانسية الاجتماعية تحمل طابع العاطفة المتقدمة ، ثم ظهر بلزك في مجموعته القصصية الواقعية البديعة التي سماها « الكوميديا الإنسانية » . وخطا كتاب الروس بالقصة خطوات نحو تصوير الحياة البشرية . ولم تلبث القصة أن استوعبت الحياة بجميع صورها السعيدة والشقية ، وفسحت صدرها للقضايا الاجتماعية وللتنحليل النفسي ، بحيث غدت في عصرنا أهم فرع أدبي إنساني يجلو أعماق الحياة البشرية والأحوال النفسية الواعية وغير الواعية ، وكأنها دائرة معارف الإنسان ، فهي تجسم إحساسنا به وبمشاكله وظواهره وبواطنه منفرداً ومتقلباً في مجتمعه .

وأتاح لها هذه الطاقة التعبيرية الكاملة كتاب أفذاذ في الغرب ، نقيبوا بها في الإنسان ومجاهل حياته من حين ميلاده ودخوله في عالم الحقيقة الدنيوية وتفتح عينيه على هذا الكون العجيب إلى حين فنائه وانطفاء الحياة فيه ، باحثين في الفلك الذي يدور في محيطه ، فلك مجتمعه الصغير ، وفلك الوجود كله ، وما يعانيه في أثناء دورانه من ضروب صراع بينه وبين الحياة أو بينه وبين الفناء .

وفسح هؤلاء الكتاب في مجال التعبير مزوتة القوالب التي تملكها القصة ، إذ ليس لها قالب معين يتحكم فيها كقالب الحوار الذي يتحكم في المسرحية ، فن الممكن أن تصاغ في قالب رسائل أو في قالب مذكرات أو يوميات أو اعترافات أو رحلات أو في قالب سرد قصصي على لسان شاهد عيان . وقد يسردها أحد شخصوها ، وقد يسردها المؤلف نفسه . فليس هناك قالب معين يفرض على القصاص ، بل له أن يختار القالب الذي يريده . ثم هو في عرضها تام الحرية ، فقد يبدؤها من أول حوادثها ، ويمضي بالحوادث متسلسلا لها مع الزمن ، وقد يبدؤها بنجائتها ثم يأخذ في تجلية هذه الخاتمة وكيف تضاممت أحداث مختلفة انتهت بها تلك النهاية ، وقد يبدؤها بفترة معينة من حياة الشخصية الأساسية فيها ، ثم يعود إلى الماضي ليصور لنا كيف تمت هذه الفترة وما وقع فيها من أحداث . وهذا من حيث البدء والختام ، أما من حيث سياق القصة فهناك صور كثيرة ، منها أن يعنى القصاص بالحوادث قبل عنايته بالأشخاص ، فهي الأساس ، أما الأشخاص فيجرون فيها مع الأحداث ، سواء وقعت في رحلات أو مغامرات أو جرائم ، فالهمم الأحداث

وما تتشعب إليه من شعب ، تستفز القارئ وتستثير خياله وتدفعه إلى متابعة القراءة ، ولذلك كانت تعتمد اعتماداً على الأحداث المثيرة والحبكة المعقدة المتقنة . ومن صور القصة ما يدور حول شخصية أساسية تنهى إليها دائماً خيوطها . ومنها ما يدور حول طائفة من الشخصيات لا تعلو إحداها على الأخرى ، فليس فيها بطل بعينه يمسك بزمام الشخصيات الأخرى ولا بزمام الأحداث وحده ، بل تشاركه في ذلك بقية الشخصيات التي تحاول القصة تفسيرها وتوضيح معالمها . وقد تجعل لكل شخص دوراً يتفجر من طبيعته النفسية وما يحيط به من أحداث . ثم من القصص ما يتخذ مادته من الحاضر ومنها ما يتخذ مادته من التاريخ ، ومنها المحلى الذي يعنى بأحوال مجتمع معين وقضاياها ، ومنها الإنسانى الذى يعنى بلب الحياة البشرية وجوهرها ، ومنها النفسى الذى يعنى بالتحليل النفسى للشخص وما يتردد في أعماقها إزاء الأحداث من أصداء خفية .

ومن أجل هذا التنوع الواسع في القصة أصبحت أهم نوع أدبى في عصرنا ، لأنها تستطيع بصورها المختلفة أن تمثل الحياة وتجلوها في شتى وجوهها ، إذ لا يستعصى عليها أى خط من خطوطها . وإذا كان القصاصون قد نوعوا في طرق عرضها فإنهم عُنُوا أشد العناية بطريقة بنائها ، فلا بد أن تغدو كل قصة بناء متكاملاً ترابط وحداته ترابطاً عضوياً ، فهي ليست كلاماً من هنا وهناك يملأ فراغاً من الصحف ، وإنما هي عمل أدبى تام ، تراصت جزئياته فيه كما تراصت اللبنيات في البناء المحكم ، وقد يطول البناء حتى يصبح مجلدات

وشتان بين الملحمة القديمة والقصة الحديثة الممتازة ، فإن الأولى تبدو ساذجة شديدة السذاجة بالقياس إلى الثانية وما حققته لها الملكات الممتازة من روعة وإبداع ، فإذا هي عمل كبير بسطت فيه الحياة بجميع عناصرها الواقعية والإنسانية بل بجميع ذراتها النفسية والذهنية ، عمل توفرت عليه عبقرية العصر الحديث وأخذت تصقله بكل ما أوتيت من جلد وصبر وإخلاص وتقدير للفن وقيمه وكل ما تبغى من كمال في أرفع صورته ، وكأن في باطن كل قصصاً كبير نداءً يناديه : تريث ، حتى تبلغ الكمال في وصف الأفراد وصفاً صادقاً يفيض بالحياة . والناس يقرءون هذا الوصف : فيخلب ألبابهم ، ويُنْذَبُ عنهم الملل والسأم ، لما يجدون فيه من غذاء لعقولهم وقلوبهم .

غذاء يستمد من واقعهم وحياتهم ووجودهم .

ومما لا شك فيه أن القصة أقرب أنواع الأدب إلى واقعنا الاجتماعي ، وإنما نقول أقرب ، ولا نقول إنها نفس واقعنا ، لأن أي نوع في الأدب والفنون عامة مهما قرب من تصوير الواقع لا ينقله نقل آلات التصوير ، وإنما ينقله من خلال صاحبه ، وكما تراءى في مخيلته . فالقصص مهمما كان واقعياً لا ينقل الواقع طبق الأصل ، وإنما يحذف ويضيف فيه حسب إرادته الفنية ، ولذلك كانت القصص تختلف من قصص إلى قصص ، لأن كل قصص يضيف قدرته ويضيق على من يصفهم غير قليل من ومضات شعوره وتفكيره .

وحقا إن مادة القصة هي المجتمع وواقعه غير أنها تنتظر القصص البارع كي يصوغها في صور بشرية ثابتة . والقصصاؤون كثيرون ، ولكن الذي يخلد منهم هو الذي يستطيع أن يتغلغل في أعماق الأفراد وينفذ إلى كياناتهم الداخلى وما يرسب فيه من جواهر باقية على الأبد . أما من يقف عند السطح من المواقف والقضايا الاجتماعية فإن عمله لا يبقى طويلا لأنه لا ينفذ فيه إلى الحقائق الإنسانية الخالدة .

ومعنى ذلك أن القصة ينبغي أن لا يكون غرضها التسلية والمتعة السريعة الزائلة ، وإنما الوصول أو النفوذ من خلال الوعي الكامل بالمجتمع إلى الحقائق الإنسانية ، بل إلى جذور هذه الحقائق ودفائها ومكنوناتها . على أن سهولة القصة الظاهرة والإيمان بأنها ليست أكثر من سرّد قصصى جعلها قصصاً ضعيفة كثيرة تسقط في مجالها ، والقصة من حيث هي دفن ليست مسئولة عن هذا الفيض أو السيل المترامى ، فهو ليس أكثر من زبد سرعان ما يذهب جفاء ، وتبقى الدرر اللامعة .

وإنما نقول ذلك لنؤكد أن القصة من أروع أنواع الأدب ، وأنها ليست كلاً مباحاً يغدو فيه ويروح كل من اقتدر على السرّد القصصى ، بل لابد للقصصا ص من تسلّح بأدوات كثيرة مردّها إلى التعمق في الحياة الإنسانية . أما الظن بأنها عمل سهل وأنها ليست أكثر من عرض سطحي لجوانب من حياتنا اليومية الجارية فإن ذلك من شأنه أن يخرجها عن أن تكون فناً ، وأن يتناولها كل من يريد أن يختصر الطريق لإنتاج عمل أدبى سهل . إنها فن ، له قيمه الفنية الرفيعة ، سواء من حيث رسم الشخص أو من حيث التكوين العام للأحداث والمواقف . وهو فن

يستقى من الحياة اليومية الجارية حقاً، ولكنه يحيل ما يستقيه إلى أشياء ثابتة، أشياء فيها روح الشمول التي لا تزول. ومن هنا تأتي صعوبتها فهي ليست سرداً قصصياً كما قد يبدو، وإنما هي خَلْق وضبط وإحكام ودأب في أن يبت القصاص في قصته ما يجعلها خليقة بالبقاء، وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا توفر جاهداً على عمله، محاولاً أن يسبر من خلال مجتمعه أغوار الحياة الإنسانية ويكشف عن جواهرها الدفينة، ناقلًا عالم حياتنا العادية الزائلة إلى عالم باق. ونحن نقرؤه فنحس أن الأحداث والشخص لا ليست غريبة عنا ولا بمعزل منا، ومع ذلك فيها من العناصر الشاملة ما يجعل الناس يحسون أنها منهم، وليست منفصلة عنهم ولا عن حياتهم.

وإذن فليس بصحيح أن القصة تنقل إلينا الحياة كما هي، هي تحاول نقلها ولكن إلى أفق واسع، وباتساعه تأخذ قيمتها، ويأخذ القصاص صفاته القصصية البارعة، بحيث تصبح له طوابعه المستقلة التي يتميز بها كما يتميز كل منا بملاحظته وقسماته وجهه المستقلة.

وإذا كانت الملحمة الشعرية، تميزت ببراعتها التي جابت بها آفاق العالم، فإن القصة هي الأخرى لها براعتها، بل إنها تتقدمها درجات إذ تجعل من واقع الحياة العادية شيئاً غير مألوف شيئاً يسترعى اهتمامنا ويخلب ألبابنا، فنقول إنها الواقع، ونقول إنها تستخلص من الواقع ما يشبه الأريج العطير الذي يستهوى بشداه الناس، فإذا هم يستريحون إليه، وإذا هم يرون فيه صورة حياتهم. والقصاص البارع يعرف كيف يؤلف من هذا الواقع عملاً يبهنا بكماله، وما يسلط عليه من أضواء عقله الساطعة. ولكل قصاص أضواءه، أو قل لكل قصاص شخصيته التي تزخر بها قصصه، فنقول إنها من صنعه وعمل ذات يده، كما نقول إنها من نفس نسيج حياتنا التي نحياها، ففيها ما نألفه، ولكنه قد ركز كما تركز العطور.

وهو تركيز لا يخرج أو يجب أن لا يخرج بالقصة عن صورة حياتنا، فكل شخص وكل شيء يحيا حياته الحقيقية، ولا استكراه في أي جانب من جوانب القصة لفكرة أو لحادثة أو لعاطفة أو لموقف، فكل ما فيها يوجد وجوداً طبيعياً، سواء تولد أو نما وتطور، وسواء وقف أو تحرك. ومن أهم ما يحفظ للقصة

كيانها أن لا يوجد فيها أى ضرب من ضروب التكلف لفلسفة أو لوعظ خلقي .
وحقاً قد يوجد ذلك ولكن بشرط أن ينمو من داخلها بحيث لا نتبين للقصاص
أى أثر شخصي فيه بشرح أو تعليق على الحوادث ، بل الحوادث تمضي بنفسها ،
تحمل فلسفة أو وعظاً ، وقد لا تحمل : لأنه لا توجد مسوغات لذلك .

وهذه كلها — بلا شك — صعوبات في فن القصة ، فهو ليس كما يُظنُّ فناً حراً
تام الحرية ، بل هو فن يَطْوِي في داخله غير قليل من القيود ، قيود في البناء
والتصميم وقيود في رسم الشخص والأحداث ، وقيود في الظروف والملايسات التي
تضطرب فيها تلك الأحداث والشخص ، بحيث يُحْتَفَظُ لها بمجال طبيعي واجتماعي
واضح . ثم قيود في الخصائص اللفظية والوسائل التعبيرية .

وكما أن لكل قصاص بناءه القصصي وطابعه المتميزة كذلك لكل قصاص
وسائله التعبيرية ، وحقاً إنه يستخدم نفس الألفاظ التي يستخدمها غيره من
القصاصين ولكنه يصوغها صياغة جديدة ، فيها شخصيته وروح عصره . وما أشبه
الألفاظ في أيدي القصاصين بالألوان في أيدي الرسامين ، فلكل رسام ألوانه ،
ولكل رسام طريقته فيما يقيم من توافق أو صراع بين الظلال والأضواء ، ولكنها
تنهى إلى تأليف رسمه داخل لوحته بشكله الخاص ، فتميزه ونقول هذه اللوحة من
عمل فلان أو فلان . وكذلك الشأن في المادة اللغوية التي يستخدمها القصاصون
فإنها تنهى عندهم إلى لوحات قصصية لها أصالتها الواضحة البينة .

وهذا لا يجري في القصة وحدها ، بل يجري في أنواع الأدب كلها ، ففي الشعر
مثلاً نستطيع أن نميز بوضوح بين أساليب أبي نواس والبحتري وأبي تمام والمتنبي ،
وفي النثر نستطيع أن نميز تمييزاً واضحاً بين أساليب ابن المقفع والجاحظ وابن العميد
والحريري . كذلك شأن القصاصين البارعين ، ينبغي أن يكون لكل قصاص أسلوبه
الذي يميزه ويفرقه من القصاصين الآخرين .

واقصاص لا يستطيع أن يكون أسلوبه الخاص بمجرد أن يمسك بقلمه ، بل
لابد له من مران طويل ، حتى يصبح له أسلوب متميز ، أسلوب مرن يستطيع به
أن يؤدي خيوط تفكيره وأحاسيسه ، بل أدق ما يمكن من هذه الخيوط والأحاسيس ،
بحيث تقوم لها طوابع تميزه بها ، وشارات تدل عليه دلالة لا يشاركه فيها سواه .

وحقاً إن القصة كما قلنا أقرب فنون الأدب إلى الشعب ، ولكن ليس معنى ذلك أنها لا تحتفظ لنفسها بخصائص الفن ، فهي إن لم تحتفظ بتلك الخصائص لم تَعُدْ فنّاً ، بل غدت صناعة عادية ، قد تروج ، ولكن رواجها لا يدفع ضعفها الفني ولا يرفع من قيمتها الأدبية .

وليس معنى ذلك أننا نريد من قصصنا المعاصر أن يعود بنا إلى أزياء السجع البالية فإنها لم تعد تلائمنا ، وأيضاً هي لا تلائم القصة الطويلة التي ينبغي أن لا نشعر بأنها تخالف المؤلف من حياتنا مخالفة صارخة . إن كل شيء فيها ينبغي أن يقربنا من الواقع المحسوس ولا يسبح بنا في عالم الوهم البعيد ، فإن سَبَحَ بوساطة الألفاظ نفرنا منه نفوراً شديداً .

فنحن لا نريد الارتفاع بأسلوب القصة ، حتى يصبح شيئاً شاذاً على أذواقنا ، وإنما نريد الارتفاع القريب على نحو ما ترتفع القصة في رسم أحداثها وشخصياتها ارتفاعاً لا يفقدها قربها ولا واقعيتها ولا لمسها للحياة اليومية الجارية وقضاياها المختلفة . ومن ثم كان ينبغي أن يكون أسلوبها مرناً طيباً شفافاً ، وليس فيه شيء من نبات اللغة الوحشي أو الشاذ .. أسلوب فيه خفة ورشاقة ، وفيه حيوية خفّاقة ، أسلوب يتميز به القصّاصون ، كما يتميز الموسيقيون بألحانهم ، فلكل موسيقار لحنه وقطعه الخاصة ، مع أنها من نفس الألحان العامة ، ولكن له فيها إيقاعه المميز . ودائماً كلما وُجد فن أو عمل في كامل وُجد فيه هذا الإيقاع ، فهو اللحن المستر في التمثال وفي اللوحة المصورة وفي القصيدة وفي المسرحية ، بل هو لحن غير مستر في الأدب بأنواعه ، لأن مادته الألفاظ ، وهي تتألف من أصوات وألحان .

إن القصّاص كغيره من الأدباء يعبر في مجموعات من الألفاظ والتوجيهات الصوتية عن أحاسيسه وأفكاره بطريقة غير مباشرة من خلال شخصيه الأدبية ، وينبغي أن يكون لهذه المجموعات جمالها الصوتي الذي ينبع من نفسه ويتفجر من قدرته في الضرب بأصابعه على أوتار اللغة ، وأن يدلّ دائماً على أنه يحسن العزف على قيثارتها عزفاً بارعاً . ونحن لا نريد أن يتعبّد عزفاً قديماً ، وإنما نريد له عزفاً جديداً يتخلص فيه من العزف العتيق ، كما يتخلص كبار الموسيقيين من نغم سابقهم ، مع أنهم يتخلّقون في هذا النغم ، ولكنهم لا يلبثون أن ينفصلوا عنه حين

يتبينون أنفسهم ، فإذا لم نغمهم ولم عزفهم المحمل بالألحان الجديدة التي تعبر عن شخصيتهم وروح عصرهم بما فيها من مكونات وتلونات رائعة .

ومعنى ذلك أنه لا بد للقصاص أن يتمرن على الوسائل اللغوية السابقة حتى يبتدع لنفسه أسلوباً جديداً ، يعشقه قارئه ويصّبون إليه ، أسلوباً ليس فيه أى نتوء ، وإنما فيه الطواعية والمرونة والوضوح ، أسلوباً لا يصل إليه إلا بعد جهد جهيد ، ومع ذلك يقرؤه قارئه فلا يحس أثراً بل جهد ، لأن الجهد مطوى فيه . وهو جهد لا تستطيع علوم النحو واللغة أن تهيه لدارسها ، وإنما يوهب للأفذاذ من الكتاب ، عن طريق التمرين الواسع والسليقة التي يكتسبونها في لغاتهم . ولا تتولد هذه السليقة إلا بضغط شديد من التدريب من جهة ومن إرادة القصاص من جهة أخرى ، فإذا له موسيقاه اللغوية الخاصة ، وإذا نحن نحس أنها من عمله ومن صنعه بالضبط كما نحس أن ألحان الموسيقى في قطعة فذة ملك له ، وأنها تعبر عن كل ما يجرى على أمواج تفكيره وشعوره من حركات عقلية وذهنية .

وقد يقال إن هذا تصعيب في أسلوب القصة لا داعي له ، وخاصة إذا عرفنا أنه يُقصدُ بها إلى عمل أدبي شعبي المضمون ، والشعوب لا تعرف التأنيق ولا الجمال الأسلوبى ، وحسب القصاص أن يعبر عن قصته في وضوح ، بل لعل من الواجب أن يهبط بها إلى أساليب الشعب اليومية ، حتى يلائم بينها وبين قرائها . وقد يبدو أن هذا القول يتمشى مع منطق القصة ، ولكن إذا أنعمنا النظر تبين لنا بطلانه لما قلناه مراراً من أن القصة فن وأنها ككل فن لا تمثل الواقع تماماً ، حقاً هي أقرب الفنون الأدبية إلى تمثيل الواقع ، ولكن لا يعنى هذا أبداً أن مهمتها أن تنقله على نحو ما تنقله آلات التصوير ، إنها تنقله بعد أن تدخل عليه ضرباً من الحذف والإضافة أو قل بعد أن تفرض عليه إرادة القصاص الفنية .

ولو أن القصاص نقل الواقع المحسوس نقلاً مطابقاً تمام المطابقة للأصل لأصبح كأنه حامل بريد ، فهو لا يضيف شيئاً إلى ما يحمله . وكما أنه لا يقف عند الواقع الملموس ، بل يتغلغل فيما وراء هذا الواقع من حقائق نفسية وإنسانية ، فإنه كذلك حين يُنطق شخصاً بكلام لا يأتي أولاً يمكن أن يأتي بنفس الكلام الذي يصدر منه في الخارج ، إذ ليس له وجود حقيقى في الخارج ، إنه شخص من

صُنْعُهُ يُجْرَى عَلَى لِسَانِهِ كَلَاماً يُمْكِنُ أَنْ يَنْطِقَ بِهِ ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي أَفْعَالِهِ إِنَّمَا يَجْعَلُهُ يَفْعَلُ مَا يَتَصَوَّرُ صِدْقَهُ عَنْهُ فِي الْحَيَاةِ الْجَارِيَةِ . وَكُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ فَعَلًا ، وَالْبَرَاةُ إِنَّمَا هِيَ فِي أَنَا حِينَ نَسْمَعُ هَذَا الشَّخْصَ وَنَبْصُرُهُ لَا نَنْكُرُهُ ، بَلْ نَظْنُهُ شَخْصًا حَقِيقِيًّا مِنْ أَشْخَاصِ حَيَاتِنَا الْوَاقِعِيَّةِ

وَالْحَقُّ أَنَّ التَّشْبِيْثَ فِي الْقِصَّةِ بِفِكْرَةِ الْوَاقِعِ إِلَى حَدِّ أَنْ تَقْسِدَ لُغَتُهَا بِإِدْخَالِ الْكَلِمَاتِ وَالصِّيْغِ الْعَامِيَةِ تَشْبِيْثٌ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَفْقِدَهَا رَوْعَتُهَا الْأَدْبِيَّةُ . وَيَنْبَغِي أَنْ نَحْتَفِظَ لَهَا بِقِيَمِ هَذِهِ الرُّوْعَةِ وَأَنْ يَمْرُنَ الْقِصَصَاصُ الْمُمْتَازُ فَصَحَانًا عَلَى أَدَاءِ مَا يَظُنُّ أَنَّ الْعَامِيَّةَ تَسْبِقُهَا فِيهِ أَوْ فِي أَدَائِهِ . وَالْوَاقِعِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ لَيْسَتْ فِي الْأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْمَضْمُونِ أَوْ فِي الْقَضَايَا وَالْأَوْضَاعِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَحْسُنَ أَدَاءُهَا الْقِصَصَاصُ وَالَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ أَنْ يَعْبُرُوا عَنْهَا عَلَى نَحْوِ مَا يَعْبُرُ عَنْهَا فِي قِصَّتِهِ . وَنَحْنُ لَا نَرِيدُ مِنْهُ التَّعْبِيرَ فَحَسْبَ ، وَإِنَّمَا نَرِيدُ تَعْبِيرًا جَمِيلًا ، لَهُ إِيقَاعُهُ الْمَوْسِيقِيُّ الَّذِي يَتَمَيِّزُ بِهِ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُ مِنْ قِصَصٍ ، هَذَا الْإِيْقَاعُ الَّذِي تَسْقُطُ نَغْمَاتُهُ مِنْ نَفْسِهِ ، فَتَسْتَوِي عَلَى النُّفُوسِ وَتَأْسِرُ الْأَلْبَابَ وَالْعُقُولَ .

الأسلوب المسرحي

أسبق الأمم إلى النهوض بفن المسرحية بتقاليده التامة هم اليونان ، فقد أرسوا قواعده الراسخة منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، أرساها إيسخولوس وسوفوكليس ويوريبيد ، وعندهم بلغت المأساة كمالها ، أما الملهاة فقد أظهر فيها أريستوفان تفوقاً ونبوغاً . وإذا كانت المأساة اعتمدت في أكثر أمرها على الأساطير وأقاصيص الآلهة فإن الملهاة اعتمدت على مشكلات الحياة ونقد المجتمع وتصويره . وقد تخلصت تخلصاً تاماً من الأحداث غير الواقعية عند «ميناندر» في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد وأوائل الثالث ، إذ استبعد منها الخوارق وجعل موضوعها حياة الناس الجارية وسلوكهم وعبوبهم الاجتماعية

ونخلف الرومان اليونان ، فتقيدوا بنماذجهم المسرحية ، واتخذوها مثلهم الأعلى فلم ينحرفوا عن صورها وقواعدها الإغريقية يميناً ولا شمالاً ، بل تمسكوا بها تمسكاً شديداً . وازدهر عندهم فن الملهاة ، أما فن المأساة فلم يضيفوا إليه جديداً ذا قيمة . ثم كانت العصور الوسطى فاخنت المسرح الوثني الروماني واليوناني بتقاليده ومصطلحاته ، وحل محله مسرح ديني ضعيف مُثِّل عليه مسرحيات هزيلة ، ليس لها صبغة أدبية حقيقية ، وكانت تمثّل غالباً في ساحات الكنائس ، وقلما تجاوزت حياة القديسين

ثم بزغ عصر النهضة واقرن منذ بزوغه بحماسة شديدة لإحياء التراث اليوناني والروماني وترجمته إلى اللغات الأوربية الحديثة ، فعرف الأوربيون المحدثون الأدب المسرحي القديم ، ولم يكادوا يطّلعون عليه حتى نبذوا أدبهم المسرحي الوسيط ، وانطلقوا يحاكون اليونان والرومان ، فألفوا مآسي وملاهي بلغاتهم الدارجة مثلوها على مسارح يختلط فيها الطراز اليوناني والروماني بطراز العصور الوسطى .

ونشطت حركة أدبية نقدية واسعة في إيطاليا كانت تقوم على محاكاة النماذج المسرحية العتيقة وبيان قواعدها والاحتذاء طبق الأصل على مثلها الرفيعة وما فهم النقاد من قوانينها كقانون الوحدات الثلاث : وحدة الزمان والمكان والموضوع . وقادت إيطاليا فرنسا في هذا الاتجاه ، ولعل ذلك ما جعلها أحرص من بلد

كإنجلترا على تطبيق القواعد والتقاليد المسرحية ، وخاصة في العصر الكلاسيكي .
 وحققا استبدلوا في هذا العصر إرادة الآلهة المتعددة بحقائق النفس البشرية ، ولكنهم
 ظلوا يستمدون في المأساة من التاريخ ومن الأساطير القديمة ، وارتفعوا بها عن حياة
 الناس العادية ، فعُسنوا بالطبقة الرفيعة حينئذ من الملوك والأمراء ، أما الملهاة
 فاستمدت موضوعاتها وشخصياتها من حياة الشعب وأفراده . وبينما كانت المأساة
 تحتفظ بلغة الشعر الرفيعة كانت الملهاة تقترب من اللغة اليومية ، ويتبين ذلك
 بالمقارنة بين راسين وموليير ، فعند الأول نجد الشعر في أبلغ صورته ، أما عند مولير
 فقد نجده يعدل إلى النثر ، وقد يستخدم الشعر ولكن بروح نثرية تشيع فيه ،
 روح يحاول بها مولير أن يقترب غالباً من حياة الناس التي يمثلها ويجريها على
 ألسنة شخصه ، فلغته من نفس لغتهم لولا ما صيغت فيه من نظم وشعر .

وكان من أهم ما تواضع عليه أصحاب التزعة الكلاسيكية في العصر الحديث
 أن يُسقطوا من المسرحية الأجزاء الغنائية التي كانت تنهض بها الحقوة في زمن اليونان
 والتي كانت تتخلل الفصول ، وكانت تصحب بالرقص والموسيقى ، وقد جعلها إيسخولوس
 عنصراً مهماً في مآسيه ، فهي تتداخل في بنائها ، بينما نحأها سوفوكليس
 ويوريبيد عن موضوع مآسيهما ، وإن ظلا يحتفظان بها . ولا كان عصر النهضة
 رأى بعض الشعراء أن ينشئوا نوعاً جديداً من المسرحيات ويجعلوه فناً موسيقياً
 مستقلاً هو فن « الأوبرا » الذي يُعنى بالغناء قبل كل شيء ، ويساق فيه حوار
 تمثيلي ولكن لخدمة هذا الغناء ، فالغناء وما يرتبط به من موسيقى هما جوهر هذا
 الفن الجديد

ومهما يكن فقد تخلصت المسرحية من الأجزاء الغنائية ، وأصبحت تعتمد على
 الحوار التمثيلي الخالص . وليس هذا كل ما تمسك به أصحاب المترع الكلاسيكي
 في فرنسا فقد التزموا في مسرحياتهم أن تتقيد بقانون الوحدات الثلاث ،
 وأقاموا حاجزاً قوياً بين فني المأساة والملهاة ، فالأولى لتمثيل حياة الطبقة الرفيعة ،
 وهي حياة كلها جد وجلال بينما تمثل الملهاة حياة الشعب . ولا يصح بحال
 أن يُمزجَ بين النوعين المتباينين أو أن تتسرب خيوط من فكاهة الملهاة إلى
 فجاعة المأساة التي عُنوا بلغتها عناية شديدة ، كما عُنوا بنظمها ، فكانوا ينظمونها من

الشعر الملقى تقفية متعانقة أو متقابلة على نحو ما هو معروف عن راسين وأضرابه .
غير أن نمو الحركات الفكرية في القرن الثامن عشر وما ألقاه الفلاسفة من
ظلال شك على الفكر اليوناني القديم وما حدث من ظهور طبقة وسطى بين الشعب
وبين الأمراء والنبلاء ، وهى طبقة التجار والصناع والموظفين والمفكرين ، كل ذلك
أعدّ لتطور المأساة ، حتى تصوّر حياة هذه الطبقة الجديدة ، كما أعد للتفكير
في خطأ هذه الحواجز الصناعية التى أقيمت بين المأساة والملهاة بحيث لا تلتقيان ،
فالحياة في نسيجها العام يختلط فيها المفجع بالمضحك . وكان شكسبير قد سبق
في مآسيه إلى المزج بين عنصرى الحزن والسرور ، ونجح في هذا المزج نجاحاً
منقطع النظير ، فاعتمد عليه النقاد في تبرير وجهة نظرهم محتكمين إلى دنيا الواقع
وأن السرور يجرى فيها مختلطاً بالحزن ، وعلى الشاعر الممثل أن يؤدى لنا الحياة كما هى
في واقعها الصحيح الذى يتعاقب فيه السارّ والحزن ، لأن يسوق متفرجيه في حياة
جادة حادة صارمة كلها فجيرة وألم مطبق . وأيد الرومانسيون هؤلاء النقاد في ثورتهم
على المنزع الكلاسيكى ، ففسحوا للسخرية والمضحك في مآسيهم .

والحق أن البكاء والمضحك لا يتعارضان تعارضاً شديداً كما كان يظن الكلاسيكيون ،
ولذلك كنا نجد غير شاعر من شعراء التمثيل يبرع في فنى المأساة والملهاة جميعاً
على نحو ما نجد عند شكسبير في مآسيه وملاهيهِ . وما لاشك فيه أن الإنسان يتنقل
بينهما في سهولة ، وخاصة إذا بلغ به الانفعال مبلغاً شديداً ، ومن أجل ذلك لا تصدمنا
خيوط السرور والفكاهة في مسرح شكسبير المفجع أو بعبارة أخرى في مآسيهِ .

على أن من المهم أن لا تغطي الفكاهة على المأساة بحيث تفقدها وحدة أثرها
المفجع ، فلا بد أن يظل هذا الأثر في نفوس النظارة متدفقاً ، بحيث لا تعطله
الفكاهة أو يعطله التهكم والسخرية . أو قلّ إن هذه العناصر الفكاهية ينبغي أن
تكون عارضة بحيث لا تفسد وحدة الأثر الحزن في المأساة إفساداً من شأنه أن يقوّض
بناءها ، فهى تتسرب إليه في خفّ وعلى استحياء تسرباً لا يفسد الانفعال العام

وليس الوصل بين المأساة والملهاة هو كل ما ظهر في القرن التاسع عشر مع
الثورة الرومانسية ، فقد حدثت أحداث أخرى ، إذ ظهرت طبقات
العمال وظهرت معها الحركة الواقعية ، وكان لذلك أثره العميق في المسرحيات ،

فقد أخذت تُعنى بحياة الناس الاجتماعية ومشاكلهم وكل ما يتصل بشئونهم وأوضاعهم ، فظهرت الدراما الحديثة ، ذلك النبات الجديد الذى استنبته الأدباء من المأساة واشتقوه منها . والذى لا يُعنى بحياة الملوك والأمراء والنبلاء ، وإنما يُعنى بحياة عامة الشعب وأفراده ، مثله فى ذلك مثل الملهاة ، وقد ألغيت فيه الحواجز بين عناصر الفجيجة والبكاء وعناصر الضحك ، بحيث لا يحتل بناء المسرحية ولا تنتقض وحدة أثرها العام الذى ينبغى أن ينطبع فى نفوس المتفرجين وجمهور المشاهدين .

ومعنى ذلك أن المسرحية تطورت فى العصر الحديث بتأثير الجمهور المشاهد لها وما أصاب الحياة الغربية من تطور واسع . وقد ظلت مع هذا التطور تحتفظ بقيود شديدة ، سواء من حيث اختيار الموضوع والشخص والحوار الذى تدور فيه أو من حيث البناء العام وما ينبغى أن ينقسم إليه من عرض وعقدة وحل ، أما العرض فتقدم فيه أشخاص المسرحية ، كما يقدم شبح الحادثة التى ستتضح معالمها فيما بعد . وتعتقد ، ويبلغ الصراع الذروة ، ثم يكون الحل . وكل ذلك تربطه روابط وحدة عضوية دقيقة ، تنبع الحادثة وتتطور من خلالها ، وهى حادثة تساق فى قصة درامية على لسان شخص يدورون فى فلكها ، شخص لا يستقل بعضهم عن بعض ولا عن الحادثة التى ينتظمون فيها انتظام الأجزاء فى كل أو بناء كبير

ولا بد للمسرحية من موضوع جيد تنبثق فيه ، فليس كل موضوع صالحاً ليكون محوراً لإحدى المسرحيات ، فالموضوعات الوصفية مثلاً لا تصلح للمسرح ، إنما تصلح للقصة التى تتعدد مناظرها ، أما المسرح فنماظره محدودة ، وهو لا يقدم مناظر ، إنما يقدم كما فى المأساة موضوعاً متوتراً ، قد يستلهمه الكاتب المسرحى من الأساطير مثل أسطورة أوديب أو بجماليون . وقد يستلهمه من التاريخ كتاريخ يوليوس قيصر أو كليوباترة وأنطونيوس أو كتاريخ بعض الثورات ، وقد يستلهمه من حياة جيله ومشاكله وقضاياها الاجتماعية . وهو فى ذلك كله إنما يختار موضوعاً غنياً — كالنبع الغزير — لا يزال يفيض بالمواقف التى تنمو خلال صراع شديد بين قوى متعارضة . فلا بد أن يشتمل الموضوع على صراع عنيف ، ولا بد أن يتفجر بالمواقف المتجددة والمفاجآت غير المتوقعة ، تلك المفاجآت التى لا يتم بدونها عمل مسرحى كامل .

ومعنى ذلك أن اختيار الموضوع الصالح للمسرحية أول خطوة تحقق نجاحها ،
وهى خطوة تتبعها خطوات ، تقوم كلها على الاختيار الدقيق . ومما لا ريب فيه
أن من الموضوعات ما يشبه صحراء مقفرة ، فلا يستطيع أى مؤلف أن يبعث فيه
الحياة ، مهما أوتي من قدرة الخلق المسرحى ، ومنها ما يشبه السهل الخصب ،
فهو بطبيعته غنى بالحياة وبالشخص ذات الانفعالات المتنوعة والطبائع المتباينة .

وتأتى بعد اختيار الموضوع طريقة المعالجة فلا بد من تخطيط دقيق للفصول
والمناظر ، بحيث تتوازن أجزاء المسرحية ، وبحيث يُسلم كل فصل وكل منظر إلى
أخيه ، بدون أى نشاز أو اضطراب . ولا بد أن نتبين طبائع الشخص بسلوكها
وسماتها النفسية ، ولا بد أن تنمونوا طبيعياً ، وقد سلّطت على كل منها الأضواء التى
تبرزها جليّة ، بحيث لا يطفئ شخص على شخص ، وبحيث نحس أن الشخص تنبض
حقاً بالحياة ، فهى ليست دُمى تتحرك على المسرح إنما هى أحياء حقيقية .
وينبغى أن يكون عدد الشخص محدوداً بحيث لا تكثر كثرة تحدث تشويشاً
على المسرح واضطراباً فى سير الحوادث . ومثل الشخص المناظر فإنها ينبغى أن
تكون قليلة ، ولعل ذلك ما جعل النقاد فى بعض العصور يشترطون فى
المسرحية وحدتى المكان والزمان ، حتى قالوا إنه ينبغى أن تقع حادثة المسرحية فى
يوم واحد . وبمضى الزمن تخلص أصحاب التمثيل من هذين القيدين ، وإن بقيت
لهما ظلال كثيرة فى الأعمال المسرحية ، لسبب بسيط وهو أن المسرح لا يحتمل الاتساع
الطويل بالزمن ولا كثرة المناظر فإن من شأنهما أن يشتتا ذهن المشاهد ويُحدثا
تفككاً فى تسلسل القصة المسرحية واضطراباً فى سياق العمل المسرحى . ومن أجل
ذلك كان كثير من الكتاب المسرحيين يحافظون على هاتين الوحدتين بدون قصد ،
فإن لم يحافظوا عليهما لم يبعدوا عنهما كثيراً ، وكأن فى طبيعة المسرحية وما تحتاجه
من ربط وثيق لأجزاء الحادثة ما يوحى بذلك ويدفع إليه

تُمثّل المسرحية إذن فى حيز زمنى ضيق وفى مناظر محدودة ، متخذة قالباً
لا تعدوه ، هو قالب الحوار ، وهو قالب يشتمل على غير قليل من الصعوبة ،
فلا بد للكاتب المسرحى فيه من درس وتأمل طويل حتى يتقن ما يتطلبه من تركيز
شديد وكلمات موجزة دقيقة لا تفصح عن المعنى بحذافيره ، بل توحى به إحاء

يساعد على شدة الانفعال وإثارة العواطف في جمهور المشاهدين . ومعروف أن الكاتب المسرحي لا يتجه إلى العقل ، وإنما يتجه قبل كل شيء إلى العاطفة يريد أن يثيرها حتى يستولى على مشاعرنا باندلاع اهتمام فينا لا يفارقنا ، كأنه اللهب المشتعل ، وهو لا يزال يمد هذا اللهب بوقود الكلمات الموجزة المثيرة ، والأخرى الزاخرة بالتلميح

وفي هذا التلميح وما يتصل به من إيجاز شديد تكمن خصائصُ الأسلوب المسرحي ، بل خصائص المسرح كله ، فهو يقوم على التلخيص وعلى الضيق المسرف ، إذ تشغل المسرحية حيزاً محدوداً من الزمان والمكان ، وعلى الكاتب المسرحي أن يملأ هذا الحيز بكل ما يريد أن ينفذ إليه من تأثير على النظارة بانفعالات متوترة لا أثر لتراخ فيها . فعمله عمل سريع ، عمل يدور في حوار ، قوامه السرعة واللمحة الدالة والإشارة من طرف خفي . وما أشبه الكاتب المسرحي بالطائر في شُرْبِهِ فهو يلمُّ بالماء إلاماً سريعاً ثم يقفز طائراً ، وكذلك شأن الكاتب المسرحي فأساس عمله وحواره القفز السريع ، إذ يعبرُ بكلمة أو كلمات قليلة ، فيحيط بفكرة أو يرسم شخصية . كلمات استودعت كل ما يمكن من قوة ونفاذ وحيوية ، كلمات لا تصف حادثاً ماضياً ، وإنما تصف حادثاً حاضراً يقع تحت أبصارنا ونشاهده بعيوننا ، كلمات يستخدمها على نحو ما يستخدم الرسامون الألوان في لوحاتهم ، وما المسرحية إلا لوحة ، كل كلمة فيها كأنها لون يؤكد الصراع لا بين الظلال والأضواء ، ولكن بين القوى المتباينة فيها ، وكل كلمة تجاور صاحبها كما يجاور الظل الضوء لتعبر في لحظة خاطفة عن موقف أو دخيلة نفس .

والمسرحية تتألف من فصول ، ولكل فصل مساحته القليلة ، وكل فصل كبنائها العام له أول ووسط ونهاية ، وهو لا يستقل بنفسه ، فهو حلقة في سلسلة تتابع فيها التحولات والمفاجآت والجمل المضيق والحكم البليغة والكلمات المقتضبة التي تتعمق بإيجاعاتها وإلماعاتها في أغوار الطبائع وأعماق النفوس ، كلمات ضُغِطت أشد ما يكون الضغط ، فلا إفاضة ولا إسهاب ولا استرسال . فإذا أفاض مؤلف مسرحية في الكلام على لسان بعض الشخص تداعى منه البناء المسرحي ، فما بالنا لو عمد إلى هذه الإفاضة على لسان كل الشخص . إنه حينئذ لا يؤلف مسرحية وإنما

يؤلف قصة : بل لعله لا يؤلف قصة ، فقد وقع بين عمليين مختلفين ، ولم يستطع النهوض على سُلَّم يرفعه إلى أحد الجانبين ، فللقصة قوالها وهي لا تتخذ قالب الحوار من فاتحتها إلى خاتمتها ، قد يتخللها ، ومع ذلك حين يتخللها لابد أن يطبع بطوابع الحوار المسرحي المركز المضغوط .

وهذا الضغط والتركيز في المسرحية وما يُطَوَّى فيهما من إيجاز شديد يلفتنا إلى شيء مهم فيها وخاصة في المأساة وهو أن لغتها ترتفع عن لغة الحياة اليومية الجارية ، لسبب بسيط وهو أنها تحتاج ضرباً من المهارة الفنية ، وهي لذلك لا تُشتقُّ اشتقاقاً من لغة الحياة العادية ، ففيها فن ، وفيها تلميح وإيحاء وفيها قدرة الاستيعاب الدقيق لتصوير الطبائع البشرية والنفوذ إلى أعماق الأسرار الإنسانية باللمحة الدالة والإشارة المقنعة

وحقاً هي تحاكي لغتنا العادية ، ولكنها تختلف عنها ، فهي تلخص وتحشد وتركز ، وكأنها لغة تباين لغتنا إذ لا تُرْسَلُ فيها الكلمات إرسالاً على نحو ما نصنع في حديثنا العادي لسبب واضح وهو أن الزمن مبسوط أمامنا في أثناء تكلمنا ، وليس لنا غايات فنية ، إنما نريد مجرد البيان . أما في المسرح فالكتاب يطلبون بياناً من نوع خاص ، نوع مسرحي ليس أمام صاحبه إلا لحظات محدودة كي يعبر بلسان الشخص عن فكرته ، وعليه أن يختار الكلمة الدقيقة الموحية وأن يقتصد في كلامه ما استطاع ، فهو فنان مقتصد ، ينبغي أن تتحول اللغة في يده إلى ما يشبه الأرقام ، وعليه أن يتسع بدلالة هذه الأرقام ، حتى تحمل كل ما يمكن من ثراء معنوي .

ومن أجل ذلك كله كانت لغة المسرحية ترتفع عن اللغة العادية ، فهي لغة منتقاة ، ينتقيا ذوق مرهف ، صقلته المراتة ، ذوق يعرف كيف ينتقى من الألفاظ ما يثير فينا الفزع والخوف والرحمة إن أَلَفَ صاحبه مأساة وكيف ينتقى منها ما يثير فينا السخرية والمرح والفكاهة إن أَلَفَ صاحبه ملهاة ، ذوق يُحْكِم التعبير ويضبطه ، وكأنما كلمات اللغة كلها رهن إشارته ليختار منها أرقها وأدقها في الدلالة على الحوادث والشخص والطبائع والسجاياء ومكنونات النفوس وخفاياها .

وكل هذه وظائف في لغة المسرحية من شأنها أن ترتفع بها عن لغة الحياة اليومية

الجارية ، ولكنه الارتفاع القريب الذى لا ينتهى إلى استخدام الألفاظ الغريبة أو الوحشية . فالغربة والوحشية ليستا من صفات التعبير المسرحى ، بل هما من معوقاته ، إذ الكاتب يخاطب به جمهوراً محتشداً لا يحمل المعاجم اللغوية فى معارفه ولا على صدورهم . والمهم أن يكون تعبيراً جميلاً ، ليس فيه غربة ولا ابتذال ، وإنما فيه الصفاء والقوة والوضوح ، ولكنه ليس الوضوح الذى تعشو منه الأبصار ، وضوح فيه حسن الدلالة دون أن يخطف الأنظار ؛ وضوح يفجر فى نفوسنا ينبع الألم أو السرور ، ويزخر بالتحويلات والمفاجآت والكلمات الملونة الموحية التى تخلق ألبابنا ، وتستولى على قلوبنا ومشاعرنا . كلمات فوق كلمات لغتنا اليومية ، تحاكيها ولكنها ترتفع عنها .

ولعل فيما قدمنا ما يدل على خطأ من يدعون إلى استخدام العامية فى المسرحيات المعاصرة ؛ وكأننا فاتهم أن يعرفوا أن لغة المسرحيات ترتفع دائماً عن اللغة الشعبية قليلاً أو كثيراً ، لأنها لغة موجزة موحية لها وظائفها المسرحية العديدة ؛ ولذلك كان أولى لها أن تتخذ حُلَّتَها من الفصحى ، لأنها اللغة الأدبية التى طالما مرت بها أدباؤنا على الإيجاز السريع ، ولا نرتاب فى أن مادتها من حيث حاجة المسرح اللغوية أكثر غنى وخصباً

ومعروف أن المسرحيات القديمة عند اليونان والرومان كانت تصاغ من الشعر وكذلك كان الشأن عند أصحاب المسرح الكلاسيكى الفرنسى ، بل لقد استخدم الفرنسيون فيها حينذاك الشعر المقفى تقفية متعانقة أو متقابلة . أما شكسبير وأدباء عصره من الإنجليز فاختروا الشعر المرسل المتحرر من القوافى إلا أنه شعر على كل حال ، وهو إن فقد روعة القافية أو القوافى فإنه لا يفقد روعة النظم ولغته السامية . وقد حطمت المذاهب التى تلت الكلاسيكيين هذا الإطار الشعرى وأحلت محله إطاراً نثرياً ، ولكنه ظل فى المأساة خاصة قريباً إلى الأسلوب الشعرى الرائع الحافل بالإيقاع والرنين . أما الملهاة فكانت من قديم تقرب من روح النثر فى انحرافه عن الأخيلة الغنية وفى استخدامه للكلمات العادية ، وهى لذلك أكثر من المأساة قابلية لاستخدام لغة الحياة اليومية ، بسبب ما تنشده من إثارة الضحك فى النظرة بكلمات وجُمَل تجرى فى حياتهم وتدفعهم دفعا إلى الضحك والاستغراق فيه .

أما المأساة فقد استمر لها سموها اللغوي ، إذ اقترن تاريخها في أزمان متطاولة بالشعر الرفيع ، وكان اليونان كما قدمنا يضيفون إليها أناشيد تغنى وتُصحبُ بالعزف والرقص ، وقد انفصلت عنها في العصر الحديث ، ونشأ المسرح الغنائي الخالص على نحو ما نعرف في الأوبرا ثم الأوبريت . على أن هذا الانفصال لم يفقد المسرحيات في أوائل العصر الحديث - كما قدمنا - صفتها الشعرية ، بل لقد ظلت تُنظَّمُ شعراً حقبةً متطاولة ، وكأنما أحسَّ اليونان ومن جاء بعدهم أن في موسيقاه ما يتمم الانفعالات ويعمقها في أغوار النفوس ، ولعلمهم شعروا في عمق أن إيقاعات الشعر من شأنها أن تخفف حدة الفجيرة وحدة الألم وأن تصبَّ في القلوب هذا الحذر البهيج الذي نحسُّه حين ننصت إلى قطعة موسيقية جميلة .

على أن استخدام الشعر في المسرحيات ينبغي أن يحاط بعناية شديدة ، حتى لا تتحول المسرحية إلى قطع من الشعر الغنائي الخالص ، وقد كان من أهم ما وُجِّهَ إلى شوقي من نقد في مآسيه أنه استخدم أوزان الشعر الغنائي وقوافيه ورواسبه اللفظية والخيالية . وأطال في الحوار ببعض المواضع حتى خرج عن وظيفته المسرحية . ولم يكتف بذلك ، فقد أدخل في المآسي كثيراً من المقطوعات بقصد الغناء ، وكأنه عاد بنا إلى المسرح اليوناني ، ولم يحتفظ لنفسه بخصائص الحوار المسرحي الدقيق وما يرسمه من الصراع العنيف وطبائع الشخصوص بدون حشو ولا ملال . وقد يرجع ذلك إلى أن شوقي لم يكن واسع الاطلاع على النقد المسرحي في أطواره المختلفة . وربما كان عزيز أباطة أكثر توفيقاً منه في البناء المسرحي والحركة الدرامية ولكنه يقصر عنه في الروعة الشعرية ومن أهم عيوبه استخدامه أحياناً للألفاظ الغريبة الوعرة

وكثرةُ الكتاب المسرحيين عندنا اليوم يكتبون مسرحياتهم نثراً ، ومنهم من يكتب بالفصحى ومنهم من يكتب بالعامية . وإننا لنأمل أن تسود عندهم الكتابة بالفصحى ، لما تمتاز به من إمكانيات لغوية وموسيقية كثيرة . فهي تزخر بالعبارات الموجزة المركزة وبالإيقاعات الصوتية التي من شأنها السمو بالحوادث المسرحية ، وهل يوجد فن سام بدون إيقاع أو إيقاعات ، إنه لا ينطق ولا ينبض بحياة .

المسرحية والطبيعة الإنسانية

تقدّم لنا المسرحية الناجحة طبيعة الأفراد ومقوماتهم النفسية والاجتماعية والإنسانية ، مستعينة بخيال الأديب الحاذق على رسم نماذج تحاكي الواقع ، بحيث إذا شاهدناها من فوق المسرح أو قرأناها في الصحف المكتوبة أحسنا أنها ذات قسّمات واضحة ، قسّمات لا تنهى بها إلى ضرب من ضروب النسيان ، إنما تنهى بها إلى الخلود والبقاء على وجه الزمن ، إذ لا تمثل الأفراد في ظاهرها الواقعي فحسب ، بل تنفذ أيضا إلى أغوارها الإنسانية .

وكأن الشخص من شخوص المسرحية رمز كلي يمتزج فيه الوعي الاجتماعي بالوعي الإنساني امتزاجاً يملؤه الكاتب بالفكر العميق والمشاعر الصادقة والمعرفة الكاملة للطبائع البشرية .

ولا بد أن نلاحظ أنه لا يوجد كاتب مسرحي في عصرنا إلا وهو يلاحظ حاجات المسرح وحاجات الجمهور الذي يشاهد مسرحياته مصوراً مشاكله وقضايا مجتمعه وما يناضل عنه من مذاهب فكرية . وليس معنى ذلك أنه يتخلى عن العلاقات الإنسانية وقرارها العميق ، بل هو يبحث عنها في تلك المذاهب والقضايا والمشاكل غائصاً إلى الحقائق الخالدة غوصاً لا يتاح إلا للأفذاذ من الكتاب المسرحيين ، الذين لا يزالون يدرسون ويفحصون ويتأملون في مجتمعهم وأفراده ، مخلصين في البحث عن كيان الروح الإنساني ومكنونات النفوس محاولين التغلغل من خلال الظروف الاجتماعية الخاصة إلى باطن الحياة الإنسانية العامة

ومن هنا تبدو صعوبة المسرحية ، فهي لا تعالج واقع المجتمع معالجة سطحية ، وإنما تحاول النفوذ إلى أعماق الأسرار البشرية ، إلى الدخائل المطوية وما يعاينها الإنسان من صراع بينه وبين غيره أو بينه وبين قوى خفية ، صراع يضطرم في أعماق أعماقه . ولتستمد المسرحية ما شاءت من الواقع ومن حياتنا اليومية ، ولكن لا لتبقى عليه في صورته الواقعية الخالصة ، بل لتحوّله إلى صورة بارعة من

صور الإحاطة الباطنة بالحياة الإنسانية

وليس معنى ذلك أن المسرحية لا تتطور ، بل هي تتطور مع كل زمن ، فليست المسرحية عند اليونان كمسرحية « شكسبير » أو مسرحية « كورنى » ، ولا هاتين كمسرحيات القرن التاسع عشر أو القرن العشرين ، فالصراع هنا وهناك يتطور ، من صراع الإنسان مع القدر والقوى الغيبية ، إلى صراع عاطفته مع الشرف والواجب أو صراع عناصره النفسية أو صراع الأفكار والمواقف الاجتماعية أو صراع العقل الواعى مع العقل الباطن .

ودائماً نجد العمق ، بل كلما تقدمنا مع الزمن كلما تغلغل الكتاب المسرحيون فى أعماق النفس الإنسانية ، ولنضرب مثلاً « إبسن » فى مسرحياته فإنه أكثر عمقاً من سابقه ، سواء من حيث تصوير الشخص أو من حيث الجو الذى تعبق به مسرحياته وملاءمتها للعصر الذى تعيش فيه . ولنقف قليلاً عند مسرحيته المشهورة « الأشباح » فإنها تستمد فكرتها من النظرية الحديثة للوراثة ، فأثام الآباء تقع على الأبناء ، إذ يجب شاب فى أسرة خادما ، يتضح أنها أخت له غير شرعية ، ويمرض الشاب بمرض « الزهري » الذى ورثه من أبيه ، ولا يزال يتعاطى أقراص « المورفين » . وفى أثناء ذلك يعمق « إبسن » المأساة فى نفوس المشاهدين لا بما يصور من ألم الأفراد فحسب ، بل أيضاً بما يؤكد من نظرية الوراثة وأن ما يشاهدون إن هو إلا ميسمها الذى يطبع بطوابعه الجميع . واستغل غير كاتب هذه النظرية فى مسرحياته وكأنها حلت عندهم محل نظرية القدر القديمة وما كانت تلقيه من رعب وذعر فى نفوس المشاهدين .

ومعنى ذلك أن تخلص الإنسان الحديث من القدر وما يُطَوَى فيه من القوى الغيبية أتاح له هذا اللون من التجديد الذى يلائم العقل الحديث ، والذى يفسر الأشياء من قريب ، يفسرها تفسيراً علمياً لا أثر للخوارق أو القوى الغيبية فيه . ومن هذا التفسير نفسه تستمد المأساة الحديثة عمقها ، فأسرة يحل بها البوار لا عن طريق لعنات الآلهة وإنما عن طريق لعنات الوراثة ، إما داخلياً كما رأينا فى مأساة الأشباح ، وإما خارجياً من المجتمع نفسه حين يسلط القانون على شخص لم يرتكب شيئاً مما ارتكبه آباؤه .

وقد أتاحت الدراسات النفسية لكتاب المآسى في هذا القرن منابع كثيرة لاستخدامها في الصراع الناشب بين العقل الواعى واللاشعور أو بين العلاقات الإنسانية وعلاقات النفس الداخلية . وهو صراع لعله أبعد غوراً من صراع الإنسان مع القدر والقوى الغيبية ، صراع يحتم في الروح ويضطرم في أعماق الأعماق اضطراماً ، حتى ليأخذ شكل معارك عنيفة ، وهى معارك ليست بين قوة من الداخل وقوى من الخارج ، وليست بين عاطفة وواجب ولا بين فكرة وفكرة ، إنما هى معارك تستكن في داخل الشخص وأغوار نفسه البعيدة ، ومن هذه الأغوار تتكون العقدة ومعالم الشخص ، ويتكون الحوار وتتكون كلماته

ومن المعروف أن أغوار النفس لم تُكشفْ كُشفاً تاماً ، بل إنها العالم المجهول الذى لا يزال يتغلغل فيه العلم ، باحثاً في مطالب الإنسان العضوية والنفسية وفي عالم اللاشعور الخفى ومشاكله وعُقدّه ومتناقضاته وما يزخر به من بواعث الضيق والقلق في الحياة ، تلك البواعث التى تشبه أدغالا ملتفة بما فيها من مكبوتات وأصداء لا حصر لها ، أصداء لكل ما يمر بالإنسان من أحداث .

ومعنى ذلك أن المأساة الحديثة تتعمق في مشاكل الإنسان النفسية وأيضاً فإنها تتعمق في مشاكله الاجتماعية ، ومما لا شك فيه أن صفة التعمق فيها تبعد مراحل واسعة عن صفة التعمق في المآسى القديمة ، إذ تتغلغل في عالم العقل الباطن وأسراره كما تتغلغل في عالم الواقع وقضاياه الفكرية تغلغلا يكتمل فيه الوعى بهذه القضايا وعيا إنسانيا . ومعنى ذلك أنه ينبغي لكاتب المأساة الاجتماعية أن ينفذ فيها إلى وعى إنسانى عام نفوذاً من شأنه أن يناقش المشكلة التى يصورها في إطار إنسانى واسع ، بحيث لا تصبح مشكلة مجتمع بعينه ، بل تصبح مشكلة عامة من مشاكل الإنسانية

وارجع إلى كتاب المآسى الاجتماعية الخالدة فستجدهم مهما استمدوا من واقع مجتمعهم يحرصون على رسم نماذج إنسانية عامة ، نماذج تعيش لجميع الأجيال غير مقيدة بالجيل الذى مثلوها له أو مثلها له الممثلون ، وحقا إنها تأخذ مادتها من مجتمعهم ولكنهم يبثون فيها من الحقائق الإنسانية الخالدة ما يجعلها تبقى في ذاكرة الأجيال ، ولذلك كانت تنتقل من جيل إلى جيل ومن لغة إلى لغة ومن بلد إلى بلد

ومن زمن إلى زمن ، فلا يعترينا وهم ، بل تتجدد وكأن كل عصر يجد فيها تفسيره ، أو قل يجد فيها هذا الشيء الثابت في الإنسان الذي لا يبلى ولا يعصف به عامل من عوامل النسيان

وينبغي أن نعرف دائماً أن هذا الجانب الإنساني في المأساة لا يتعارض بحال مع واقعيتها بل هو يعمق الوعي بهذه الواقعية ، إذ يستشف الكاتب من عناصر الواقع المحلية عناصر إنسانية من شأنها أن تحوله من الرؤية السطحية لمجتمعه ومشاكله إلى الرؤية الإنسانية العميقة المبصرة . و' لا ريب فيه أنه ليست مهمة الكاتب المسرحي الواقعي أن ينقل صورة مجتمعه وقضاياها نقلاً مطابقتاً للأصل ، بل مهمته أن يضيف إلى الأصل بصيرته النافذة ومخيلته الواعية ، أو بعبارة أخرى يضيف إليه إرادته الفنية . فهما يكن الفنان واقعياً موعلاً في رسم الواقع فلا بد له من سكب إرادته في عمله ، على نحو ما نعرف في مذاهب الرسم المختلفة ، فليس هناك مذهب ينقل الواقع دون إضافة فيه ، فذلك من عمل آلات التصوير . على أن أصحاب هذه الآلات يختارون المناظر والأوضاع المختلفة التي تجلوها على أحسن وجه وأجمل صورة

وليست المسألة في المسرحية عامة مسألة إرادة الكاتب المسرحي الفنان فحسب ، بل فيها ما قدمناه من أنها تتعمق الإنسان وتنفذ إلى الأشياء الثابتة فيه ، فأصحابها لا يؤلفون قصصاً للتسلية وترجية الفراغ ، بل هم يريدون أن يمتنعوا إلى أقصى حدود المتعة بنماذج حية ، نماذج تصطرع فيها القوى مع القضاء والأجل المحتوم ، أو تصطرع فيها الأفكار والمواقف الاجتماعية . وفي رأينا أنه مهما تكن المسرحية واقعية لا بد أن تصور هذا الصراع بين العقول والنفوس أوبين المبادئ العامة فاسفية كانت أو اجتماعية . ولعلنا لا نغلو بعد ذلك إذا قلنا إنه بمقدار ما يتيح الكاتب المسرحي لمسرحيته من تعميم يكون خلوده في الأجيال الإنسانية ، فإذا كانت قوة التعميم فيه محدودة أو كان لا يستطيع أن يمدّها إلا إلى حقب معدودة تقيد بهذا التحديد أو تلك الحقب القليلة ، فلم يكن كاتباً إنسانياً يؤدي رسالته نحو جمهوره ، بل كان كاتباً وقتياً . وقد تنجح مسرحيته ، ولكن هذا النجاح الموقوت الذي لا يتفاعل فيه الكاتب مع واقعه ، فهو ليس من أصحاب النظرات النافذة العميقة في الإنسان ، وموهبته ليس لها من القوة ما تستطيع به البقاء طويلاً ، ولا من النفوذ ما تستطيع به

التعمق البعيد لسبب بسيط وهو أنها موهبة قاصرة تنقصها قدرة الإبداع المسرحي الخالد الذي يستطيع صاحبه عن طريق الإيحاء والتضمين أن يمثل واقع عصره نافذاً إلى المعانى الإنسانية الكلية ، فإذا الحادث المفجع فى شخصه يصبح له من قوة التعبير عن مسائل العصر وقضاياها مع النفوذ فيها للمعانى الإنسانية ما يجعله خالداً .

وهو خلود ينبغى أن يزدوج فيه الإتقان الفنى والتعمق فى الوعى الإنسانى بحيث يتألف عمل مسرحى كامل ، أحكمت فصوله ومشاهدته أو مناظره ، كما أحكمت عقده وما فيه من صراع ، وما يرتسم فيه من شخص ، فإكل شخص دوره البين فيه ، وإكل شخص نفسيته وسماته الواقعية والإنسانية التى تحكى فرداً بعينه من جهة كما تحكى جيلاً بل أجيالاً من جهة أخرى . فهى شخص فيها شمول وتعميم ، شخص نموذجية ، لا تحوّل صورها المحلية الموقوتة عن أن نرى من خلالها صوراً إنسانية عامة ، وكأن الكاتب لا يمثل أفراداً بأعيانهم وإنما يمثل الجنس البشرى كله ، فإن له من نفاذ البصيرة ما يجعله يخلق هذه النماذج خلقاً واضحاً لا التواء فيه ولا غموض ، أو قل خلقاً مستبين الملامح واضح المعالم .

إنه لا يخلق أناساً من بيئة خاصة ليصور فيهم بيئتهم ومشاكلها فحسب ، بل هو يغوص فى هذه البيئة وفى كل ما يجرى فيها من قضايا ومواقف إلى القرار الإنسانى العميق ، وهو غوص ينفذ إليه عن طريق تعمقه فى فهم الإنسان بما له من حاسة صادقة يستطيع بها أن يحلله تحليلًا نفسيًا واجتماعيًا يستبر فيه أغواره ، عماده فى ذلك حرية تامة فى الخلق ، فليس هناك ما يقيد ولا ما يفرض عليه طريقته فى رسم الطبائع البشرية ، وإلا بدت شخصه صناعية ، فهى لا تتراد لنفسها ولا لعملية من عمليات الخلق الأصيل .

ولا يلاحظ هذا فى المأساة وحدها ، بل يلاحظ أيضاً فى الملهاة ، فهى مع قربها من حياة الناس ومع أنها أدنى بطبيعتها إلى تصوير العلاقات بين الشخصون تصويراً سطحياً لا عمق فيه لا بد لها من صفة التعميم فى تصوير النماذج المضحكة التى تقدمها ، بحيث نشعر أن شخصها يطوون فى صورهم وملاحظهم لا جيلاً واحداً ، بل أجيالاً كثيرة ، من الناس .

فالملهاة المضحكة كالمأساة المفجعة لا بد فيها من التعمق في فهم الطبائع البشرية ، بحيث تكون الشخصية المضحكة شخصية عامة تتخطى حواجز الأجيال بفكاهتها وكل ما يجرى على لسانها من هزل أو من سخرية وتهكم ، أما إذا كانت الشخصية المضحكة شخصية خاصة فإنها تكون شخصية فقيرة لا تعبر عن نمط واسع من أنماط الإنسان ، فنمطها محدود لا يستطيع أن ينتقل من جيل إلى جيل ولا من عصر إلى عصر ولا من مكان إلى مكان ، وهي بذلك تفقد الأصالة والروعة .

إنما تأتي الأصالة والروعة في الملهاة حين يصبح الشخص المضحك نموذجاً طبيعياً لصفات وعلاقات نفسية عميقة . وهذا ليس معناه أن كاتب الملهاة ينبغي أن يفصل عن مجتمعه في كلامه الذي يُجْريه على لسان شخصه أو في شخصه أنفسهم وما يرسم لهم من ملامح ومعالم ، فهو أكثر من كاتب المأساة قرباً من المجتمع الذي يعيش فيه ، وهو لذلك حرى بأن يستمد منه ما يسوئ به تلك المعالم واللامح ، ولكن على أن يعطيها من العناصر الإنسانية العامة ما يجعلها تتخطى حدود قومه ، فإذا هي تعيش في كل جيل على نحو ما عاش بنجيل «مولير» وعلى نحو ما عاشت شخصيات مضحكة كثيرة عند كتاب المسرح الأفاضل .

إن الناس في كل عصر يضحكون ويسخرون من البخيل ومن الغشاش المدلس ومن المنافق ومن المعتوه الذي لا يتصرف تصرف العقلاء . فعناصر الضحك عناصر عامة ، وواجب الكاتب المسرحي أن لا يفقدها عمومها بل يتركها لها ، بل يعمل على أن تمثله تمثيلاً قوياً ، واضعاً نصب عينيه أنه لا يكتب ليئة خاصة وإنما يكتب للناس جميعاً

وهذا هو معنى العمق الذي نريده للمسرحية سواء أكانت ملهاة أم مأساة كما نريده لطبائع الشخصيات التي ترسمها ، وهو عمق ينتهي بهذه الطبائع إلى أن تصبح طبائع بشرية عامة ، طبائع لا يمكن التبديل فيها ولا التغيير في ملامحها ، لأنها إنما تقوم بهذه الملامح دون سواها ، وهي ملامح تكشفها لنا أقوال وأفعال لا نرى أو نسمع أي فعل فيها أو قول حتى نقول إنه هو نفسه الذي يجب أن يُفْعَلَ أو يقال .

ومعنى ذلك أن الكاتب المسرحي إنما يقدم لنا من خلال مجتمعه صوراً معنوية للجنس البشري ، صوراً يستعين في رسمها بالتحليل النفسي العميق للإنسان ، وما

يواجهه من مشاكل الحياة في المأساة ومن علاقات الناس بعضهم مع بعض في الملهاة ، وهدفه أن يسوّى الصورة التي يأخذ مادتها من مجتمعه على أتم ما تكون من السعة والعمق في تصوير الطبائع البشرية ، وهو لذلك لا يزال يستبطن إنسان مجتمعه ولا يزال يدقق في كلامه ومواقفه ، حتى ينكشف له النموذج الإنساني الذي يريده مفاجئاً أو مضحكاً بعد درس طويل وفي أثناء غوص عميق

فلا بد إذن من الدرس ولا بد من الغوص أو قل لا بد من البصيرة النافذة التي يستطيع الكاتب المسرحي بها أن يتغلغل - من خلال واقع مجتمعه - في النوع الإنساني ، إنه لا يقدم أناساً فرادى ، وإنما يقدم النوع بحذافيره وبكل ما يومض فيه من حياة مشتركة بين أفرادها ، يقدمه بكل ما يفكر فيه وكل ما يحس به ، بل قل بكل عناصره الثابتة فيه ثباتاً مستمراً على الدوام . وكأنه لا يصور حياة فرد بعينه وإنما يصور حياة الروح في إنسان ، الروح الخالدة ، التي يضيئها نفس القبس في كل عصر وفي كل أمة ، تلك الروح التي توحد بين الناس وترفع كل حاجز من طريقها سواء أكان حاجزاً مكانياً أم زمانياً ، فهي لا تعرف الحواجز ولا تعوقها العوائق ، إنما تعرف الاتحاد والاندماج في كيان واحد هو كيان الإنسان . وهو كيان ثابت ، اختلفت عليه أعصار وأقطار ودول وممالك وحضارات مختلفة ، وهو هو لا يزول ولا يحول ، يولد فيه كل جيل ، ثم يدخل في ظلال الفناء ، فيخلفه جيل آخر ، يحمل نفس الروح ونفس الإحساسات والمشاعر ، وكأنما لا توجد حدود لهذا العالم الإنساني عالم الروح . وهو عالم قديم جديد معاً ، عالم زاخر بالمشاكل المعقدة والمشاعر المتباينة المتضاربة . وعبثاً يحاول علم النفس الحديث أن يكشفه ، وعبثاً يحاول الإنسان نفسه أن يفك طلاسمه ، وهو عالم يفيض بالأحاسيس كأنها أنهر تتدفق ، وهي تتدفق من قديم بين رياض وغياض فيها السعادة والشقاء وفيها النضرة والذبول

والكاتب المسرحي الذي لا يحس الإنسان في مجتمعه هذا الإحساس العميق لا يستطيع أن يكتب مسرحية لها قيمة لسبب واضح وهو أنه لا يقصّ فحسب ، وإنما يصور أو يحاول أن يصور جاهداً طبائع البشر وسجاياهم ، تلك السجايا التي نراها في كل عصر وفي كل أمة ، سجايا الجنس البشري كله ، التي تحاول المسرحيات الجيدة

أن ترسم جوانب من معالمها الظاهرة والباطنة ، حتى ندرك الحياة إدراكاً سليماً ،
وتقصد الحياة الإنسانية وما يضغط عليها من ظروف نفسية واجتماعية .

وكل منا له نصيبه وحظه من الخبرة بواقع مجتمعه ، ولكن خبرة الكاتب المسرحي
بهذا الواقع أشد عمقاً ، فهو أكثر منا حكمة وأكثر منا فهماً لحياتنا ، وهو يصوغ
فهمه المتعمق في شكل شخص مسرحية ، شخص تجسم أفكاره ، بل أفكار
الإنسان في مجتمعه وكل ما يتصل به من صفات ذاتية ، صفات ترسب في قاع النفوس
من حوله ، وسرعان ما تطفو على سلوك شخصه وأعمالهم في شكل أفكار ومشاعر
يتشكلون بها تشكلاً حياً ، وكأنه غواص ماهر يعرف كيف يستشف النفوس وأخلاقها
وطبائعها ومواقفها في الحياة ، بل يعرف كيف يغوص تحت الأمواج وزبدها ليصل
إلى القاع ، إلى الجوهر المكنون جوهر النفس البشرية . وهو يستمد من بيئته وقضاياها
كقضية حقوق العمال أو حقوق المرأة ، ولكنه لا يقف عند السطح والقشور ، بل
ينفذ إلى الدرر البعيدة في السجاياء والأخلاق ومشاكل النفوس والحياة .
إنه يخلق أنماطاً من الناس ينفذ ببصره إلى أعماقهم ، فإذا هم يمثلون أنواعاً من البشر
بأفكارهم وأحاسيسهم ، أنواعاً لا تزال تنبض بالحياة فيراهم كل جيل وكل زمن
فيحس كأنهم منه ، لأنهم يحملون صورة النفس البشرية الحالية ، وكأن الشخص
ليس مرآة لنفسه ولا لمجتمعه فحسب ، وإنما هو أيضاً مرآة للناس طراً ، مرآة أتم
ما تكون صفاء ونقاء .

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة التاسعة ٣٤٠ صفحة
- دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة الثامنة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة التاسعة ٣٠٨ صفحات
- البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر
بني أمية
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي:
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة
- في الدراسات النقدية
● في النقد الأدبي
الطبعة السابعة ٢٥٠ صفحة
- فصول في الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
- في الدراسات البلاغية واللغوية
● البلاغة: تطور وتاريخ
الطبعة الثامنة ٢٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
الطبعة السادسة ٣٧٦ صفحة

- في الدراسات القرآنية
● سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- في تاريخ الأدب العربي
● العصر الجاهلي
الطبعة الرابعة عشرة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي
الطبعة الثانية عشرة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسي الأول
الطبعة الحادية عشرة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسي الثاني
الطبعة السابعة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الثالثة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثانية ٥٠٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الأولى ٥٥٢ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
● الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الحادية عشرة ٤٠٠ صفحة

- تجديد النحو
الطبعة الثالثة ٢٨٢ صفحة
- تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً
مع نهج تجديده
الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات
- الترجمة الشخصية
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- الرحلات
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة
- في مجموعة نوايخ الفكر العربي
ابن زيدون
الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة
- في مجموعة فنون الأدب العربي
الرياء
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
- المغرب في حلّ المغرب لابن سعيد
الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة
الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة
- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة
- كتاب الرد على النحاة
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة
- الدرر في اختصار المغازي والسير
لابن عبد البر
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة
- الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحات
- الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

في سلسلة «اقرأ»

- العقد
الطبعة الخامسة
- البطولة في الشعر العربي
الطبعة الثانية
- معنى (١)
الطبعة الثانية
- معنى (٢)
الطبعة الأولى
- الفكاهة في مصر
الطبعة الثانية

١٩٩٣/١١٢٥٧	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4322-1	الترقيم الدولي

١ / ٩٣ / ١٣١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

قرش حنينة
٨.٢٥

هذا الكتاب

فصول في النقد الأدبي تصور تطور دراساته منذ نشأته إلى اليوم ، وما شاع فيه حديثاً من التأثير بمنهج البحث في علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية وما يتصل بها من الأبحاث النفسية والاجتماعية ، كما تصور الآراء المختلفة في تحليل الأدب وتقويمه وتفسير جماله الفني وتعليقه وكيف تدرس شخصياته وما يقوم بينه وبين العلم من فوارق وبينه وبين الفنون من صلات وروابط . كما تبسط هذه الفصول الحديث في الشعر وعناصره الموسيقية والتصويرية والمعنوية والأسلوبية .



٦٨٤٣